محمد المزوغي

الاستشراق والمستشرقون في فكر هشام جعيّط





منشورات الجمل

محمد المزوغي:
الاستشراق والمستشرقون
في فكر هشام جعيّط

محمد المزوغي

الاستشراق والمستشرقون في فكر هشام جعيّط

منشورات الجمل



محمد المزوغي: الاستشراق والمستشرقون في فكر هشام جعيّط

الطبعة الأولى ٢٠١٦

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤

ص.ب: ١١٣ ـ ٥٤٣٨ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

١ ـ مؤرّخ مَوهوب ومُفكّر لامِع وذكيّ

بديهي أن مراجعة التاريخ العربي القديم يعني بالأساس مراجعة سيرة نبيّ الإسلام ووضع نقاط استفهام حول صحة القرآن ومصداقية الروايات والمصادر الأولى، ومتى وُضعت هذه المعطيات على مشرحة النقد الفيلولوجي التاريخي فإن السيرة والقرآن لا يمكن أن يخرجا سالمين. فعلاً، الفيلولوجيا التاريخية لها مفعول الحمض على التواريخ المقدّسة كلّها، فهي تهدم سيرة محمد التي تقبّلها المسلمون على حالها منذ ألف وأربعمائة عام، تقضي على قدسيّة القرآن وتعرّي جوانبه الإنسانية، يعني تهدم الإسلام من الأساس لأن المسلمين يعبدون محمدا ويقدسون القرآن. لكن المثقفين العرب بما فيهم العلمانيين التنويريين لا يقبلون أن يخضع دينهم لاستقصاء نقدي صارم كما خَضعتْ له الأديان الأخرى، ويخافون من أن تنهار صورة محمد ومعه القرآن والوحي والنبوة، ولذلك استبقوا هذه العملية بحرب مضادة، تكاتف فيها الإسلاميون والعلمانيون، فصبّوا جام غضبهم على المستشرقين وتصدّوا لهم بالاتهامات الجاهزة وبوابل من الشتائم، والتجريح والتشويه. وكل من اطّلع على أعمال محمد أركون وهاشم صالح وأنور عبد الملك وإدوارد سعيد يلمس هذا البعد الهجومي التجريحي السّاري في كتاباتهم. أركون وصالح يصفان المستشرقين بالتّعجرف والوقاحة وبالثقة المفرطة في

النفس، ولكن لا يقلّ عنهما شراسة المؤرخ التونسي هشام جعيّط، الذي أظهر هو بدوره غلظة لا مثيل لها في سحل المستشرقين.

فالرجل لا يتوانى، كل ما سنحت له الفرصة، من التهجّم على الاستشراق، رغم البرقع الظاهر لبعض صفحاته التي تُبدي نوعا من الحياد أو بعض الثناء، حتى أنه انخدع به ليس العرب فقط بل رجل من قامة مكسيم رودنسون. لقد أشاد هذا الأخير بأعمال جعيّط وأثنى عليه بسخاء مُستعملاً كلمات إطراء نادراً ما يتفوّه بها عالم في حق عالم آخر؛ سمّاه مؤرخاً موهوباً، ومدَحه لأجل تحرّره من النظرة الدينية: «**أمّا المؤرخ الموهوب والكاتب التونسي هشام جعيّط فإنه يعالج ضمن منظور مواز لمنظوري مشكلة الرؤيا الأوروبية للإسلام أو بالأحرى للعالم الإسلامي. وسبب القرابة بيني وبينه** ـ يعترف رودنسون ـ **أنه لا يَتبنّى كمحور إطلاقي لتفكيره وجهة النظر الدينية**»[(١)]؛ وصف كتاب **الشخصية العربية** بأنه واحد من المحاولات الأكثر جدّية والأكثر نفاذاً[(٢)].

لقد أخطأ رودنسون خطأ فادحاً لأن جعيط إسلامي، لا بل إسلاموي قلباً وقالباً، روحاً ومَضموناً. وأظنّ أن السبب في وقوع رودنسون في هذا الخطأ وإطلاقه حكم القيمة المفرط في تثمينه لِفكر جعيّط هو عدم اطّلاعه على أعماله السابقة واللاحقة، واكتفائه بكتاب «**الشخصية العربية الإسلامية**» أو «**أوروبا والإسلام**»، الذي وصفه بأنه «**كتاب لامع وذكيّ جدّاً وثاقب يستعرض فيه المؤلف ثقافته الواسعة سواء كان ذلك في**

---

(١) مكسيم رودنسون، وضع الاستشراق المختص بالإسلاميات: مكتسباته ومشاكله، ضمن: الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٠ (الطبعة الثانية)، ص١٠٤.

(2) M. RODINSON, *Les Arabes*, Paris, PUF, 1979, p. 167.

المجال العربي أم في مجال التاريخ والفكر الأوروبي». وأكثر من ذلك فإن رودنسون، بشيء من السذاجة وحسن النية، يُصرّح: «**إني أنصح بكلّ قوة بقراءته**»[1]. **هذه الحصافة قد تكون نابعة من مشاعر الصداقة** والاحترام، ومن رَحابة صدر جعلته يغضّ الطرف عن الأفكار الصادمة التي عبّر عنها جعيّط.

سنقرأ هذا الكتاب، كما نصح رودنسون، وسنُبيّن للقرّاء بالدليل والحجة، وبالنصوص الصريحة أن جعيّط لم يكن في يوم ما كما اعتقده رودنسون، وأنّ بوناً شاسعاً يفصل بينهما، من حيث الذهنية والمنهجية العلمية والخلفية الإيديولوجية.

أقول: لو تَعمّق رودنسون في النص الذي بين يديه لتفطّن إلى حضور نقائص منهجية لا تليق بأن يقترفها مؤرّخ لامع ومفكّر موهوب: تَهجُّمٌ على الأديان الأخرى من موقع ديني إسلامي، وتزويرٌ للتاريخ. الجملة الأولى التي افتتح بها جعيّط الفصل الأول بعنوان: «من النظرة القروسطية إلى النظرات الحديثة»، من الكتاب الذي أشاد به رودنسون (أوروبا والإسلام)، هي جملة تقريريّة جاءت على شكلِ مُرَكَّزٍ من العنصريّة والعداء لليهود. كان من المفروض أن يتقيّد بعنوان الفصل ويتكلّم عن نظرة اللاهوتيّين الغربيين للإسلام وأن يستشهد بنصوص بونافنتورا، وتوماس الأكويني، وبطرس المُبجل، لكن الرجل يصدمنا لأنه يعود القهقرى إلى زمن غابر لا ندري عنه شيئاً بالتحديد، ولا عن هويّة الأطراف المتصارعة. ابتدأ بضَرب اليهود من خلال ما هو موجود

(١) مكسيم رودنسون، وضع الاستشراق المختص بالإسلاميات: مكتسباته ومشاكله، مرجع سابق (م. س)، ص١٠٤.

في القرآن والسّيرة: «**من الواضح أن أصل العداء اليهودي للدعوة المحمدية في المدينة كان شعوراً بالازدراء يُغذّيه إحساس بالتفوّق الديني تجاه كل ما يمكن أن يظهر كتلفيق للتقليد التوراتي**»[1]. الرجل يُصدّر عملاً مختصاً بموضوع أوروبا والإسلام بجملة تقريرية لا علاقة لها بأوروبا ولا بالإسلام. فهو متأكّد من الرواية الإسلامية ومقتنع بصحّتها وكأنه عاين الأحداث شخصيّاً، ثم يعيد سردها دون أن يحدس جانبها السلبي الخطير. لو كان رودنسون مُتعصّباً لدينه ولقومه ولو كان مفكّرا ذا طَبْع مشاكس، لَعَاب على جعيّط تضمين كتابه هذه الديباجة العنصرية التي لا مبرّر لها في سياق الفصل، والخارجة أصلاً عن جوهر الموضوع، ولرَدَّ على تهجّماته بتهجّمات مضادّة.

لم يكتف جعيّط بهذا بل إنه وضع يسوع ومحمد في نفس البوتقة وجعَلَ من اليهود عدوّهما الأوحد «**إن ما رفضه اليهود في دعوة يسوع، يرفضونه كذلك لمحمد، ذلك العنصر الغريب والخارجي**». هذه مغالطة فاضحة، إن إقحام يسوع في هذه الجملة التهجمية العنصرية توري عن نيّة تخفيف حدّة معاداته لليهود، إذ يكفي قراءة بسيطة للأناجيل كي نعلم أن اليهود نقموا على يسوع لأنه ادعى الألوهية، وجادل الأحبار في أحقية معرفة كلام الله. ولكن حتى

---

(١) هشام جعيّط، أوروبا والإسلام، دار الطليعة، ط٢، بيروت ٢٠٠١، ص١٠.
"Il est clair qu'à l'origine de l'hostilité juive à l'égard de la prédication de Muhammad à Médine, il y avait déjà un sentiment de mépris alimenté par la conscience d'une supériorité religieuse vis - à - vis de ce que pouvait apparaitre comme une *contrefaçon* de la tradition biblique... Ce que les juifs avaient refusé à la prétention de Jésus, ils le refusèrent à celle de Muhammad, élément totalement étranger et extérieur". H. DJAÏT, *L'Europe et l'Islam*, Paris, Éditions du Seuil, 1978.

المسيحيين لا ينجون من التهجّم رغم أنه يزوّر الحقائق الأبسط بقوله إن القرآن له موقف متعاطف مع المسيحية، والواقع أنه إذا فتحنا القرآن لوجدنا كلمتين أو ثلاث لصالح المسيحيين، وبتحفّظ، مقابل كمّ هائل من التهجمات والإدانات والتكفير الصريح. إن المسيحيين في عصر محمد كانوا «**أكثر تحفظا** (*plus réservés*)» إزاء الدين الجديد، حسب رأي جعيّط، والفارق بينهم وبين اليهود هو أنهم كانوا «**أقل عدائية** (*moins combatifs*)» للمسلمين، والسبب في ذلك هو «**كونهم عربا** (*étant davantage arabes*)». يعني، حسب منطق هذا المؤرخ، عداوة المسيحيين للدين الجديد كانت كامنة فيهم منذ البداية، واختلافهم مع اليهود كان اختلافاً في الكمّ وليس في الكيف، لكنهم أخفوا تلك العداوة فقط لسببٍ شُعوبي عنصري.

أمّا النقطة التي تتجلّى فيها ملامح التزوير السافر للتاريخ فهي القولة الآتية: «**إن تقلّص اليهودية في المدينة جعلَ من المسيحيين موضوع اهتمام الفاتحين العرب**»[1]. نحن إزاء تزوير مُضاعَف للتاريخ في نفس الجملة: اليهودية في يثرب، وحسب المصادر الإسلامية، لم تتقلّص من تلقاء نفسها وإنما وقع إبادة أهلها والباقي صودرت أملاكهم وأصبحوا عبيداً يشتغلون عند المسلمين، أو قُتِلوا شرّ قتلة وفي آخر وصاياه أمر محمد بإخراجهم كليّاً من جزيرة العرب. ثم إن المسيحيين لم يكونوا موضوع اهتمام الفاتحين العرب، بل موضوع ابتزاز وقتل وتهجير، وهذا الأمر متواصل منذ ١٤٠٠ سنة، وآخر هذه الأعمال هو

(1) "Une fois réduit le judaïsme médinois, c'est surtout aux chrétiens que la conquête arabe va avoir lieu". Ibid.

صلب المسيحيين في سوريا والعراق في مشاهد مروّعة، رآها العالم أجمع بالصوت والصورة. وإذا كان المسلمون في عصر التكنولوجيا والتقدم يقترفون مثل هذه الشناعات في حق المسيحيين، فكيف كانت عليه الحال في الفترات الغابرة؟ علينا أن نتخيّل أنهاراً من الدماء: بترٌ وتقتيل جماعي، اغتصابات، عبودية، لم تر لها البشرية مثيلاً إلاّ مع النازيين.

إن الإخوان المسلمين في مصر، بعد أن سَرّحهم السادات من السّجون وعفى عن إجرامهم، ثم تَحالف معهم ضد الناصريين ومَكّن لهم للتغلغل في مصر ونشْر سَرطانهم في العالم العربي، أوّل ما فعلوه هو تقسيم الشعب المصري إلى مؤمنين وكافرين. وبالتّزامن مع ذلك شنّوا حملة مَسعُورة ضدّ المسيحيين، وابتدأوها بضرب دينهم وثقافتهم وتشويه ذاكرتهم التاريخية. ومن بين هذه التزويرات التي اختلقوها الادّعاء بأن الغُزاة العرب دخلوا مصر لتحرير المسيحيين من اضطهاد الامبراطورية البيزنطية واعطائهم حقوقهم المسلوبة. ليس هناك أكذب وأكثر تحريفاً من هذا الادعاء. إنه أمر فاضح، وتزوير خسيس للتاريخ، لا يجرؤ عليه إلاّ من فقد المروءة وتَعرّى من إنسانيته تماماً كالإخوان المسلمين. لكن أبشع من ذلك أن يتفوّه بهذه الخزعبلات مؤرّخ حائز على شهرة كبيرة في العالم العربي.

بدل أن يتعامل بحذر مع هذه الفكرة ـ المخرقة الإسلاموية، اعتبرها صحيحة، لا بل كتب إنها «**فكرة دقيقة** (*Idée exacte*)». إذن، تزوير الإسلاميين المصريين للتاريخ، كان قد سبقهم إليه جعيّط، وها هي كلماته: «**لقد قيل إن مسيحية الشرق القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح قد عَجّلت بقُبُول السّيطرة السياسية للفاتح العربي لأنها كانت تأمل منه**

تسامحاً كبيراً. إنها فكرة دقيقة»[١]. يزعم بأنها فكرة دقيقة تماماً، لا من وجهة نظر تاريخية محايدة بل من وجهة نظره هو كإسلامي، ثم يقول بأنه «**على شرط توضيحها** (à condition qu'on la nuance)»، وفعلاً قام بتوضيحها وذلك بالإمعان في تزوير التاريخ وقلب الحقائق. قال: «**إن أولى ردود المثقفين المسيحيين على الإسلام ليست معروفة [بتاتاً] لدينا**»[٢].

هذه الجملة منقولة، بشيء من التصرّف، من مقال للمؤرخ الفرنسي كلود كاهين الذي كتب: «la primitive réaction chrétienne à l'islam, il est assurément difficile de se la bien représenter»[٣]. في الوقت الذي يقول فيه كاهين «إن ردة الفعل الأولى للمسيحيين على الإسلام من الصعب تصورها أو غير ممكن تمثّلها جيّداً»، يعني صعوبة وليست استحالة، فإن جعيّط يُعمّم الحكم ويقول إنها ليست معروفة بتاتاً (ne nous sont guère connues). ولكن هذا غير صحيح، لأن ردود فعل المسيحيين موثّقة من خلال الكتابات التي حفظها التراث المسيحي، والنصوص موجودة ومتوفّرة للجميع، وهناك دراسات معمّقة في هذا الشأن. زعم أيضاً أن هناك «بعض التواريخ الشرقية في القرن السابع

---

(١) جعيط، أوروبا والإسلام، ص١٠.
"On a dit et redit que le christianisme monophysite d'Orient s'était empressé d'accepter le joug politique du conquérant arabe per ce qu'il en espérait une plus grande tolérance. Idée exacte". ibid, p.15.

(٢) ن. م، ن. ص.
"Les premières réactions intellectuelles chrétiennes à l'islam ne nous sont guère connues". Ibid, p. 15.

(3) C. CAHEN, "Notes sur l'accueil des chrétiens d'Orient à l'islam", *Revue d'histoire des religions*, tome 166, n° 1, 1964, p.51.

تسمح بتبيّن **موقفٍ يَميل إلى التأييد**». وهذا أيضاً مجانب للصواب، بل هو مناف للبداهة. فعلاً، كيف يمكن موضوعياً وإنسانياً للاهوتي أو مؤرخ مسيحي يرى أمامه جحافل الأعراب تعيث في أرضه فسادا وتثخن في أهله قتلا وتنكيلا أن يتقبّل أو يؤيّد، بنوع من جلد للنفس، الغزاة البرابرة أو أن يُزكّي أعمالهم؟

يكفي الاطلاع على تاريخ يوحنا النيقيوسي الذي كان شاهداً معايناً لأحداث دخول المسلمين لمصر حتى ندرك هذه الحقيقة. وقد قص في كتابه «تاريخ العالم القديم» أشياء فظيعة اقترفها المسلمون ضد سكان مصر، وهو أمر يذكرنا بما تقوم بها جحافل المسلمين ضد السوريين والعراقيين الآن. لقد طبّقوا تعاليم القرآن التحريضية لا بل طبقوا تعاليم العهد القديم بقتل كل ما يدب على وجه الأرض. قال النيقيوسي: «جاء الإسماعيليون [المسلمون] وقتلوا قائد الجيش وكلّ رفاقه، وتَحكّموا في مدينة البهنسة، وكان كلّ مَن يَقترب منهم يُقتَل، و[ولم يتركوا] الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال»(١). إنه يصف أحداثاً مؤلمة ومعارك دموية لم يترك فيها الغزاة المسلمون محاربين ولا سكّان آمنين، ولا شجر أو حجر إلاّ وأبادوه، حتى الجنود الذي من المفروض أن يكونوا مقدامين ومتعوّدين على فن القتال، أصابهم الذعر من هول ما رأوا «واحتلّ جيش المسلمين مدينة تندوانياس التي أبيدت حاميتها، ولم يبق منها سوى ثلاثة آلاف رجل كانوا قد هربوا واختفوا داخل جدران القلعة وأغلقوا

---

(١) يوحنا النيقيوسي، تاريخ العالم القديم، تحرير وتدقيق عبد العزيز جمال الدين، دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ٢٠١١، ص٢٠٥. انظر أيضاً الترجمة الفرنسية:
JEAN, évêque de Nikiou, *Chronique,* texte éthiopien publié et traduit par H. Zotenberg, Paris, Imprimerie nationale, 1883.

أبوابها. وبعد قليل هربوا فزعين بعد ما شاهدوا المذبحة الكبرى التي حدثت، فاقِدوا الشجاعة ويغمرهم الحزن والخيبة، وتوجّهوا بالسفن إلى مدينة نيقيوس»[1]. ماذا فعل القائد عمرو بن العاص؟ «قبض على القُضاة الرومان، وقيّد أيديهم وأرجلهم بالسلاسل والأوتاد الخشبية».

هذا المشهد ليس مبالغاً فيه، ولا يجب أن نستصغره لأننا نرى مثله الآن بالصوت والصورة في كل البلدان العربية التي لوّثها الإسلاميون بوجودهم، وهم شرذمة يعرفون جيداً القرآن والسيرة. النّهب والسلب والتنكيل هي السمات المميزة لأعمال المسلمين والطريقة التي عَرّفوا بها أنفسهم للشعوب المجاورة، بعد أن اقترفوها في جزيرتهم. القائد عمرو «نهبَ أموالاً كثيرة، وقام بمضاعفة الضّرائب على الفلاحين وأجبرهم على احضار عليقة لخيوله وبالإجمال مارس كل أعمال العنف»[2]. لقد حلّت كارثة بالناس أجمعين مثل الكارثة التي حلّت باليزيديين في العراق «فحدث ذعر في كل مدن مصر، وهرع السكان يهربون إلى الإسكندرية تاركين ممتلكاتهم وثرواتهم وماشيتهم». ولقد رأينا حديثا فِلم الرّعب هذا على شاشات التلفزة وعلى الشّبكات العنكبوتية في العالم أجمع. الغزاة الأعراب لاحقوا السكان المصريين في كل مكان وخرّبوا كل المدن التي وطأتها أقدامهم: «استدار المسلمون بعد ذلك إلى المدن الأخرى، فجرّدوا المصريين من أملاكهم، ومارسوا ضدهم أعمال العنف». لكن هذا المؤرّخ لم يجد من تفسير معقول لهذه الطّامّة التي حلّت ببلده، والمجازر المروّعة التي نَفّذها المسلمون في حق السكان الآمنين إلاّ

(١) يوحنا النيقيوسي، تاريخ العالم القديم، م. س، ص٢٠٧.
(٢) ن. م، ص٢٠٩.

إرجاعها إلى العقاب الإلهي، بسبب تفرّق المسيحيين إلى شيع وطوائف متناحرة بشراسة في ما بينها. وقد اعترف هو نفسه بأن سبب هزائمهم هو نقمة الله على الذين خرجوا عن الدين الحق: «هكذا عاقب الله الناس الذين لم يمجدوا محبّة مُخلّصنا وربّنا يسوع المسيح الذي وهب الحياة للذين يؤمنون به، وجعلهم يهربون أمام أعدائهم»[١]. فهو ما زال حتى في هذه المحنة الشاقة يتهجم على المسيحيين الروم ويصفهم بأنهم كفار يستحقون العقاب[٢].

لقد تَرَكَ جعيط الوقائع والحيثيات المدوّنة في هذا النص، والتي رواها أيضاً مؤرخون عرب، والتَهَبَتْ مشاعره بكاتب اسمه «سيبيوس (Sebêos)»، وهو أسقف ومؤرخ أرميني، وقال إنه «أقرّ بالأسس الإبراهيمية للإسلام ويذهب إلى حدّ الاعتراف ببعض من النبوّة المحمدية»[٣]. المرجع الوحيد الذي اعتمده واقتصر عليه هو مقال كلود كاهين «تَقَبّلُ مسيحيّي الشرق للإسلام»[٤]، عوض أن يَعود إلى النص الأصلي أعني *تاريخ هرقل* للأسقف سيبيوس، لكي يدقّق ويتثبّت من التواريخ والأحداث. لقد بدا لي أن كاهين غير عميق في مقاله هذا، وأنه يستعيد فكرة مسبقة كثيراً ما ردّدها الإسلاميون، ومفادها أن الغزو

---

(١) ن. م، ص٢١٥.

(٢) «وفي ذات يوم عيد القيامة المقدس عندما افرج عن المسجونين أعداء يسوع من الروم الارثودكس، لم يدعهم دون تعذيب، فقد جلدوا البعض، وقطعوا أيدي الآخرين. وفي هذا اليوم الذي هو عيد، كان هؤلاء البؤساء يئنون»

(٣) هشام جعيّط، أوروبا والإسلام، م. س، ص١٠.

(4) C. CAHEN, "L'accueil des chrétiens d'Orient à l'Islam" in *Revue de l'histoire des religions*, I, 1964.

العربي كان مُرحّباً به في مصر نظراً للعداء الذي يكنّه أغلب مسيحيي الشرق للكنيسة البيزنطية. ومنذ أن استقرّ الحكم الإسلامي، الذي ضَمن للجميع بالتساوي حرية المعتقد والعبادة، فقد بدا لهم أفضل من الابتزازات المادية والروحية للأباطرة ورؤساء الكنيسة[١]. إنها مراجعة سافرة للتاريخ، كلام رجل متحيّز وغير جدّي لسبب بسيط وهو أنه يقرّ في ملاحظة أوردها أسفل الصفحة بأن «القرآن (والحديث بقدر ما أن بعض العناصر يمكنها أن تكون قديمة بحقّ) يحتوي، إزاء اليهود والمسيحيين، على **انتقادات** (des critiques)، وهي صدى لنقاشات حقيقية دارت في بلاد العرب وبعدها في الخارج، والتي لزم على المعنيّين أحياناً الرد عليها»[٢].

الحقيقة التاريخية والنصوص التي بين أيدينا تثبت عكس ذلك، وهي أن مُدوّنة القرآن والأحاديث لا تحوي فقط على بعض الانتقادات، بل على تهجّمات قاسية وتهديدات خطيرة، مع تحريض على القتل. وقد كان القرآن واضحاً وصريحاً في تكفيره للمسيحيين «**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة**»، وصريحاً في التحريض على القتل في قوله «**قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**

---

(1) Ibid, p. 51. "Tout le monde sait que la conquête arabe a été grandement favorisé par l'hostilité de la majorité des chrétiens d'Orient à l'Église romaine de Constantinople. Dès lors que le régime musulman,... leur garantissait à tous également la liberté de la foi et du culte, il leur apparaissait normalement préférable aux tracasseries matérielles des Basileis et de leurs patriarches".

هذه الملاحظة وضعها كاهن في أسفل الصفحة.

(2) Ibid, p. 51, n. 1.

وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ». إذن الأمر يتجاوز الانتقادات البسيطة أو المماحكات العقائدية الصّرف، لكي يلج في منطقة التحريض العلني، وما يفعله الآن الإسلاميون في سوريا وفي العراق ومصر من فتك وتدمير وذبح للمسيحيين هو تطبيق حرفي لهذه الآية. لكن السيد كاهين يُنكر الواقع ويزعم أن «هذه الانتقادات، كانت مصاغة لصالح المسلمين، ولتثبيتهم في خصوصية إيمانهم، أكثر منه لأولئك اللاّمسلمين، والتي لم تبلغهم إلاّ حينما عرف العرب المسيحيون اللغة»[١].

لقد تقفّى جعيط أثر كلود كاهين في هذه النقطة ونقل حتى عباراته، وقد نزلت عليه أقواله كهِبَةٍ من السماء لتدعيم توجّهه التاريخي التحريفي، واستغلّها للدفاع عن الإسلام. صحيح أنّ سيبيوس قد تحدّث عن النَّسَب الإبراهيمي لمؤسس الإسلام، قال إنه «**سليل إبراهيم، ليس من الابن الحرّ، ولكن من ذاك الذي وُلد من الأمَةِ** [العَبْدَة]»[٢]، ولكن هذا المؤرّخ، كما بيّن مترجم كتابه إلى الفرنسية، «كان له تصوّر كتابي (*biblique*) للتاريخ وهو طابع يمكن ادراكه عديد المرات من خلال عمله هذا»[٣]. الأمر الذي يهمّنا من سيبيوس ليس تأويله للأحداث بل الأحداث في حدّ ذاتها والتي من المحتمل أنها رويت له من طرف أناس عاينوها مباشرة. فهو يتحدّث عن القبائل الاثني عشر لليهود الذين نزحوا لمدينة الاديسيين بعد أن تركها جنود الفرس، ولكن الامبراطور هرقل

---

(1) Ibidem.

(2) *Histoire d'Héraclius par l'évêque Sebêos.* Traduite de l'arménien et annotée par F. Macler, Paris, Imprimerie nationale, 1894, p. 94.

(3) *Histoire d'Héraclius*, p. 97, n. 3.

أخرجهم منها، فتوجّهوا إلى الصحراء وحلّوا في بلاد العرب وطلبوا النصرة من الإسماعيليين (بني إسماعيل)، وأثبتوا لهم من خلال التوراة أنهم أقرباء، رغم أن ديانتهم وطقوسهم تختلف عنهم. وفي تلك الفترة كان هناك واحد من أبناء إسماعيل، اسمه محمد، تاجر، تقدّم لهم وكأنه مرسل من الله وأنه طريق الحقيقة، وعلّمهم عبادة إله إبراهيم؛ لأنه كان عليما بتاريخ موسى؛ «وبما أن الأمر آت من أعلى اجتمعوا كلّهم، تحت إمرة رجل واحد، حول شريعة واحدة وتَخلّوا عن عبادة الأوثان، وعادوا إلى الإله الحي الذي تجلّى لأبيهم إبراهيم»[1].

ولكن رغم هذه النّفحات الكتابية، وبعض المُحاباة، فإن هذا المؤرّخ لم يستطع كبت مشاعر الأسى من الشناعات التي اقترفها الإسماعيليون (المسلمون) والإبادات الجماعية التي قاموا بها في حق الأبرياء العزّل. قال إنهم في حربهم ضد الفرس حينما هزموا الجيوش عاثوا في البلاد فساداً «وذبحوا الرجال والحيوان»[2]، بعد أن استولوا على اثنين وعشرين قلعة «ذبحوا كل الكائنات الحيّة المتواجدة هناك». أعمال بربرية مروّعة، وهي تطبيق حرفي للتحريض القرآني: قاتلوهم، اقتلوهم، اضربوا فوق الأعناق، بحيث أن الرجل مكث أمامها بَهتا وتساءل: «مَن ذا الذي يقدر على أن يروي رعب غزو الإسماعيليين، الذين طوّقوا البرّ والبحر؟»[3]. لقد شبّههم بالحيوان الرابع الذي ذكره

---

(1) *Histoire d'Héraclius*, p. 95.

(2) Ibid, p. 104. "Ils envahirent toute la contrée et passèrent au fil de l'épée hommes et bêtes. Ils s'emparèrent de vingt - deux forteresses et mirent à mort tous les êtres vivants qui s'y trouvaient".

(3) Ibidem. "Mais qui pourrait raconter l'horreur de l'invasion des Ismaélites, qui embrasèrent la mer et la terre?".

دانيال في الاصحاح السابع، حيوان رهيب «أسنانه من حديد وأظفاره من نُحاس، أكلَ وسَحق وداس الباقي برجليه (دانيال، ٧)». هذا الوحش، يواصل سيبيوس، يَنتصب لكي يخرج من جهة الجنوب التي فيها مملكة إسماعيل، كما فسّرها النبيّ: «تكون مملكة رابعة على الأرض مُخالفة لسائر الممالك فتأكل الأرض كلها وتدوسها وتَسحقها».

جعيّط يَنتقي من النصوص فقط تلك المؤيّدة لتوجّهه ولا يعرّج على المصادر المخالفة، ويَسعد لأي اشارة أو كلمة غائمة تُثني على الإسلام وعلى نبيّه. لكن ردود فعله تصبح متشنّجة للغاية حينما يَطّلع على كُتّاب مسيحيين ناقدين للإسلام، يُكذّب مَن يُكذّب، يَتهكّم على من يَتهكّم ويَشتُم مَن يَشتم: «**إن ذلك المعروف بأبي قرّة الذي كتب في منتصف القرن الثامن، كانت معلوماته فظّة عن العقيدة الإسلامية، في حين أن الفصل المتعلّق بالإسلام في** (De haeresibus) **ليوحنا الدمشقي، الذي يماثل فيه بين الدين الجديد والهرطقة الآريوسية، يبدو تماماً أنه نصّ مدسوس من القرن التاسع**»[١].

أنا أعجب كيف مرّ رودنسون على هذه التخريجات مَرّ الكرام ولم تسترع انتباهه أو يتوقّف للتمعّن فيها بجدّية. ليس المحتوى فقط بل الأسلوب كان بإمكانه أن يجلب انتباهه، فالسيّد جعيّط يستعمل هذا الصنف من التّعابير المشحونة ازدراء وحقدا في حق تيودور أبي قرّة، ويشير إليه بكلمة «ذلك الشخص»، فضلاً عن أنه يتّهمه بالجهل وبعدم معرفة الإسلام، لا لشيء إلاّ لأنه نقدَ الدين الجديد وكشف نقائصه وفضح عنجهيّته أمام المسلمين أنفسهم. والنصّ الذي كتبه أبو قرّة في

---

(١) هشام جعيط، أوروبا والإسلام، م. س، ص١٠ ـ ١١.

الدفاع عن المسيحية يبدو، لكل من اطّلع عليه، أن صاحبه له معرفة واسعة ودقيقة بخبايا العقيدة الإسلامية، لكن بالنسبة لجعيّط يكفي أن يعارض مفكّر ما الإسلام وينتقده حتى تفقد شخصيّته أيّ مَلمَح إنساني وتغدو كتاباته مجرّد هذيانات. أما القول بأن يوحنا الدمشقي يُماثل بين الإسلام والآريوسية، فهذا قِسط هامشيّ من كتابه، ولا يعني بالضرورة أنه مَنحول، لأن دارسين آخرين نقضوا بحجج متينة هذا الرأي، وأثبتوا أن الدمشقي هو المؤلف الفعلي لذلك الفصل الذي عقده عن الإسلام في كتاب «الهرطقة»[١].

المهمّ أن الدمشقي كانت له دراية بتعاليم الإسلام الأولى وبالقرآن، وله مقاربة خاصة، انطلاقاً من نصوص نجهلها[٢]. لكن جعيّط يدخلها في باب المماحكة ويعتمد مرّة أخرى على مقال يَتِيم لكاتب فرنسي في مجلة «دراسات إسلامية (Studia islamica)»[٣]، قرّر مسبقاً أن الفصل الذي عقده الدمشقي، منحول. المعلوم أن الشرق كلّه كان مسيحياً، مع جيوب من اليهود والزاردشتيين والمجوس والوثنيين حتى؛ إنه مجتمع مُنفتح ومتنوّع والكل يمارس مشاغلة وطقوسه بحريّة. ثم طلع المسلمون، لا ندري من أين ولا بأي سلطة ولا على أساس أي رسالة،

(١) انظر:
R. LE COZ, *Introduction* à Jean Damascène, *Écrits sur l'Islam*, Paris, Cerf, 1992, pp.183-203.

(٢) انظر: لويس صليبا، الإسلام في مرآة الاستشراق المسيحي، دار ومكتبة بيبليون، جبيل - لبنان ٢٠١٣، صص، ٣٩٨ - ٤٠٢.

(3) A. ABEL, "Le chapitre CI du livre des hérésies de Jean Damascène: son inauthenticité", in *Studia Islamica* 19 (1963) pp. 5-25.

فحطّموا التعدّدية وانقضّوا على المسيحيين، خصوصاً المسيحيين، دمّروهم، هجّروهم وقفّروا الشرق منهم.

لكن المُسلمين المحدثين، أمام هذه الشناعات التي ذكرها المؤرخون البيزنطيون والمؤرخون العرب، مُصرّون على أنها كانت حربا تَحرّرية. إن جعيّط يُبدّه البديهي بقوله «**ولأن المسيحية الشرقية قد فقدت التعبير والقوة السياسيين فإن تطوّر موقفها تجاه الإسلام يفقد كلّ أهمية ضمن تحليل قائم على المواجهة بين الحضارات**»(١). وكيف لا يكون الأمر كذلك؟ كيف لا يفقد المسيحيون القوّة السياسية والفكرية بعد أن اجتاح الغزاة بلادهم وشتّتوا شملهم وأبادوهم، والباقون منهم أرغموهم على الفرار إلى أعالي الجبال أو الانزواء في الكهوف والمغارات؟ كان على جعيّط أن يتساءل: مَن المسبّب الأول لهذه الكارثة؟ مَن الذي أنزلهم تلك المنزلة؟ إن جعيّط يَحكم وكأنه القاضي والجلاد في نفس الوقت، يُوزّع الأسماء والألقاب، ويمنح صكوك الغفران على مذاقه الإسلامي، دون مراعاة لمشاعر المسيحيين أو لتاريخهم الفعلي حتى. ليس هناك مسيحية شرقية ولا أمة مسيحية بل «إن الأمة المسيحية (chrétienté) حقيقة غَربيّة محضة»(٢).

لا يكفي أنه جرّدهم من مقدّساتهم، لم يَكتف بتزوير تاريخهم، بل قام بخطوة إجرامية: نزع عنهم حتى هويّتهم، فأصبحوا بالنسبة إليه لا شيء. ولكي تكتمل مهمّة القضاء على المسيحية وسحق ذاكرتها من العالم العربي، فقد أخرج مدرسة من المراجعين (néo - révisionnistes)

---

(١) هشام جعيط، أوروبا والإسلام، م. س، ص١١.

(٢) ن. م، ن. ص.

الجدد كتبوا عن المسيحية، وساروا على هدي تعاليمه، فشوّهوا تاريخها وداسوا على ذاكرتها. ومَن كان يرغب في التحقّق مما أقول، فعليه بكتاب المؤرخة التونسية، خِرّيجة مدرسة جعيّط، سلوى بالحاج صالح ـ العايب: **المسيحية العربية وتطوّراتها**[1]، وقد خصصت لها فصلا في كتابي هذا تحت عنوان **آثار جعيط الدائمة: التزوير الشامل للتاريخ.**

---

(١) سلوى بالحاج صالح ـ العايب، المسيحية العربية وتطوّراتها: من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بيروت، طبعة أولى أغسطس ١٩٩٧، طبعة ثانية أكتوبر ١٩٩٨.

٢ ـ ما جزاء الإحسان؟

كيف تعامل جعيّط مع رودنسون؟ وما هي المكافأة التي كافأه بها على محاباته له والثناء عليه؟ من المفروض إنسانياً أن يشكره أو يُبادله مشاعر الاحترام، وإن عثر على ثغرات في تفكيره أن يشير إليها دون مواربة وأن ينتقدها بموضوعية متقيّدا بصريح النصوص، دون استخدام ألفاظ جارحة. لكنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل وإنما سَبّه وقذفه بأبشع النعوت وحطّ من قيمة أعماله، كما فعل إزاء المستشرقين جميعهم أو أغلبهم. قال إنّ كُتُب رودنسون «**تُظهر عمى عميقاً إزاء خصوصية الحركة الدينية النبويّة: وتبقى كلها منغلقة في إشكاليات موروثة عن العصر الغربي الوسيط أو القرون الحديثة الأولى**»[١].

رودنسون من جهته يقول إنه لا يختلف مع جعيّط «**إلاّ نادراً**» وأن أحكام هذا الأخير نافذة ذات وضوح قاطع[٢].

أخطأ مرّة أخرى خطأ مضاعفا. لقد خَدَعَه جعيّط، وسَخَر منه بصفة جدّ مُزرية؛ وصفه بالعماء واتّهمه بالجهل المدقع. فالرجل لا يَقبل من

---

(١) هشام جعيط، الفتنة، دار الطليعة، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٥، ص٢١ ـ ٢٢.

(٢) مكسيم رودنسون، وضع الاستشراق المختص بالإسلاميات: مكتسباته ومشاكله، م.س، ص١٠٤.

المستشرقين إلاّ أولئك الذين يحترمون الإسلام إلى درجة النطق بالشهادة أو الاذعان التام لمقدساته، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحجّ إلى المملكة العربية السعودية. أظن أنه من الصّعب التّحاور مع شخص يُسفّه المفكرين ويقذفهم بنعوت نابية؛ يحطّ من أعمالهم ويصفهم بالانغلاق والعماء. وفي رأيي صداقة رودنسون بجعيّط ربما كانت السبب في عدم الوعي بخَبَايا أفكاره وهي التي مَنَعته من التّفطّن إلى الحقد الذي يكنّه لأعمال المستشرقين عموماً، رغم أنه كان بإمكانه أن يَطّلع على تلك السّبّة المغرضة ضدّه لو تصفّح كتاب (La grande discorde)[١]، **الفتنة الكبرى**الذي كتبه بالفرنسية ونشره في باريس سنة ١٩٨٧.

ماكسيم رودنسون على العكس ممّا شنّع به عليه جعيّط هو مفكر علماني يساري ملحد غير متعلق باليهودية ولا بأي دين، وكماركسي، من المحتمل جدّاً أنه يَعتبر الدين أفيوناً للشعوب وركاماً من الأساطير المهينة للعقل. ولم يكن خافيا عليه هذا الصنف من الانتقادات والتّجريحات التي لفقها جعيّط وأمثاله على المستشرقين. لقد انتفض ضد هذه التّهم وقال، كأنه يخاطب جعيّط شخصيا: «**إن الهوس بوجود مؤامرة كونية ودائمة تضرب بجذورها عميقاً في تربة الحقد الشرّير فقط، هذا الحقد الذي يكنه الآخر لنا ولجماعتنا، قد جرّ أناساً عليمين إلى تبنّي تصورات خاطئة ومبالغاً فيها**»[٢]. على أساس هذه النظرة العدائية

(1) H. DJAÏT, *La grande Discorde*, Paris, Gallimard, 1989 (réimpression, 2008).

(٢) مكسيم رودنسون، جاذبية الإسلام. المقدمة الثانية، ضمن: الاستشراق، م. س، ص١١٨.

التحقيرية التي يشترك فيها الإسلاميون والعلمانيون يصبح كل نقد «**مهما كان صغيراً وجزئياً، وكل رؤية نسبية لأي شيء يتعلق بالمناخ الإسلامي أصبحت تعتبر غير محتملة من قبل المسلمين، ثم بشكل أخص، أصبحت تعتبر وكأنها ناتجة عن الحقد والاحتقار والرغبة في الايذاء والضرر**»(١).

إن الذرائع التي يصطنعها الإسلاميون وحلفاؤهم، من قبيل أن الدراسات الاستشراقية ناقصة ومعابة، أو أن أعمالهم يمكن أن تصبح في أيدي الحاقدين سلاحاً للتشهير بالمسلمين، خارجة عن المنهجية التاريخية وعن المجال العلمي الصحيح. إنها أساليب معروفة، يقول رودنسون، غايتها الأخيرة «**تثبيط همّة كل نقد وتشكيل حزام من المحرّمات حول طائفة ما أو عقيدة ما بحيث إنه لم يعد ممكنا نقدها حتى بنيّة طيّبة**»(٢).

الردّ القويم والبديهي هو أن الباحث الجدّي يعلو على هذه المماحكات الجدالية؛ واجبه هو الكشف عن الحقيقة والتزام الحياد العلمي أقصى جهده، وبالتالي مهما كانت التهديدات ومهما انهمرت عليه من شتائم فهو لن يتراجع قيد أنملة عن مبتغاه العلمي ولن يُفرّط في مَنهجيّته حتى وإن أجهزوا عليه شخصيّاً. المحرّمات في مجال العلم، يقول رودنسون، لا يمكننا أن نَقبلها وبالتالي «يحقّ لنا أن ندرس أي جماعة بشرية وبطريقة نقدية إذا لزم الأمر. إنّ خَلعَ صفة الضّحيّة (سواء كان ذلك صحيحاً أم لا) على الأفراد الذين يجسّدون هذه الأفكار أو

(١) ن. م، ن. ص.
(٢) ن. م، ن. ص.

الذين ينتمون إلى هذه الجماعات، لا ينبغي أن يضعهم بمنأى عن الدراسة أو النقد. وكل محرّم شيء مضرّ إلى أبعد حدّ. إنه مضرّ أوّلا بمصلحة أولئك الذين يُفترض أنه يحميهم». التّابو، يُشعر أصحابه بالطمأنينة والرضى عن الذات ولكن سرعان ما يتحوّل إلى نوع من العنجهيّة والغرور ويؤدي إلى احتقار حقوق الآخرين. «فكيف يمكن للآخرين ألاّ يستنكروا الأمر عندما يرون هؤلاء مَحميّين بالتّابو من كل نقد في حين أنهم يرتكبون الأعمال نفسها التي كانت قد أدينت لدى هؤلاء الآخرين بالذات؟ ومن المعروف أن للاستنكار عواقب وخيمة»[1].

ويبدو، إن لم أخطئ، أن في لحظة ما تفطّن رودنسون إلى تلك الطّعنة التي أتته من حيث لا يحتسب، يعني من الأشخاص المحسوبين على العقلانية والتنوير، الذين عقد فيهم الثقة ونصَحَ القرّاء الغربيين بمطالعة كتبهم، وأقصد بالتحديد ودون مواربة هشام جعيّط. النصيحة الصائبة هي عدم الرضوخ إلى هذه الابتزازات رغم أنف الإسلاميين الجهلاء المُجرمين ورغم التحالفات الفاضحة التي عقدها معهم العلمانيون: **«من المهمّ ألاّ نخضع للابتزاز الدائم الذي يهدف إلى تثبيط الهمّة على الدراسة، واحتمالاً، على النقد لأيّ فئة أو جماعة بشريّة كائنة من كانت»**[2].

وبخصوص المسألة التي تعزّ على جعيّط والتي مفادها أن الغرب كله، بِسَاسَته وفلاسفته وعلمائه ورحّالته وأدبائه، مُعادٍ حتى الموت

---

(١) ن. م، ص١١٩.

(٢) ن. م، ن. ص.

للإسلام ولنبيّ الإسلام بحكم عقيدته المسيحية، فإن رودنسون كان قد أجاب عنها مسبقا. فالمنهجية الفيلولوجية في نقد الأديان وتفكيك النصوص المؤسسة لم يُوَجِّهها المسيحيون تُجاه الآخر المختلف، بل استخدُمت بعنف ضد المجدّدين في صلب المسيحية ذاتها: «**إن الإدانة الشائعة لنوع من أنواع «العنصرية» المتضمَّنة في الشتائم المسيحية أو غيرها ضد مؤسس الإسلام ناتجة عن خطأ في المنظور المرتكز على الكثير من الجهل. ذلك أن كل إيديولوجيا تزعم أنها تُجسّد الحقيقة المطلقة والوحيدة، تكون عادة مُرتابة وشرّيرة ومغتابة لكل أولئك الذين يعارضونها، وبخاصّة زعماء الجناح الذين يضعونها على محكّ الشكّ. في الواقع إن الشتائم المسيحية التي أطلقت في الماضي ضد محمد لم تكن أكثر حدّة من تلك التي استَهدفت كل كبار المبتدعين (أي أصحاب البدع والهرطقات بحسب نظر الكاثوليك)... وهذه الشتائم تُمرّغ في الوحل سُمعة آريوس ونسطوريوس ولوثر**»[1].

ثم يضيف رودنسون ملاحظة تتضمّن نقدا إضافيا لأطروحة مُشَابهة لتلك التي قَدّمها جعيط: «إن إدانة المسلمين «للعنصرية» المفترض أنها متضمّنة في الشتائم الموجّهة لنبيّ الإسلام توضّح لنا بكل جلاء ظاهرة عامة جدّاً ومميزة لعصرنا. ويمكن أن ندعو هذه الظاهرة بكلمة واحدة: تأميم الحقيقة. ذلك أن مفهوم الحقيقة يَمّحي. ويضاف إلى ذلك أننا نجد أن آخر موجات التنظير وأعلاه تساهم أيضاً في طمس الحقيقة»[2]. آخر

---

(١) ن. م، ص١٢٠.

(٢) ن. م، ص١٢٠.

موجات التنظير هي البنيوية ومصادرات ما بعد الحداثة التي خلّفت وراءها دماراً فكرياً كبيراً، وغدت في الفترة الحاضرة قارب نجاة للإسلاميين والعلمانيين المتأسلمين. ألم يَتغنَّ جعيّط بالنزعة اللاعقلانية الحديثة قائلاً إن الثقافة الغربيّة «حدثت فيها ردة فعل على العقلانية المبسّطة للأمور من «شوبنهاور» إلى «نيتشه» إلى السريالية إلى «هايدغر»»؟ ألم يَسْعَد بالتّغير المزعوم في ذهنيّة المثقف الحديث التقدمي، الذي «غدا يضحك من كلمة «عقلانية»، كما غدت كلمة «نزعة إنسانية» في الفكر تعني بالكاد السخافة لا أكثر»[1]؟ لكن بالنسبة إلى رودنسون، وهو محق في ذلك، هذه العدمية النظرية التي يُثني عليها جعيّط هي أمّ الكوارث على مصير الثقافة البشرية، إذ أن من نتائجها «انسحاب مفهوم الخطأ من الساحة لكي يحلّ محله مفهوم الخيانة. فلم يعد لك الحق في أن تشكك بعقيدة الطائفة التي شاءت الصدفة أن تولد فيها»[2].

إن الاستراتيجية الجديدة التي بدأ يستخدمها الإسلاميون بخصوص الرسالة المُحمديّة، ومن ضمنهم جعيّط في مؤلفاته الأخيرة، هي التداول، بحسب السياق والظروف، بين البُعد النبوي المقدّس المدعوم مباشرة من طرف الإله، وبين المشروع السياسي الرامي إلى خلق وعي قومي وبناء دولة موحدة. وهكذا فإن كتابة السيرة النبوية شهدت تقلبات

(١) هشام جعيط، أزمة الثقافة الإسلامية، م. س، ص٤٨.
(٢) مكسيم رودنسون، جاذبية الإسلام. المقدمة الثانية، ضمن: الاستشراق، م. س، ص١٢١.

من النقيض إلى النقيض حتّى أننا نعثر، عند جعيّط، في نفس النصّ على الأطروحة التي تركّز على دور العامل الديني الإيماني في بروز الإسلام والقول بأن هموم النبيّ كانت بالأساس هموما دينية ثقافية، وفي الفقرة الموالية يُغيّب العامل الديني أو يُجمّده لبُرهَة ثم يقول إن مشروع محمد هو مشروع سياسي يرمي إلى توحيد العرب ثم بعثهم إلى فتح الشمال. هذه التحوّلات التي تشي بتخبّط وعدم وضوح في المنظور والمنهج، لم تغب عن رودنسون: «في الماضي كانوا يحتفلون بذكرى النبي الذي حمل رسالة سماوية وعلّم البشر الحقيقة عن الله والكون وكيفية الوصول إلى الجنة وتحاشي النار. **وأما في هذا القرن فقد أصبحت ميزاته تتمثل في أنه مؤسس امبراطورية وعقيدة اجتماعية مفيدة وموحّد قوميّته أو عرقه. وبالكاد يذكرون اسم الله»**[1].

لقد أذهلنا الارباك العام الذي تخلّل مواقف المفكرين اليساريين إزاء الحملة اللاعقلانية التي اكتسحت الساحة الثقافية منذ السبعينات من القرن الماضي. ويتمظهر هذا الارباك في عدم الحسم مع الأديان وأساطيرها، ومحاولة الانفتاح عليها لا بل تقبّلها حتّى في المنظومة الثورية الحديثة. وهذا الانفتاح راجع إلى كونية الفكر اليساري، وإلى نزعة الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية نحو التوحيد بدل التفرقة، واحتضان مختلف الطوائف والملل دون اقصاء؛ فالفكر الاشتراكي عموماً، على عكس اليمين العنصري، يُشدّد على مبدأ المساواة والتضامن بين الشعوب ويَرمي إلى مناصرة المستضعفين ضد الإمبريالية

---

(١) ن. م، ص١٢١ ـ ١٢٢.

الغربية، وهي مواقف صائبة لا جدال فيها. لكن هذا التضامن لم يساعد اليسار على نقد الإسلام، أو الحسم مع الأديان كلّها، بل غالباً ما دخل اليساريون الغربيون أو العرب في مماحكة جدالية لتسويغ التصوّر الإسلامي، والبعض منهم برّروا حتى الإرهاب الإسلامي مُعتَبِرين إيّاه آخر معاقِل الصراع بين الإمبريالية الرأسمالية والشعوب المستضعفة. وقد راجت هذه الفكرة منذ التسعينات من القرن الماضي في بعض الدوائر الثقافية الغربية، وهي نوع من العماء الإيديولوجي، وربما تسويق للإسلاميين، وتبرير من حيث لا يعلمون لإرهابهم.

المفروض أن منطق الكشف العلمي لا يَستثني من نَقده أي قطاع ثقافي ديني مهما ادّعى أصحابه قُدسيّته ومهما راهنوا على امكاناته الروحية، وهذه المهمّة متاحة للمفكرين اليساريين أكثر من غيرهم لأنهم يمتلكون ترسانة مفاهيم نظرية تمكّنهم من تجاوز التفسير اللاهوتي القروسطي لحركة المجتمعات والتاريخ.

لكن اليسار تخلّى عن دوره الطلائعي في نقض الأوهام، وأخذ يتصالح مع الأديان ويفسح لها المجال للتعبير عن مختلف استيهاماتها، بل ويَمتنع حتى عن النطق بتلك الكلمة الشهيرة: «**الدين أفيون الشعوب**». بهذه الطريقة، يقول رودنسون «**نجد اليسار المناهض للاستعمار، سواء كان مسيحياً أم لا، يذهب في كثير من الأحيان إلى حدّ مباركة الإسلام والإيديولوجيات المعاصرة للعالم الإسلامي وبذلك يكون قد انتقل من النقيض إلى النقيض. ويذهب مؤرخ مثل نورمان دانيال إلى حدّ النظر إلى أي انتقادات لمواقف النبيّ الأخلاقية على أنها من بين المفاهيم المتشرّبة بروح العصور الوسطى أو الامبريالية، ويتّهم بهذه الاتجاهات ذاتها أيّ عرض للإسلام وخصائصه يقوم على أساس**

النظر إليه من خلال الآلية العادية للتاريخ الإنساني. وهكذا تحوّل الفهم إلى دفاع صرف»[١].

ليس نورمان دانيال وحده، وهذا المؤلف استغلّه جعيّط استغلالاً فاحشاً للهجوم على المستشرقين الغربيّين، بل إن المستشرق الإنجليزي مونتغومري وات، وهو أيضاً من بين الكتاب المفضلين عند جعيّط، لا يتوانى من الدفاع الشرس عن الإسلاميين وحتى الإرهابيين منهم كما يتراءى من ردة فعله على كتاب مانفريد هالبرن (M. Halpern)[٢].

---

(١) مكسيم رودنسون، «الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية»، ضمن: جوزيف شاخت ـ كليفورد بوزورث، تراث الإسلام، ج. ١، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٨، ص٩٠.

(2) M. HALPERN, *The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa*, The RAND Corporation, USA 1963, chap. 7, pp. 119-153.

٣ ـ الاستشراق مات

لقد تناول جعيّط ورُودِنسون بالدّرس نفس الإشكالية: أعني نظرة الغرب للإسلام والمسلمين منذ القرون الوسطى حتى القرن التاسع عشر، واستقصاء الأحكام المسبقة والتصوّرات الخاطئة التي هيمنت على مقاربتهم لنبيّ الإسلام والقرآن. وهذا الموضوع خاض فيه العديد من العلماء الغربيين، والأغلبية الساحقة منهم قاموا بمراجعات للمواقف السابقة، وحاولوا تصحيح المسار القديم، وتفادي الأحكام القيمية المملاة آنذاك من الخوف والكره. رودنسون يرى أن الاستشراق الكلاسيكي له ميزات كبرى لا يمكن التغاضي عنها، رغم بعض الهفوات التي قام بها أفراد محكومون بنظرتهم للعالم. والحال أنه لا يجب علينا أن نُركّز على تلك الأخطاء لإطلاق حُكم نهائي والقول بأن الاستشراق قد مات أو تفكّك وانحلّ بين مختلف قطاعات العلوم الإنسانية، ولم يبق بالتالي أي سبب لوجوده. إنها، في رأي رودنسون، سقطة كبيرة: «**لقد أخذ بعض الناس وجهة نظر متطرّفة فتحدّثوا عن نهاية الاستشراق**»[١].

جعيط يتحدّث بأكثر دقّة وشَمَاتة، يتحدّث عن استشراق **يحتضر ثم**

---

(١) مكسيم رودنسون، «الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية»، ص٧٨.

يموت. وهذه البِشارة نزلت على أتباعه المؤمنين كالمِنّة من السماء. فعلاً، ماذا ينتظرون أكثر من هذه البشارة الآتية من فم مؤرخ وفيلسوف ومثقف عقلاني تنويري علماني؟ لقد سَعِدوا بها أيّما سعادة وبادلوه التحيّة والإكرام فأخذت تنهمر عليه عبارات الإشادة والاطراء من طرف الإسلاميين، حتى أن مُثقفاً إسلاموياً متطرّفاً، لطفي بن ميلاد، صدّر مقالاً له بهذه الكلمات الرنّانة: «**يُعتبَر فكر د. هشام جعيّط رائداً في الفكر العربي المعاصر في ما بعد النكبة**»[1]. ولا ينبغي علينا إذن أن نستغرب كيف أنّ أشرس المدافعين عن جعيّط في الساحة الثقافية التونسية وأكثرهم سَبَاباً وشَتماً لناقديه هم من فصيلة الإسلاميين، وهذا الأمر ما كان ليحصل لولا التناغم في المواقف والأفكار والقناعات الدينية بين الطرفين.

الإسلاميون، منذ عقود اتخذوا، بكل صراحة ودون لفّ أو دوران، موقفاً مناوئاً من الاستشراق ومن الغرب وعلومه، ما عدا التكنولوجيا التي يتلهّفون عليها بشراهة. ولكن المفكرين العلمانيين **المتأسلمين** لا يقلون عنهم مناهضة للمستشرقين: منهم من تهكّم عليهم وسبّهم وقذفهم بالعمالة، ومنهم من اعتبرهم أذناب الإمبريالية الغربية ووصف أتباعهم أو مُحبّيهم العرب بأنهم مغفلون وعملاء للغرب. المؤرخ هشام جعيّط حاول أن يكون دقيقاً وموضوعيّاً للغاية: شَرّح أنفسهم بآلة التحليل النفسي ليُخرج منها الأغراض الدفينة المحرّكة لأعمالهم. ماذا وجد؟ عداء مُستفحَلاً ودائماً للإسلام. كتب فصلاً كاملاً، في ***أوروبا***

---

(١) لطفي بن ميلاد، «الاستشراق في فكر هشام جعيّط»، مجلة *المستقبل العربي* عدد ٣٧٦ يونيو ٢٠١٠، ص١١٧ ـ ١٤٠.

والإسلام، بعنوان «سيكولوجيا الاستشراق» خصصه لهذا الغرض. النموذج الامثل للاستشراق المعادي للإسلام هو المفكر الفرنسي ارنست رينان، جعيط يفسّر ما أسماه قسوة رينان تجاه الإسلام برؤيته الخاصة للتقدم الثقافي. وفي هذا الاطار فإن الرجل محكوم بأوروبّيته، يقول جعيط، التي ينظر إليها «كوحدة، تُجاه إسلام متراصّ ومستمرّ»[1].

رودنسون يُعطينا على العكس من ذلك معلومات دقيقة، مَبنيّة على كمّ من المعطيات التاريخيّة ذات مصداقية لا بأس بها. لقد أقبَلَ، علماء الغرب وأغلبهم من الرهبان والقساوسة في فترة تاريخية ما، على دراسة اللغات الشرقية وحاولوا ترجمة القرآن، وتَجميع معلومات عن الإسلام لأغراض عقائدية محضة. ففي إسبانيا العصور الوسطى بدأت الدراسات العربية «استجابة لحاجات العمل التبشيري، ثم فقدت هذه الدراسات كل جاذبيتها مع سقوط غرناطة [...] ثم استؤنفت هذه الدراسات كجزء من الدراسات السامية بصورة عامة في روما حيث كانت المشيخة الرومانية مُهتمّة بتوحيد الكنائس الشرقية. ثم جاءت الحركة الإنسانية في محاولتها البحث عن ثقافة عالمية [...] فوُسِّعت هذه الدراسات لتُصبح مجموعة من الدراسات الإسلامية [...] واهتمّت البابوية كما اهتمّ كثير من المسيحيين بأمر اتحاد الكنائس وحاولوا التوصّل إلى اتفاق مع المسيحيين الشرقيين، وهذا يعني دراسة لغتهم ونصوصهم [..] ثم إن نموّ القوّة الثقافية في أوروبا من الرحّالة الأوروبيين الذين كانوا يجلبون معلومات ووصفات عملية مفيدة... مثل هذه الصلات والاهتمامات

---

(١) هشام جعيّط، أوروبا والإسلام، ص٣٩.

الوثيقة في ذلك الوقت، بالإضافة إلى الاتجاه العام نحو تنظيم البحث العلمي تُفسّر ظهور شبكة استشراقيّه متلاحمة»[١].

هكذا كانت الخطوات الأولى لمقاربة العالم الغربي للإسلام والمسلمين، وهي خطوات بدأت منذ قرون عديدة، أي منذ احتكاك العرب بالمسيحيين وهجومهم عليهم في كل مكان. بعد العداوات المتبادلة بين الشرق والغرب، بدأ الغربيون في عصر العقلانية والتنوير، حينما تخلّصوا من بقايا نزاعات القرون الوسطى والنظر إلى الدين على أنه مجرّد تعبير ثقافي زائل، بل عائقاً أمام التقدّم العلمي، بالاهتمام المتزايد بالحضارة الشرقية. لكن في الأثناء، حدث شيء غريب وغير متوقّع، كما يحدث الآن مع فلاسفة ما بعد الحداثة، ألا وهو التعاطف مع الإسلام. فالدين الذي كان ينافس المسيحية أصبح جلّ علماء الغرب ينظرون إليه نظرة محايدة «بل بشيء من التعاطف» والسبب في ذلك، يقول رودنسون، هو أنهم «كانوا يبحثون فيه بصورة لاشعورية (ويَجدون فيه بالطبع) نفس قيم الاتجاه العقلاني الجديد الذي كان مخالفا للمسيحية»[٢]. لاحظوا أن رودنسون يؤيّد هذه النظرة ويقول إن العلماء الغربيين يجدون في الإسلام «بالطبع» نزعة عقلانية مخالفة للمسيحية، بل في كتاب الإسلام والرأسمالية قال إن القرآن «هو كتاب مقدّس تحتلّ فيه العقلانية مكانة هامة جدّاً»[٣] وهذا الكلام لا نوافقه عليه بتاتاً ونرفضه

---

(١) مكسيم رودنسون، «الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية»، ن. م، ص٥٩ - ٦٠.

(٢) ن. م، ص٦٢.

(3) M. RODINSON, *Islam et capitalisme*, Paris, Seuil, 1966 (trad., it., *Islam e capitalismo*, Einaudi, Torino 1968, p.100).

من حيث المبدأ لأننا بخلافه لا نرى في الدين الإسلامي أي اتّجاه عقلاني، ونصوصه المؤسسة تشهد بذلك. ولكن هذه الشهادة، وإن كانت حسب رأيي خاطئة، فهي مهمّة ويجب أن تُحسب لحسابه لكونها تُقشّع الفكرة المسبقة من أن المستشرقين مُناوئون للإسلام بالغريزة ويَكنّون له مشاعر الكره والضّغينة. الحقيقة هي أن عقدة المسلمين الآن، بعد التّباهي بالانتصارات البطولية وبمنطق القوّة وسِعَة الانتشار، أصبحت العقلانية، حيث أن كل جملة أو عبارة أو فكرة يتفوّه بها واحد من العلماء الغربيين للإشادة بعقلانيّة الإسلام إلاّ ونزلت عليهم برداً وسلاماً، واعتبروها نصراً لهم ولدينهم.

وهذه النّبتة كان قد زرعها منذ قرون فلاسفة عقلانيون معادون للدين، والذين وجدوا في المسيحية نموذج العدوّ اللاعقلاني الذي يجب محاربته والإطاحة به. ففي القرن السابع عشر، يواصل رودنسون، انبرى كثير من الكتاب «للدفاع عن الإسلام ضد الاجحاف الذي ناله في العصور الوسطى، وضد مجادلات المنتقصين من قدره، وأثبتوا قيمة وإخلاص التقوى الإسلامية». ومن بين هؤلاء، يتألق ريشارد سيمون، الذي رغم كونه كاثوليكياً مخلصاً فإن تكوينه العلمي المتين، منعه من أن يلقي بأحكام قيمية جزافا، حيث أن في كتابه «التاريخ النقدي لعقائد وعادات أمم الشرق» عرض «بوضوح واتزان» عادات كل من المسيحيين الشرقيين والمسلمين، «مستندا إلى كتاب لأحد فقهاء المسلمين، دونما قدح أو انتقاص، وكان يُظهر التقدير وحتى الإعجاب بهذه العادات. وعندما اتهمه أرنولد بأنه كان موضوعيا أكثر من اللازم نحو الإسلام، نصحه بأن يتأمّل «التعاليم الرائعة» للأخلاقيين المسلمين»[(١)]. ثم جاء

(١) مكسيم رودنسون، «الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية»، م. س، ٦٢.

المستشرق رولان فكتب عن الإسلام بموضوعية وتبحّر وذلك بالاستناد إلى مصادر إسلامية خالصة، ثم إثره كتب الفيلسوف بيار بايل عن حياة محمد مقالاً رائعاً في قاموسه التاريخي النقدي، ثم راجع ما كتبه في الطبعات الموالية على ضوء الأبحاث التي ظهرت لاحقاً.

وقد تواصل التعامل مع الإسلام ومع مؤسسه في الجيل اللاحق على هذه الوتيرة، ومرّ حسب رودنسون من «الموضوعية» إلى مرحلة الإعجاب[1]. كان يُنظر إلى الإسلام في تلك الفترة كدين عقلاني متسامح بعيد عن لاعقلانية المعتقدات المسيحية، وهو دين أيضاً «وفّق بين الدعوة إلى حياة أخلاقية وبين حاجات الجسد والحواسّ والحياة في المجتمع. وخلاصة القول، فهو كدين كان قريباً جدّاً من الدين الطبيعي الذي كان يعتقد به معظم رجال عصر التنوير»[2]. رودنسون يذكر العديد من الأسماء: رحّالة، أدباء، مؤرخون، فلاسفة، مثل لايبنيتز، بولانفيلييه، فولتير، جورج سال، رايسكه، أوكلي، جيبون. إذن القرن الثامن عشر، قرن العقلانية والتنوير والالحاد بامتياز، عوض أن يناصب العداء للإسلام فهو، كما يقول رودنسون اعتمد إزاء الشرق الإسلامي «نظرة أخوية مُتفهّمة». وقد تمادوا في الدفاع عنه إلى درجة أنهم حاولوا التخفيف من حدة رذائل الأتراك الذين يدينون بالإسلام ويطبّقون تعاليمه بوحشية، ولكن بشيء من النسبوية قلّلوا من شأنها أو تغاضوا عن مخاطرها. الرافعة الكبرى التي اعتمدها المثقفون آنذاك هي فكرة التساوي في المواهب الطبيعية بين البشر والتي مكّنت العلماء، كما يقول

---

(١) ن. م، ص٦٣.

(٢) ن. م، ن. ص.

رودنسون «من القيام بدراسة نقديّة للتّهم التي وجّهتها العصور السابقة إلى العالم الإسلامي. حقّاً إن القسوة والوحشية كانتا منتشرتين في الشرق، ولكن هل كان الغرب مُنزّها عن ذلك؟ وقد أشار الكتّاب إلى أن الرقّ في تركيا كان أخفّ منه في غيرها من البلاد، وإلى أن القرصنة كانت تمارس أيضاً من بين المسيحيين. صحيح أن المطلق نظام سياسي مؤسف، ولكنه جدير بالدراسة ومن الواجب تفسيره، كأيّ نظام آخر، بالرجوع إلى الأسباب البيئية والاجتماعية»[١].

ولا يُنكر رودنسون أن القرن التاسع عشر طغت عليه فكرة التفوّق الغربي، وهي النقطة التي ركّز عليها أعداء الاستشراق من العرب بما فيهم هشام جعيّط، ولكن رودنسون يعدها واحدة من بين الاتجاهات التي سادت في تلك الفترة: «شعور نَفعيّ وإمبريالي بالتفوّق الغربي مليء بالازدراء للحضارات الأخرى، وميل رومانسي إلى كل ما هو غريب يبتهج بالشرقي السحري الذي كان فقره المتزايد يعطي مذاقاً خاصاً، وتخصّص علمي انصبّ معظم اهتمامه على العصور الماضية»[٢]. المسلمون تشبّثوا بالاتجاه الأول لضرب الاستشراق، وهاموا بالثاني لأنه يمجّد دينهم، وتركوا الثالث لأنه عويص عليهم. لقد هاموا بشعر غوته (Goethe) الذي مجّد فيه محمد والإسلام، وشِعره هذا يقول رودنسون، خصوصاً انشودة محمد (Mahomet Gesang) يفوق في شاعريّته بما لا يُقاس مؤلف فولتير «محمد» ولكنّه أقل منه اصطباغاً باللون المحلّي[٣].

---

(١) ن. م، ص٦٥.

(٢) ن. م، ص٦٩.

(٣) ن. م، ص٧٠.

رغم كل هذا الهَيام والمحاباة المفرطة فإن الدراسات العلمية المعمقة وتحقيق النصوص تحقيقاً فيلولوجيا صارماً شقّت طريقها بتواتر متصاعد في جامعات أوروبا الكبرى؛ بدأت من باريس، حيث نَشط سيلفاستر دي ساسي (Sylvestre de Sacy) الذي اشتهر بأعماله الرائدة وأصبح مدرسة لوحده، يؤمّها طلبة العلم في تلك الفترة من القرن الثامن عشر، ثم انتشرت في كامل أرجاء أوروبا.

رودنسون لا ينفي حضور العامل الديني عند بعض التيارات الكاثوليكية، في التطوّر اللاحق لنظرة الغرب للمسلمين. وقد شجّعهم على اتخاذ هذا الموقف عوامل واقعية، منها مثلاً الوضع المتردّي الذي يرزح تحته العالم الإسلامي في تلك الفترة «ففي إطار الميول الإنسانية الطبيعية، بل وحسب الأفكار العامّة للعلم العصري في ذلك الحين، عزا المبشّرون نجاحات الأمم الأوروبية إلى الدين المسيحي، مثلما عزوا إخفاق العالم الإسلامي إلى الإسلام. فصُوّرت المسيحية على أنها بطبيعتها ملائمة للتقدّم، وقُرِن الإسلام بالركود الثقافي والتخلّف. وأصبح الهجوم على الإسلام على أشدّ ما يكون. وبُعثت حجج العصور الوسيطة بعد أن أضيفت إليها زخارف عصرية، وصُوّرت الجماعات الدينية الإسلامية بصورة خاصة على أنها شبكة من التنظيمات الخطرة يُغذّيها حقد بربري على الحضارة»[1]. لكن رودنسون لا يعمّم، لأن هذه النظرة نجدها أيضاً عند كتّاب معادين للمسيحية وللإكليروس عموماً، وهي بالنسبة إليه واحدة من المفارقات الكبرى، نظراً إلى أن «**نتائج مماثلة**

---

(١) ن. م، ص٧٩ ـ ٨٠.

كانت قد ظهرت عند مفكرين معادين للإكليروس من أمثال فولتير وغيره الذين مجّدوا فضائل الهيلينيّة باعتبارها قامت على حرّية الروح وعلى عبادة العقل والجمال»[1].

---

(1) ن. م، ص٨٠.

٤ ـ الغربُ كلّه مسيحيّ وكلّه مُعادٍ للإسلام

كيف تعامل جعيّط مع هذا الطيف من الأفكار والآراء والتصوّرات المتراكمة لمدى أجيال؟ مثلما يفعل كلّ إسلامي حاقد: جَمَّعها كلّها في بَوتقة واحدة، وحكم عليها بأنها ذات علاقة وطيدة بالإرث المسيحي، ثم أضاف بأن المستشرقين الغربيّين تصرّفوا بازدواجية وكالوا بمِكْيَالين: استخدموا ضد الإسلام الشيء ونقيضه «**لقد استخدم هذا الاستشراق المسيحية والعلمنة المعاصرة، كُلاّ بدورها، لاتّهام الإسلام اعتباطا، إما بنقصٍ في الروحانية وإما بالجمود التيوقراطي**»[1]. وبما أن المسيحية هي الغرب، وبما أن العلمانية هي نتاج غربي صرف فإن الاستشراق الكلاسيكي كله، طبقاً لهذه النظرة العدائية المزدوجة والمتقلّبة، حسب جعيط، «**هو الأكثر غربنة**»[2]. إن الوازع الباطني وراء عداء الغرب للإسلام هو عقدة الرّهاب من الآخر، أو بالأحرى الخوف من فقدان الذات أمام عالم مغاير له في الدين ونحلة المعاش: «**وكأن تلك الصلة المطوّلة مع ثقافة أخرى، تُعيد له وعيه الحادّ بتميّزه الذي يؤكد عليه خوفا من فقدانه أو ذوبانه. هناك دوماً مأساة الاتصال الثقافي. مأساة**

(١) هشام جعيّط، أوروبا والإسلام، ن. م، ص٣٩ ـ ٤٠.
(٢) ن. م، ص٤٠.

أنطولوجية وعامة للفرق بين البشر مأساة وجودية وثقافية عندما تُعاش بشكل فردي. الاتصال السطحي يؤدي إلى الشعور بالغرابة. تعميقه يهدد بتفكّك الأنا، وتفجير انسجامه، وإنهاء تأكيداته وإلى صدمة القيم»[1].

المفروض أن يتقيّد المثقف، صاحب العقل الناقد والتصوّر الموضوعي للأشياء، بالمعطيات التاريخية العينية وأن يسلك طريق الحياد المنهجي ويجتهد قدر الإمكان للتخلّص من سجن الأحكام المسبقة. إن الفضائل النظرية تُحتّم على الدارس تمحيص المعطيات بدقة، والفحص عن مدى تطابقها مع الواقع، وعدم التسرّع في قبول أحكام مجتمعه الراسخة إزاء الثقافات الأخرى، والاستعداد للتشكيك فيها ونقدها متى تطلّب الأمر. لكن المستشرق الأوروبي، في نظر جعيط، هو إنسان مسجون في أحكامه المسبقة، ومُتقوقِع حول نظرة معيارية استعلائية من حيث تأكيده الدائم «**على نموذجيّة مصير أوروبا**»[2]. وهذا الانغلاق الثقافي ينعكس خصوصاً على تصوّره للإسلام، بحيث يحصر هذا الدين الغريب المختلف «**في عملية مواجهة حضارية مع الغرب. ويسير تاريخ الإسلام لا وفق ديناميكيته الخاصة، بل كانعكاس شاحب ومعكوس لتاريخ الغرب**»[3].

لا شكّ في أن هذه المقاربة خاطئة على المستوى المنهجي، ومُخِلّة بمقوّمات الموضوعية العلمية، ومن يجرأ على انتهاج هذا المنهج سيعرّض نفسه وأعماله للشكوك وربما سينتهي به الأمر إلى نسف مصداقيته بالكامل.

---

(١) ن. م، ن. ص.
(٢) ن. م، ن. ص.
(٣) ن. م، ص٤٠.

إن النقطة المركزية التي يتمظهر فيها استعمال المستشرقين الغربيّين للموارد المسيحية ضد الإسلام، يُشخّصها جعيط في مقاربتهم لسيرة محمد: «**ضمن كل تحليل لهذه الشخصية تنساب عملية مقارنة مع المسيح. إذا كان محمد غير صادق فذلك لأن المسيح كان صادقاً؛ وإذا كان متعدد الزوجات وشهوانياً، فلأن المسيح عفيفا؛ وإذا كان محمد محاربا وسياسياً فذلك استناداً إلى يسوع مسالم، مغلوب ومعذب**»[1]. إزاء هذه الباقة من الأحكام التي عددها هو نفسه، جعيط تذبذب وتَناقض لأنه لم يوثّقها بما فيه الكفاية، ولم يورد النصوص المُدعّمة بل إن الحالات القليلة التي استشهد فيها ببعض الأسماء، اعترف هو نفسه بأنّهم معادون للمسيحية، ومن الخلف بمكان إذن أنّ مفكراً لادينيّاً أو ملحداً سيلتجئ إلى المسيح ليقارن فضائله برذائل محمد. وهذا دليل على أن مماحكات جعيّط غرضها الأساسي هو المنافحة على الدين والهجوم على المخالفين، وليس الرّفع من المستوى العلمي للقارئ العربي أو المساهمة في تقشيع الأوهام عن عقول الناس، ولذلك جاءت معلوماته ناقصة واستنتاجاته خاطئة. فلو أنه تعمّق في المسألة بروح الباحث الموضوعي واطّلع بجدّ على مماحكات الغربيّين ضد نبيّ الإسلام، بما في ذلك المسيحيين منهم، لأدرك أنهم لم يستشهدوا إلاّ نادراً بسيرة المسيح، وإنما استشهدوا بأخلاق نيقوماخوس لأرسطو، والسياسة لشيشرون وأخلاق الرواقية لسينيكا.

جعيّط لم يقدّم أي مثال عيني على هذا التجنّي ولم يستشهد بأي نص، ولكنه ألقى بعموميات دون فحص وتدقيق. ومن السهل معارضته

---

(١) ن. م، ن. ص.

بالتفتيش في نصوص العلماء الغربيين، والعثور على أقوال نقيضة تدمّر أحكامه القبلية هذه. في مقال «محمد»، للفيلسوف الفرنسي بيار بايل (Pierre Bayle)، متحدثاً عن جنة الملذات التي يعد بها نبي الإسلام أتباعه، وعن تباهي المسلمين بقوّة نبيّهم الجنسية الخارقة للعادة كتب في الملاحظة (II)[1] ما يلي: «فلنتعجّب هنا من هٰذا الضعف الإنساني. محمد، مُمارساً ومُعلّماً لأشدّ أنواع القاذورات، استطاع رغم كل ذلك أن يجرّ عدداً كبيراً من الناس للاعتقاد في أن الله بعثه بالدين الحق. ألا تدحض حياته بقوّة هذا الادعاء الكاذب؟ ذلك لأن حسب ملاحظة ابن ميمون، الطبع الأساسي للنبيّ الحق هو احتقار ملذات الحواسّ، وخصوصاً ملذات ما نسميه بالجنس: «قمين في هذا أن نستشهد بما قاله

(1) P. BAYLE, "Mahomet", in *Dictionnaire historique et critique*, Paris, Desoer, 1820, T. X, rem (II). "Admirons ici la faiblesse humaine. Mahomet, pratiquant et enseignant la plus excessive impudicité, a néanmoins fait accroire à un grand nombre de gens que Dieu l'avait établi le fondateur de la vraie religion. Sa vie ne réfute - elle pas fortement cette imposture? Car selon la remarque de Maimonide, le principal caractère d'un vrai prophète est de mépriser les plaisir des sens, et surtout celui qu'on nomme vénérien: "Il est utile ici de transcrire les paroles que reporte Maimonide dans le *Guide des égarés*, liv. 2, chap. 40, en ce qui concerne le mode de distinguer les faux prophètes: "*Le mode pour prouver ça est d'examiner la perfection de cette personne, d'observer bien ses actions et de considérer ses conduites. Le plus important critérium que tu puisses avoir, c'est la répulsion et le mépris (qu'aurait cette personne) pour les plaisirs corporels ; car c'est là le premier pas des hommes de science, et, à plus fort raison, des prophètes, particulièrement en ce qui concerne celui des sens, qui est une honte pour nous, comme le dit Aristote, et notamment la souillure de la cohabitation qui en dérive. C'est pourquoi Dieu a confondu par cette dernière quiconque s'arrogeait (la prophétie), afin que la vérité fût connue à ceux qui la cherchaient et qu'ils ne fussent pas égarés et induit en erreur*".

ابن ميمون في دلالة الحائرين، الكتاب الثاني، الفصل ٤٠، عن كيفية تمييز الأنبياء الكذابين من الصادقين: «**وجه امتحان ذلك هو اعتبار كمال ذلك الشخص وتَعقّب أفعاله، وتأمّل سيرته، وأكبر علاماته اطّراح اللذات البدنية والتّهاون بها. فإن هذا أول درجات أهل العلم، فناهيك الأنبياء وبخاصة الحاسّة التي هي عار علينا، كما ذكر أرسطو، ولا سيّما قذارة النكاح منها. ولذلك فضح الله بها كل مُدّع ليتبيّن الحق للمحققين، ولا يضلّوا ولا يغلطوا**»». كان بمقدور بايل أن يستشهد بالإنجيل، وأن يستدل بحياة يسوع الوَرعة المُتزهّدة، لكنه ترك كل التراث المسيحي، وتوجّه إلى الفلاسفة دون سواهم.

من الواضح إذن أن وراء هذه الأحكام القيميّة التي يطلقها جعيّط، هناك نيّة مُبيّتة للطّعن في الاستشراق ومحاولة إعادة تحجيم ادّعاءاته العلمية وضرب مصداقيته في الصميم. وآخر صيحات المثقفين العرب هي القول بأن المستشرقين نكرة في بلدانهم، ولم يحوزوا على شهرة إلاّ عند العرب كما قال يوما ما أركون وتَبعه هاشم صالح، وها هو جعيّط يُعبّر عن نفس الفكرة. فهو يرى أن إنجازات المستشرقين ليست بذلك القدر من الأهمية في العالم الغربي، والاستشراق نفسه، كقطاع معرفي مستحدث، كان وسيبقى دائماً «**على هامش الجسم المركزي للتقليد الفكري الغربي**»، ومع هذا، يقول جعيّط، بشيء من الأسى« **يطرح نفسه ناطقاً باسم الغرب**». وعند هذه النقطة فإن جعيّط يُنزل ملاحظة يتكلّم فيها بالنّيابة عن صنف معيّن من المثقفين العرب: «**حتى العناصر المتغرّبة بصفة أصيلة من الوعي العربي، سواء في رؤيتها الإيديولوجية للعالم أو في تكوينها المنهجي، يمكنها على الأقل أن تواجه هذا الاستشراق كنتاج غير صادق للغرب، أو على الأكثر، أن**

تأخذه كلحظة من وضعية معطاة، حيث العلاقات غرب ـ شرق كانت محكومة بالإيديولوجيا الاستعمارية»[1].

هؤلاء هم العلمانيون، أو العقلانيون العرب الذين ينبغي أن يروا في الاستشراق نتاجاً غير صادق للغرب، ولا ندري هل أن جعيّط يعتبر نفسه واحداً منهم أم لا، لكن الأكيد هو أن في قولته هذه ثمة محاولة لتدجينهم قبل أن يَسبّهم وينعتهم بالمتغرّبين، كلمة تتردّد كثيراً في كتابات الإسلاميين، ثم يقترح عليهم أن يكذّبوا الاستشراق أو يُنسّبوا مقولاته ويُمَوْقِعوه في لحظته التاريخية الغربية. وفي مقابل هذه الفصيلة من المتغرّبين، هناك أشخاص يدعوهم جعيط بأصحاب «**الوعي العربي الصافي**» وهم في الحقيقة يمثلون «أصحاب الوعي الإسلاموي الصافي»، لهم تحفظات على الاستشراق ككلّ ولا يرضون بالتفتيش عن «**سلطة روحية أو ثقافية خارج المنطقة العربية، يرفضون المنهج الاستشراقي كمنهج خارج عن العروبة، عاجز عن سبر أعماقها ومحرّف لأهدافها»**[2].

إن بخس أعمال المستشرقين يتمظهر في الاستنتاج الذي استخلصه جعيّط على إثر مفارقة استحدثها هو، وعلى أساس شِبْه إشكالية أثارها بكل أبّهة، وأخلص من خلالها إلى أن **وضعية المستشرق** يحيقها الغموض. وهذا الغموض لا يتأتّى من النقائص التي تشكو منها أعماله أو من أحقّيّة انجازاته المعرفية في حد ذاتها، وإنما من الأشخاص والجهات التي يتوجه إليها. فالمستشرق، في رأي جعيط، تائه دون

---

(١) ن. م، ن. ص.
(٢) ن. م، ن. ص.

مرجعية ثابتة، وتَنقصه حتى المعايير لكي يَركن إلى نموذج مُوحّد. لا يعرف في نهاية المطاف إلى أي جمهور يتوجه، وليس له منهجية واضحة المعالم، ولا أطروحات مستقرة وثابتة، والنتيجة هي أن المستشرق يُغيّر من جِلدته بحسب جمهور القرّاء: حينما يتوجه إلى جمهور غربي «**فإنه يبسّط، ويبخس قيمة معلوماته، حيث أن المرجعية التي يستقيم عليها عالم ذهني بأسره تفقد مركزيتها ومعناها ومغزاها، وتتعارَض فوق ذلك مع تأكيد ساذج للـ«أنا» الغربي**»[1].

هذا هو الوجه الأول من وجوه المستشرق. ولكن إذا تَمعّنّا في هذا التوصيف بجدّية لرأينا أنه ثلبٌ وليس وصفا موضوعيا للأشياء. على أية حال هذه تهمة خطيرة جداً، وإذا ما لم يتمّ البرهنة عليها وتدعيمها بالنصوص الصريحة، فإنها ستبقى مجرّد قذف مجاني وتشويه سمعة، أمر لا يليق بالمفكر الحصيف. أين نضع ترجمة دي ساسي لمقامات الحريري وتعليقاته وشروحه التي كتبها بالفرنسية وتوجّه بها للفرنسيين أو الناطقين بالفرنسية؟ ماذا نقول عن تاريخ القرآن لنولدكه الذي كتبه كلّه بالألمانية ثم تضافرت فيه جهود جيلين من العلماء بالإضافات والتنقيح والتعديل؟ إن عملاً واحداً من أعمال المستشرقين يُدمّر دون رجعة هذه التداعيات الحرّة لجعيّط، تداعيات لاعلمية ولا تاريخية، وأجرؤ القول إنها تَجهيليّة.

لكن جعيّط يُصعّد من الموقف ويُضيف معلومة أخرى تصبّ في نفس المصبّ، حيث يُصوّر المستشرق الغربي وكأنه رجل مُداهن ومُتضلّع في النفاق والازدواجية والكذب، لا يُحرّكه أيّ غرض معرفي.

---

(١) ن. م، ص٤٠.

فعلاً، قناعة جعيّط هي أن المستشرق عندما يكتُب إلى جمهور غربي يبسّط ويُسطّح، وحينما يتوجّه إلى أفق إسلامي بحت «**يبقى في صلب الموضوع، وما كان هامشاً يصبح مركزياً. ولأنه ليس للإنسانية وطن موحد، لا يمكن لعلم المجتمعات والثقافات الخاصة، وفي طليعتها التاريخ، أن يكون علما غير مجسّد. ولكن لهذا السبب ذاته وباسم العلم، يلمس المستشرق بفظاظة، وأحياناً بكراهية (وهذه حالة لامّنس مثلاً) لا موضوعاً جامداً للمعرفة بل حقيقة حيّة، محبوبة، وملأى بمعاناة الناس وإخلاصهم وموجودة في النواة العميقة للأنا**»[١]. كل هذه العوامل تثير الشكوك حول مصداقية المستشرق وحول مَدى تحرّكه الفعلي «**في دائرة الحقيقة الأبدية الهادئة والموضوعية**»[٢].

إدانة الاستشراق مُعمَّمة وقاسية، والتّهمة، بعد الازدواجية، هي المعياريّة المسيحية، وهذه هي مدار فكر جعيّط والنقطة المستقرّة في ذهنه، وهي توري عن كرهٍ شديد وضغينة واحتقار عميق للمسيحية وللمسيحيين. وقد برهنت على ذلك في كتابي: منطق المؤرخ، وزاد يقيني حينما لاحظنا أنه لم يتفوّه بكلمة واحدة لإدانة الأعمال الإجرامية التي يقوم بها المسلمون ضد المسيحيين في سوريا والعراق، بل إنه أثنى على الإرهابيين التونسيين الذين التحقوا بداعش واشتهروا بأعمالهم المروّعة ضد السكان الآمنين. ورغم أن العديد من المستشرقين ينحدرون من أديان أخرى ورغم أن أغلبهم علمانيون أو ملحدون حتى، فإن جعيّط مُصِرّ وواثق من أن أوروبا التي يتخذها المستشرق كإطار مرجعي

---

(١) ن. م، ن. ص.

(٢) ن. م، ص٤١.

«هي أوروبا مسيحية وقروسطية، كأنّ ثورات القرن التاسع عشر لم تَدكّها بِنَفَسها الهدّام»[1].

هذه وَمْضَة من مقاربة جعيّط لسيكولوجيا الاستشراق. كيف هي نظرة أوروبا لسيكولوجيا الإسلام؟ للإجابة عن هذا السؤال فإن جعيّط يفتّق مواهبه في الثلب والتجريح. إن نظرة الغرب لسيكولوجيا الإسلام «**جامدة**»، محبوكة على شكل كليشيهات وصُوَر نمطية لأناس يُعرضون في بساطتهم وثبوتهم، وكأنهم هياكل متصلّبة دون روح: «**العربي، المسلم، البربري، التركي، ذوو صفات ثابتة، ثابتة جدّاً دون شك**»[2]. الغرب يتعمّد تشويه صورة حضارة راقية ثريّة ومتشعّبة، ويغوص في تقسيم هرمي اعتباطي للبشرية: «**كل غِنى «الثقافة» الإسلامية ممتصّ ضمن جدول وضعي لا يعتمد على تحليل متأنٍّ مسبق، وإنما على حدس يودّ أن يُظهر بلمحةٍ بَصرٍ جوهر هذه الثقافة. ويُبرزُ هنا الاستشراق أنماطاً من «العجز» الإسلامي، مثلاً: عدم القدرة على تصوّر الحياة ككل وعلى فهم كون أية نظرية للحياة عليها أن تغطي كل الأحداث..»، أو عدم القدرة على إدراك الميزة اللانفعيّة للمعرفة..، أو أنه عجز عن العلم، عن التقنية أو عن العقلانية»**[3].

هل هذا هو كل الاستشراق؟ هل كانت هذه بالفعل هي الذهنيّة السائدة عند كل المستشرقين؟ أشك في ذلك، وأظن أنه مِن باب المبالغة وعدم الحصافة وسوء النيّة تعميم هذا الحكم على أعداد غفيرة

---

(١) ن. م، ن. ص.
(٢) ن. م، ن. ص.
(٣) ن. م، ن. ص.

من العلماء الغربيين الذين كرّسوا حياتهم لدراسة الحضارة الإسلامية بشغف وحماسة[١].

لكن جعيّط سائر قُدما على نهج أحكامه المسبقة القاسية، ومُصِرّ على أن الاستشراق كلّه معادٍ للإسلام ومبرّز في تعداد لائحة طويلة من **«نقائص الإسلام»**. وهذا أمر، بالنسبة لجعيّط، لا يُحتمل إطلاقاً، لأنه ينمّ عن ذهنية عدائية اختزالية، أو كما سمّاها هو **«مانوية ساذجة»**، تُقارن بين **«غرب ديناميكي وشرق ملعون»**. وهذه في حقيقة الأمر التقنية المستديمة لما دعاه جعيط بالاستشراق المتطرّف الذي بتأكيده على أوروبية جماعية مغلقة **«يَضَع نفسه خارج ما هو عالمي وخارج ديناميكية الاتّصال»**[٢]. ولا ينجو من هذا النقص حتى ما أسماه بـ **«الاستشراق الجدّي»**، لأنه لم يَنْجَح كالاستشراق المتطرّف في **«إيجاد النقطة الحسّاسة التي من خلالها يتم الوصل بين داخلية الثقافة وخارجيتها»**[٣].

(١) للاطلاع على تاريخ موضوعي لأعمال المستشرقين الأوروبّيين من القرن الثاني عشر ميلادي حتى القرن التاسع عشر، أنصح القارئ العربي العارف باللغة الفرنسية أن يقرأ كتاب غوستاف دوغات: تاريخ المستشرقين الأوروبيّين، في مجلّدين.
G. DUGAT, *Histoire des orientalistes de l'Europe du XII^e au XIX^e siècle*, 2 vol., Paris, Maisonneuve, 1868 - 1870.

(٢) هشام جعيّط، أوروبا والإسلام، ن. م، ص٤١.

(٣) ن. م، ن. ص.

٥ ـ أسياد الجريمة: رينان، لامّنس، دوزي

إن نقائص المستشرقين ورذائلهم، وربّما أيضاً إجرامهم في حق الحضارة الإسلامية، يركّزها جعيط في أشخاص ثلاثة جعل منهم صوان المكر والخبث والتجنّي الفاضح على الإسلام: رينان، لامّنس ودوزي. الأوّل له رؤية تبسيطيّة وعنصرية إزاء الدين الإسلامي، لأنه يشجب صراحة الإسلام ويحمّله المسؤولية عن «**عبودية الفكر الشرقي، وعن صدّ تطوّر العلوم في بلاد الشرق**»[1]؛ الثاني أشدّهم تعنّتاً ومكراً لأنه يقوم بعملية خطيرة جدّاً، طبقاً لمعايير جعيط، ألا وهي «**نفي الإسلام خارج ذاته**»[2]، أي حصره في عالم صحراوي بدوي متخلف دون اشعاع خارجي أو تلاقح ثقافي. هذا فضلاً عن أن تعاطفه التاريخي يتّجه دائماً نحو القوى المعادية للإسلام أو ما يتخيّله كذلك؛ فعلاً لقد صَبّ لامّنس جام حقده على آل البيت النبوي، وخصوصاً على عليّ كتجسيد للمثال الإسلامي الجديد. إن هذه الأحقاد والتشويهات نجدها أيضاً عند المستشرق الثالث في قائمة المغضوب عليهم، أعني دوزي، خصوصاً في تحليله لمسألة **الحرّة** (قَمع أهل المدينة من طرف يزيد بن معاوية)،

---

(١) ن. م، ص٣٤.
(٢) ن. م، ص٤٢.

والتي رآها كردّ فعل للمبدأ الوثني المنفتح ضد المبدأ الإسلامي المتعصب.

على أنقاض هذا الاستشراق الفرنسي التشويهي المتعصّب، جاء أخيراً عالم ألماني مختصّ في لاهوت العهد القديم، واسمه يوليوس فيلهاوزن، كَشَف الغُمّة وأعطى «**الحقيقة نصيبها، وشرح كمؤرخ قريب من النصوص، أن وجهة نظر كهذه تستند إلى رؤية خاطئة تماماً للتاريخ السياسي للإسلام المبكّر**»[١]. ويبدو أن هذه القناعة من أن الخلاص آتٍ من برّ الألمان هي التي جعلت جعيّط يتعاطف مع الاستشراق الألماني أكثر منه مع الاستشراق الفرنسي أو الإيطالي. ولكنه تعاطف حذر وفي حدود ضيّقة، لأن الاستشراق، يعني أن يدرس عالِمٌ غربي، سواء أكان ألمانياً أو فرنسياً أو هولاندياً، الإسلام وينقد قرآنه ونبيّه، فهذا مرفوض ومُدان مبدئيا.

اللاوعي الغربي، حسب تحاليل جعيّط النفسيّة، يَبقى في العمق مسكوناً بهاجس الشرق: يحاول دائماً قهره، دحره واظهار نشازته وغرابته وغيريّته المقلقة، ولكن حينما لا يتسنّى له ذلك فهو يعمد إلى تقنية ماكرة تتمثل في ضرورة « **مدّ اليد لكل ما يحتويه هذا الشرق مما هو غربي: السلالة الأموية، الهلينيّة، بعض مظاهر الصوفية** [الحلاّجيّة «**دين الصليب**»]»[٢]. وبالجملة الاستشراق يبقى مهووساً بالرّهاب الإسلامي منذ نهاية القرن التاسع عشر، وهو يَنتمي، أي الاستشراق،

(١) ن. م، ص٤٣.

(٢) ن. م، ن. ص.

إلى لحظة «**من تاريخ الوعي الغربي الهامشي**»، حيث يشعّ إيمان شبه مطلق بقيم الغرب، «**بالإنسانوية والمسيحية والعقلانية**»[١].

ولا يختلف الأمر حتى مع الاستشراق الموالي للإسلام لأنه هو بدوره يعبّر عن لحظة تاريخية غربية، ومخترق ببعض الشكوك «وبالامتعاض أمام ما يمكن اعتباره كفساد وانعدام الروحانية في الغرب»، لكنهما يتلاقيان «**في الانتماء الداخلي إلى المجموعة نفسها من القيم، المهانة هنا والمنتصرة هناك**»[٢]. المستشرق المتعاطف مع الإسلام لا يفعل ذلك حباً في الإسلام بل لكي يقي روحانيته المهانة من الاتلاف. إنها الإنسانوية المسيحية اليائسة، كما يسميها جعيط، التي تَنفَتِح على التّعالي وعلى الدين الإسلامي لا لشيء إلاّ لأنها وجدت فيه حليفا تقاسمه هموم الهجمة العقلانية الوضعية التي كادت أن تقضي على الدين كليا منذ القرن الثامن عشر في الغرب. إنّ يأس المسيحية «**يجعل رؤيتها للإسلام كما لِكنزٍ مُخبّأ منذ زمن بعيد واكتُشف حديثا، وترتجف لئلا يضيع في الانهيار العالمي للروح**»[٣]. الإسلام هنا تحوّل من عدو تاريخي إلى حليف مستقبلي ضد المدّ العلماني الالحادي. لقد تغيّرت النبرة والأهداف وتزحزحت الإشكالية من نقد الاستشراق ومن تعرية لسيكولوجيا المستشرقين المريضة، إلى نقد المسيحية وابراز مخاوفها الدائمة من الانهيار، وتدابيرها للتصدّي للإلحاد.

ماهي حالة الاستشراق الآن وما مآله المستقبلي؟ الاستشراق الحالي

---

(١) ن. م، ن. ص.
(٢) ن. م، ن. ص.
(٣) ن. م، ص٤٣.

تخلّى عن عدائه الدائم للإسلام، وهذا أهمّ مَكسب بالنسبة لجعيّط، تتوارى خلفه كل انجازاته وبحوثه السابقة، لأن معيار علميّة أي عمل تاريخي عنده هو مدى محاباة أو معاداة دينه الإسلامي، والباقي مجرّد تفاهات لا قيمة لها. وإن وُجدت جيوب مقاومة من طرف مستشرقين غير مهادنين مع الدين فهي مجرد أقلية لا يُحسب لها حساب. السيرورة على كل حال متواصلة والمراجعة بدأت تعطي أكلها، والآن اكتسب الاستشراق وعيا جديداً وأصبح يميّز مواقفه بأكثر دقة، «**آخذا في الحسبان، لا تطوّر الواقع الغربي فقط، بل مُتَكيّفا أيضاً مع ذاك المستجدّ العظيم الذي هو النهضة السياسية للعالم العربي**»[1].

وهذا هو لُبّ المَطلب الذي ألحّ عليه أنور عبد الملك، صاحب مقال «الاستشراق في أزمة»، والغرض منه هو تَرك الإسلام الأوّل، منبع كل التصورات اللاحقة، وصدّ المستشرقين عن البحث التاريخي النقدي في سيرة محمد ونص القرآن، ثم إغراقهم في مستنقع المشاكل السياسية والاجتماعية الراهنة للعالم العربي. لكن محاولتهم هذه ذهبت سدى وحيلتهم تمّ كشفها والتشهير بها. المستشرق الفرنسي كلود كاهن تفطّن إلى هذه الخدعة وردّ على عبد الملك قائلاً: «من أجل تجريب أفضل لمناهج التحرّي التاريخي، نجد أن الفترات الحديثة ليست هي بالضرورة الأكثر ملاءمة. فتطبيق هذه المناهج الجديدة على الفترات القديمة قد يُعطي نتائج أفضل وأكثر رسوخا.. فلكي نُنمّي الوعي القومي لشعب ما ولكي نساهم في انطلاقة ثقافته الجديدة فإن أفضل وسيلة ليست بالضرورة استخدام تاريخه الحديث وإنما تاريخه القديم المنسي»[2].

---

(١) ن. م، ن. ص.

(٢) كلود كاهين، رسالة إلى رئيس تحرير مجلة ديوجان، م. س، ص٣٧.

وهكذا فإن المستشرقين، رغم كل الدعوات والمناشدات البائسة، ورغم التهديدات الإرهابية لم يتخلّوا عن دراساتهم التاريخية لسيرة محمد والخلفاء ولم يتركوا بحوثهم الفيلولوجية حول القرآن، بل واصلوا في شحذ تقنياتهم والكشف عن الأساطير المؤسسة لهذا الدين. المفارقة هي أن اصرار المستشرقين هذا وصمودهم البطولي في وجه الظلامية بدل أن يحوزا منه على شيء من التقدير والمؤازرة، فهما يُمثلان بالنسبة إليه (والإسلاميين عموماً)، مصدر قلق كبير، وسببا للإحباط والأسى. إذ أن أخطر ما يمكن أن يجابهه الإسلام هو أن تتواصل تلك الدراسات الفيلولوجية ويتوسّع نطاقها، وتتعممّ في المؤسسات التعليمية لكي تصل حتى جامعات العالم العربي. ولذلك فهو يستبق هذه الكارثة بتفضيل الاستشراق الحديث النّاعم المُسالم الوديع، الذي، حسب زعمه، نَفض عنه غُبار الأحكام المسبقة والعداءات اللاّمعقولة للإسلام، وشقَّ طريقه بصُعوبة بين أجَمة الادّعاءات الفاسدة، «**وقلّص طموحاته الشاملة لينحصر نحو دائرة علمية بحتة**». والنتيجة هي أن هذا الصنف من الاستشراق ربح «**في تنفيذ أعماله ما خسره في البريق السياسي الفلسفي**». وهذه خَسَارة، في رأي جعيّط، غير مأسوف عليها لأن عداوته ذاهبة إلى البريق الفلسفي السياسي الذي اتّسم به الاستشراق في أوج القرنين الثامن والتاسع عشر.

ليس جعيّط وحده هو الذي انتصب كمتنبّئ بالمصير المحتوم للاستشراق، ذلك أنه منذ نهاية القرن الماضي والدارسون العرب، مأخوذون بعقدة النقص أمام فتوحات المستشرقين وأمام معرفتهم الفيلولوجية المذهلة، بدل أن يزاحموهم في ميدانهم ويُبدعوا أعمالاً راقية، انكبّوا على الكهانة والعرافة. أغلبهم يُمنّون أنفسهم بنبوءات

مفادها أن الاستشراق في طريقه إلى الزوال. وهذه في الحقيقة كلها تنبؤات كاذبة وأمنيات خيالية ليست لها سند في الواقع. وقد توالت الاستشرافات والتكهنات يمينا وشمالا، سواء من طرف الإسلاميين أو من طرف العلمانيين المتأسلمين. الاستشراق أصبح في السنوات الأخيرة، يكتب حسين الخربوطلي، «يعيش في دائرة محدودة ضيّقة، بعد السيول الجارفة من أبحاث المستشرقين... وأصبح الاستشراق الآن يعيش في البيئات الأوروبية، بعد أن أغلق الشرق العربي أبوابه في وجه المستشرقين»[(١)]. لقد تمّت هذه العملية، حسب الخربوطلي، باستقلال الدول العربية سياسياً، وتحررها الفكري والحضاري، وبات العرب هكذا «ينظرون أحياناً نظرة شكّ أو حذر إلى أبحاث المستشرقين. ولذا بدأ انكماش الاستشراق، ورأى المستشرقون أن يبحثوا لهم عن مجال نشاط وميدان آخر، غير الميدان العربي»[(٢)]. لقد بارت تجارة الاستشراق في الأسواق العربية وبالتالي فإن مستقبله في هذه الربوع «محدود ومجالاته تنكمش، وقد أصبحت كفّة الباحثين العرب هي الراجحة الآن. وأصبح العرب في غير حاجة إلى فكر مستورد، وبات المستشرقون يجترّون جهودهم السالفة وانحصرت أبحاثهم الجديدة في دوائر محدّدة»[(٣)].

جعيّط لا يقلّ تفاؤلا عن هذا الكاتب، حيث أن آخر تكهّناته التي صرّح بها على شكل بِشَارة سَعيدة لقرّائه هي أن الاستشراق سيموت

---

(١) علي حسني الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨، ص٤٨.

(٢) المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص٥٠.

(٣) ن. م، ص٥١.

قريباً، وستتفتّت أوصاله بين شتّى قطاعات العلوم الإنسانية: «**منذ اليوم سيذوب «علم الشرق» في مختلف العلوم الإنسانية التي تكوّنه**»[1]. وعلى أنقاض جثة هذا الميّت، الذي تَجبّر وعَربد في يوم ما، ومارس الوصاية الفكرية على الشرق وقلل من شأن ثقافته ودينه، سيقوم العرب، ليس كل العرب بل «العرب ـ المسلمون» بالسيطرة على المناهج الحديثة في البحث، وهكذا سيفقد الاستشراق «**كل سبب للوجود**»، وسيبقى فقط مجرّد حلقة صغيرة في زمن مشؤوم من«**سلسلة المعرفة العالمية**»[2].

---

(١) هشام جعيّط، أوروبا والإسلام، م. س، ص٤٣.

(٢) ن. م، ص٤٤.

٦ ـ الاستشراق ميّت/حيّ

بعد هذا الهجوم الكاسح على الاستشراق والمستشرقين الغربيين، وبعد التّهم الخطيرة الموجهة ضدّه، وإثر التنبؤ القريب بموته، من المفروض أن يَتمسّك جعيط برأيه هذا ويذهب به إلى مداه الأقصى. كان عليه أن يصرّ على هذه البشارة وأن يواصل في استحثاث الهمم لكي يُقدِم الجيل الصاعد على انتاج دراسات جديدة موثقة وقيّمة تزاحم المستشرقين في ميدانهم وتفنّد نهائياً أطروحاتهم. لكن التناقض حاضر وبزخم كبير في موقفه هذا وفي مواقفه الشاملة، وعلى جميع الأصعدة. ولنتذكّر كيف أن في كتابه **الشخصية العربية** يدافع بكل حزم عن علمانية الدولة وفي نفس الوقت يتمسّك بفكرة أن الإسلام يجب أن يبقى دين الدولة(١).

إن تفسير هذه الكارثة المعرفية التي اخترقت تفكير جعيّط، ومَنطق التوتّر الثاوي وراء الازدواجية في الرأي والثنائية في المواقف، والفصل بين استشراق محمود واستشراق مذموم، ثم ضرب المحمود منه والمذموم، ثم التكهّن بموت الاستشراق في مستقبل قريب، هي

(١) بخصوص هذه المسألة، أحيل القارئ على كتابي: منطق المؤرخ. هشام جعيط: الدولة المدنية والصحوة الإسلامية، منشورات الجمل ـ بيروت ٢٠١٣.

إسلامويّة جعيّط وقناعاته الدينية التي أعرب عنها في مواضع عديدة من كتبه، والتي كنتُ قد اثبتُّها في كتابي «منطق المؤرخ». الاستشراق الغربي، يقول جعيط، «**كان لديه عدّة مفكرين كبار، لم يُعرَفوا، ظلما** (*injustement méconnus*)، في مجتمعهم، أمثال غولدزيهر، بيكر وفلهاوزن... وماسينيون، النبيّ والعالِم معا»[١]. كيف يقول أنهم لم يُعرَفوا في مجتمعهم؟ من أين استقى هذه المعلومة؟ أم أنها ترديد لما قاله أركون وصالح من أن المستشرقين نكرة في بلدانهم؟ إن اسم فيلهاوزن وحده ما زال يثير الرعب في قلوب المؤمنين (يهود، مسيحيين ومسلمين)، وبحوثه عن العهد القديم لازالت إلى اليوم مرجعاً لا غنى عنه لكل من يريد التعمّق في تاريخ اليهودية القديمة.

لكن هذا التمجيد لبعض المستشرقين، على اختلاله ولاتاريخيته، يفقد من مشروعيته إن مسّ هؤلاء العلماء القرآن وحاولوا نقده وتفكيك قاعدته الأسطورية. فعلاً، بعد شبه الانتصار الذي حققه على الاستشراق، بضرباته العشوائية، نكتشف أن كل ما قاله هو مجرد فذلكة أو دعابة بين أصدقاء في جلسة شاي بإحدى مقاهي الحارة، ذلك أنه مهما قيل فيه ومهما نُدِّد به فإن الاستشراق «**يبقى مشروعا كبيراً للفكر الغربي**»[٢]. إن «**الحضارة الغربية الاضطهادية والامبريالية**»، على حدّ قول جعيط أظهرت عن طريق الاستشراق «**مَقدرة على التفتّح على أبعاد**

(١) هشام جعيط، أوروبا والإسلام، م. س، ص٤٤.
"L'orientalisme occidental a eu quelques grand esprits, injustement méconnus par leur société: Goldziher par exemple, Becker, Wellhausen, un des plus grand historiens que l'Occident moderne ait produit, Massignon, à la fois prophète et savant...".

(٢) هشام جعيط، أوروبا والإسلام، م. س، ص٤٣.

الإنسانية كلّها، كما كان لها شرف وضع امبرياليتها موضع تساؤل»[1]. ومهما كانت حالة الاستشراق الذي يحتضر الآن فإن جعيط يقرّ بأنه «**كان ولا يزال جسراً أساسياً لنشر وتوطين مناهج العلم الحديث في الشرق»**[2].

أنتم تعتقدون أن النقّاد الغربيين لعمل إدوارد سعيد كانوا مجحفين في حقه أو أن انتقاداتهم تنمّ عن سوء نية أو عن عداء مستبطن لمفكر عربي فلسطيني يدافع عن أرضه وشعبه. ليس صحيحاً، لأننا لو قرأنا آراء جعيّط على عمل ادوارد سعيد للَمَسْنا قسوة تتخطّى الغربيين بما في ذلك برنارد لويس، أشرس أعداء سعيد، بألف مرة. لقد سفّهه وحكم على أعماله بالتفاهة، واتهمه بالهذيان أصلا؛ ولم يكتف بذلك، بل إنه مارس رياضته المفضلة: تحقير الشرق العربي برمّته والحطّ من قيمة علمائه ووصفهم بأوصاف نابية. قال، في حوار أجراه معه فيلسوف مغربي، نُشر في مجلة المستقبل العربي: «**لم يُضف كتاب سعيد شيئاً يُذكر لأنه لم يكن يعرف الدراسات الاستشراقية، وليس هذا اختصاصه، وكتابه كلّه مُفعَم بالإشارات إلى الأدب الإنكليزي ولا نرى فيه أيّة ابيتسمولوجيا نقدية لآثار غولدسيهر أو شاخت. انتقاداته وخياراته ذاتية، فهو مثلاً يريد أن يُحطّم فقرة كتبها برنارد لويس، ولويس عالم متوسّط الحجم موسوعي تعميمي وله خيارات صهيونية، فأهدى لنا قطعة تُمثّل حقّاً أحسن تمثيل هذيان مُرَكّب الاضطهاد وهي مضحكة لو لم تكن مأساوية. هذا الكتاب أخذ صدى عند المستشرقين الأمريكان ليس لشيء**

(١) ن. م، ن. ص.

(٢) ن. م، ص٤٤.

سوى أن مؤلفه أستاذ في جامعة أمريكية، وبالتالي فهو يُؤخذ بمأخذ الجدّ. وأخذ أكثر صدى عند المشارقة العرب لأن مؤلفه فلسطيني الأصل، وكأنّ الانتماء إلى هذا الوطن المقهور يكفي لجلب الإعجاب، وأخيراً فهؤلاء يستحبّون جَلْدَ المستشرقين حُبّاً في الجلد وليس في الحقيقة»[1].

سلّمنا جدلاً بأن سعيد فيه كل هذه النقائص، السؤال هو: كيف يمكن لجعيّط أن يدافع عن المستشرقين وأن يهاجم سعيد، وهو يتنبّأ بموت الاستشراق؟ كيف يمكن أن يموت مشروع فكري وصفه هو نفسه بأنه من أضخم المشاريع؟ كيف لها أن تلفظ أنفاسها حركة علمية بهذا القدر من الانفتاح على الأبعاد الإنسانية، نشرت ووطّنت مناهج العلم في الشرق؟ إنها خسارة كبرى، لنا وللغربيين، أن يسقط حصن من حصون العلم، لكي ينقضّ عليه الدين، ويحل محله الانغلاق والجهل.

ولكن جعيّط لا يتفطّن إلى تناقضاته ولا يراجع مواقفه، وكأنه يحلّل ويناقش ويكتب لنفسه. ليس لدى أي دارس عربي الحق في نقد الاستشراق إلاّ هو شخصياً، وهو أيضاً المُخوّل لإعادة تأهيل المستشرقين وتلميع صورتهم: «**لا معنى لانتقاد الاستشراق ما دام العرب لم يقوموا باستكشاف ماضيهم بأنفسهم باتخاذ المناهج المعترف بها**»[2]. هذا الموقف المتأرجح بين النفور والقبول، النقد والدفاع، نشهده مُطبّقاً

---

(١) الدكتور هشام جعيّط: الهوية تؤكد ذاتها.. ولا بد من غرس الحداثة فيها بقيمها العليا.. حاوره عبد الإله بلقزيز، المستقبل العربي السنة ٢٦، العدد ٢٩٤ أغسطس ٢٠٠٣، ص١٨ ـ ١٩.

(٢) هشام جعيّط، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٧، ص٩.

في حالة رينان الذي أصبح لقمة سائغة وموضوع قدح من طرف الإسلاميين والعلمانيين على حد سواء. فجعيّط، رغم الهجمة الكاسحة على صاحب «**حياة يسوع**»، يتّفق معه في كثير من النقاط المحورية، بل يبدي فرطاً في التحمّس لآراء رينان حول علاقة العلم بالدين، آراء في غاية الهرطقة، ويتبنّاها بقوّة رغم أنها تذهب ضد قناعاته الدينية الصريحة. فهو يقول بضمير الجمع «**نحن نتّفق مع رينان في الاعتقاد بأن أية نهضة ثقافية وعلمية لا يمكن لها أن تتمّ حول الإرث القديم من حيث أنه موجَّه للبحث الفكري بمناهجه الخاصة**»[١]. ويبدو وكأنه آخر علماني في العالم، حيث يُطَالِب بإلحاح بتحرير «**المجتمع والإنسان الإسلامي من السّيطرة الدينية**»[٢].

وبنفس العملية المتناقضة فهو يوجّه سهام نقده إلى غولدزيهر بعد أن أثنى عليه وثمّن أعماله، بل وعدّه في وقت سابق، على عكس رينان، من بين المستشرقين الجدّيين وأفكارهم تعكس «**نظرة حقيقية للإسلام**»[٣]. بخصوص هذه النقطة أودّ أن أفتح قوساً لكي أعرّج على مسألة منهجيّة محرجة جدّاً، تُبيّن مدى تساهل جعيّط، إن لم أقل استهتاره بشروط البحث العلمي وخروجه حتى عن أبسط قواعده. إنه من الغرابة بمكان أنّ في مَوضِعٍ كان من المفروض فيه أن يتأسّى ولو بشيء من خصال المستشرقين الجدّيين من حيث التعمق في النصوص والدقة في الاحالات والتثبت من الشواهد والرجوع إلى المصادر الأصلية،

---

(١) هشام جعيّط، أوروبا والإسلام، م. س، ص٣٨.
(٢) ن. م، ن. ص.
(٣) ن. م، ص٤٤.

أقول عوض أن يَتحلّى بهذه الخصال فإنه يَعرض أفكار غولدزيهر بخصوص الرسالة المحمدية، من خلال شذرة يتيمة، أو الاحتكام إلى كلمات اقتلعها من كتاب واردنبورغ: **الإسلام في مرآة الغرب.**

في الفصل الثاني من كتاب **أوروبا والإسلام** بعنوان «المثقفون الفرنسيون والإسلام» أخذ كمثال فولتير وفولني، لم يستشهد ولو بجملة واحدة من نصوص فولتير بل التجأ إلى مصدر ثانوي استغلّه حتى العظم وهو كتاب نورمان دانيال، **الإسلام والغرب** (Norman Daniel, Islam and the West). ومن فولني ذَكَر فقرة واحدة، ومنها بنى كل تهجّماته عليه، والنتيجة هي تهميش أفكار فولتير وفولني بخصوص الإسلام ونبيّ الإسلام. وأخطر من ذلك هضَمَ أعمال المستشرق الكبير، غولدزيهر، الذي أفنى عمره في دراسة الحضارة الإسلامية ونَفْضِ الغبار عن نصوص قديمة نادرة ودراستها وتحقيقها تحقيقاً علمياً، وسَبْر أغوارها بكفاءة علمية قلّ نظيرها.

أما الخلاصة التي استنتجها من أعمال غولدزيهر فهي مطابقة لما عابه على رينان، رغم التأكيد على أن غولدزيهر ينتمي إلى صنف المستشرقين الجديين، وهي أن «**التحليل النفسي للشخصية النبوية وتصنيف الإسلام كدين صراع**»[1]، هي أفكار، ينتفض جعيّط، كعادته «**كانت تُغذي الفكر الاستشراقي في النصف الأول من القرن العشرين**»، وبالتالي فهي لا تعمل إلاّ على تمديد «**النظرة القروسطية للإسلام، لأنها أساساً إشكالية دينية وتعطي مكاناً واسعاً للنبي**». علاوة على ذلك فإن هذه النظرة المعادية للإسلام بتقديمه كدين حربي لا تخرج من بوتقة

---

(١) ن. م، ص٤٥.

النظرة المسيحية من حيث استنادها أساساً «**إلى صورة المثال المسيحي**»[1].

ولكن هذه مغالطة بيوغرافية وتاريخية فاقِعة لأن غولدزيهر لم يكن مسيحياً، بل يهودياً مَجَرِيّاً يكتب بالألمانية، عاش زمن الامبراطورية النمساوية ـ المجريّة. وليس من مشمولات هذا المستشرق أن يُعلي من شأن المسيحية أو يَضع مؤسسها كمثال للسلام، في مقابل محمد كمثال للعدوانية والحرب. وبعد فهل أخطأ في اعتبار الإسلام دين حربيّ؟ ألا يتضمّن القرآن آيات عنيفة تحرّض على القتل والسبي والغنائم؟ ألا تروي سيرة ابن هشام بالتفصيل الاغتيالات والغزوات والحروب وأعمال القتل وجزّ الرؤوس والسبي التي قام بها محمد وأصحابه؟ على مَن اللوم؟ أتوجّه بسؤالي إلى جعيّط.

ولكن الرجل لا يعبأ بالنصوص وهو ماكث في موقعه لا يبرحه، ومُصِرّ على قناعاته، ساحبا عنوة غولدزيهر إلى الحلبة التي يروم فيها خوض الصراع بحرّية، لكي يتسنّى له ضرب المستشرقين جميعا: ساحة الدين. المستشرقون بتركيزهم على شخصية محمد المحاربة، يضعونه في تضارب مع المسيح الذي «**ابتعد في تبشيره عن وسائل النجاح السياسية، حتى أن مجده يقوم على خسارته. إن الكنيسة لم تُقِم امبراطورية، لقد مَسَحت الامبراطورية القائمة، وتسللت إليها كما الدودة إلى الثمرة**»[2]. انظروا إلى هذا التشبيه الجَارح: «الدودة في الثمرة»، ومعناه أن المسيحية حشرة طفيليّة تَنخرُ جسد الثمرة وتستغلّها. لو أن

---

(١) ن. م، ن. ص.

(٢) ن. م، ص٤٥.

مستشرقاً أقام تشبيهاً مماثلاً إزاء الإسلام لتعالت أصوات المسلمين بالتّنديد والشجب ولبحّت حناجرهم باللعنات والتكفير. لكن المسلمين، وهذه عادتهم منذ القديم، يسمحون لأنفسهم بكلّ حرّية بفعل ما يمنعونه على الآخرين، وهذا نابع من مركّب الاستعلاء الموجود في نصوصهم المؤسّسة، والذي يصل إلى حدّ العنصرية الفاضحة. فهُم لا يتوانون من إهانة الملل الأخرى واتهام الأديان التوحيدية بالكفر وأتباعها بأنهم حثالة من المَغضوب عليهم والضالّين، وتجريح كتبهم واعتبارها محرّفة أو ووصفها بصفات نابية فظيعة، حتّى أن إخوان مصر المبرّزين في هذا النوع من التجريح، يصفون كتاب المسيحيين بالكتاب المكدّس.

لكن تاريخياً وعقائدياً، المسيحية والإسلام، لم يكونا ديني سلام لأنهما رضعا العنف من العهد القديم وتعلّما القتل من حروب يهوه الدموية. وقد تطرّقتُ إلى هذه المسألة في كتابي *تحقيق ما للإلحاد من مقولة*، ومَن كان يرغب في المزيد فعليه بهذا الكتاب[١].

وتتوالى الاتهامات للاستشراق، وتتصاعد وتتقوّى ضربات جعيّط ضدّه: هذه المرة الاعتراض يتمثّل في اعطاء المستشرقين لأنفسهم الحق في إطلاق أحكام قيمية على موضوع دراستهم، وهو اجراء لاعلمي بل مِعياري أخلاقي، خارج عن نطاق البحث الجدّي الدقيق. الاستشراق تطغى عليه روح الريبية على عكس التاريخ الذي يحاول أن يفهم فقط «**ولا يضع موضع شك أسس المجتمع الذي يدرسه**»[٢]. بيد أن

(١) محمد المزوغي، تحقيق ما للإلحاد من مقولة، منشورات الجمل، بيروت ٢٠١٤.
(٢) هشام جعيط، أوروبا والإسلام، م. س، ص٤٧.

الاستشراق بعمومه ودون استثناء، جعيط يقول ذلك «**يعطي نفسه حق الحكم، بل وحتى الاتهام والرفض**».

كل ما قرأناه من قبل عن عظمة الاستشراق واسهاماته الفعّالة في نشر روح العلم وخروجه من التقوقع الغربي وما إلى ذلك من الصفات الجميلة تُختزل إلى الصفر. فعلاً الشكوك والأحكام التي يطلقها الاستشراق تُظهر بوضوح أن هذه الميزة «**نابعة من موقفه الضعيف في نشاطه الاتّصالي وهو المُتَموضع بصعوبة في هذه الرقعة من الغيريّة حيث يخرج عن مركزه قلب ثقافة ما، وحيث تنبع رؤية خارجية للموضوع، وأخيراً حيث تبتعد المعرفة عن المسؤولية كما عن الوجود**»[(١)]. في النهاية الاستشراق استنفذ موارده وتوقّفت دورته التاريخية التي تواصلت لمدّة قرن «**وأظهر نفسه عاجزاً عن تجاوز معطيات مجتمعه وعصره**»[(٢)].

إن الغرب، بِعُلَمَائه وثقافته وحضارته ومُجمل ابداعاته العلمية والفلسفية (ما عدا التّقنية طبعاً)، مرفوض مبدئياً من طرف جعيّط، ولا يُقبل إلاّ إذا أنكر ذاته تماماً وتاب واحترم الإسلام، أو حاباه أو انخرط فيه، أو دافع عنه. وإن وَجَد بصيصاً ممّا يرغب فيه فهو يستغلّه لصالحه ويقوم بتقسيم هذا الغرب الهُلامي إلى قسمين: قِسْم إسلامي وقِسم كافر، لقد وجد ضالّته أخيراً في العالم الانجلوسكسوني (الألمان والإنجليز) واكتشف فيه خِصالا حميدة غائبة عن أقوام أوروبيّة أخرى، فتبدّلت نظرته الانثروبولوجية واتّجه تفضيله نحو هذا العالم الأكثر حبا

(١) ن. م، ن. ص.

(٢) ن. م، ن. ص.

وتفهما للإسلام، بخلاف العالم اللاتيني (فرنسا وإيطاليا). هذه الاستنتاجات الاعتباطية المتسرّعة يَطرحها جعيط أمام القارئ وكأنها حقائق سوسيولوجية مَبنيّة على إحصائيات دقيقة وبحوث ميدانيّة مُدعّمة بالأرقام: «**إن شعوب الشمال ـ بما فيها الانكلوسكسونية ـ كانت تنجذب إلى الإسلام أكثر من الشعوب اللاتينية؛ وإذا كان شخص مثل لورنس يصعب تصوّر وجوده في فرنسا فهو مستحيل في إيطاليا**»[١]. لا يجب أن أذكّر جعيّط أن لورانس العرب هو برنارد هنري ليفي القرن التاسع عشر، وأنه عرّاب الثورات العربية التي بموجبها قُسمت الامبراطورية العثمانية إلى دويلات، والآن يُعاد تقسيمها إلى إمارات إسلاموية يحكمها أمراء حرب نصّبتهم على رقابنا الغرب وإسرائيل. إن السبب في تعاطف الألمان مع الإسلام يُرجعه جعيط إلى أسباب جيوسياسية أي إلى «**بُعدهم عن الإسلام، وإلى كونهم غير مصارعين ولا منافسين له على أرضه، قد احترموه، وحصل أن بعضا منهم قد اعتنقه في حركة انتساب فردية. وعلى العكس من ذلك فإن النمط العربي المسلم التقليدي قد أُعجب بألمانيا وانكلترا أكثر من فرنسا**»[٢]. لكنه هنا أيضاً أخطأ خطأ فادحاً، وهوى في الخطابة الأكثر رجعيّة، لأن الاستشراق الألماني لا يختلف في شيء عن الاستشراق الفرنسي والايطالي والإنجليزي، وأن هذه الصورة التي رسمها له هي صورة وهمية لا توجد إلاّ في مخيّلته[٣].

---

(١) ن. م، ص٥٨.

(٢) ن. م، ص٥٨.

(٣) بخصوص الاستشراق الألماني، انظر:

النتيجة النهائية التي يمكن استخلاصها من تحاليل جعيّط هي أن خطابه لا يَخرج عن خطابات كبار المتعصبين الإسلاميين: كل مَن يُمجّد الإسلام ويُعلي من شأنه ويَنخرط فيه هو جيّد ومقبول، وكل من يدرسه دراسة فيلولوجية موضوعية فهو شرّير وحاقد على الإسلام.

T. KONTJE, *German Orientalism*, The University of Michigan Press, USA 2004.
U. WOKOECK, *German Orientalism. The study of the Middle East and Islam from 1800 to 1945*, Routledge, London and New Work 2009
J. JENKIS, "German Orientalism: Introduction" in *Comparative Studies of South Asia, Africa and Middle East*, 24: 2 (2004) pp. 97-180.

٧ ـ جاك بارك:
مستشرق متوحّد شاذ عن القاعدة

أفضل المستشرقين وأحسنهم وأجملهم على وجه الأرض هم الذين لم يتطرّقوا إلى سيرة محمد أو إلى مصادر القرآن ونأوا بأنفسهم عن الدخول في تمحيصات فيلولوجية للنصوص المؤسسة. ويتألّق من بين هذه الكوكبة من المستشرقين السيد جاك بارك. وإزاءه لم يدّخر جعيّط أي نوع من أنواع الاطراء والتمجيد: مجهودات جاك بارك «تستحق الإعجاب. وتبرهن عن عقل كبير وعمل ضخم. الرجل أنتج الكثير ومجالات اهتماماته قد اتسعت لتشمل من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق... إنه عمل رائع ومجدد أيضاً للفكر الاستشراقي»[1]. وأين يكمن تجديده؟ في تفادي النقاط الحارقة: سيرة محمد ومصادر القرآن: «يمكن أن يُقال بأن بارك تجاوز دائرة الحقل الاستشراقي الكلاسيكي. لم يعد إلى العصور الكلاسيكية إلاّ قليلا، كما فعل المستشرقون القدامى، وإنما اتجه إمّا إلى الفترة المعاصرة تماماً كالمرحلة التي سبقت الاستعمار أو تَلته، وإمّا درس فترات تندرج زمنياً ضمن الحداثة، ولم

---

(١) حوار مع هشام جعيط، أجراه: صلاح الدين الجورشي مجلة «حقائق» عدد ٥٠٧ من ١٤ إلى ٢٠ جويلية ١٩٩٥، ص١٠.

يتوقف إلا نادرا، عند فترات الإسلام الأوّل أو ما بعده، مثلما فعل بعض أقطاب المستشرقين كغولدزيهر وشاخت وغيرهما»[١].

أعمال جاك بارك جليلة وراقية، تستحق كل التقدير، وهذا ليس رأيه هو فقط وإنما رأي سائد في جميع الأوساط «اعترف له بذلك الكثير من العرب والباحثين في أوروبا وأمريكا»[٢]، وبالجملة جاك بارك هو «عقل كبير من عقول فرنسا الحالية في آخر هذا القرن العشرين»[٣].

كل انتقادات جعيّط على الاستشراق لا تمس جاك بارك من قريب أو بعيد، وبعد فهو ليس بمستشرق، وإنما انثربولوجي وسوسيولوجي، لأن الاستشراق هو الطاعون «**لا يمكن تصنيف بارك ضمن المستشرقين العاديين المعروفين**، سواء أولئك الذين أفرزتهم مرحلة القرن التاسع عشر أو الأقرب منهم إلى منتصف القرن العشرين، وبالتالي لا ينسحب عليه هذا النقد الذي وجّهناه للمستشرقين». وكيف ينسحب عليه لقب مستشرق وهو لم يتطرّق إلى مقدسات جعيّط: محمد والقرآن؟ جاك بارك هو صديق المسلمين ومتعاطف مع العرب، ولم يخدش احساسهم في أي شيء يمس مقدساتهم. لكن المستشرقين الجدّيين الذين نزلوا معمعة النقد التاريخي الفيلولوجي، هم الشياطين «لكونهم أصحاب نظرة سلبية تجاه الإسلام والعرب، وفي الأغلب وقوعهم في التّسلسليّة، أي اسناد هذا عن ذاك ودائماً في نفس الاطار الحضاري الديني»[٤].

---

(١) حوار مع جعيّط، م. س، ص١٠.
(٢) ن. م، ن. ص.
(٣) ن. م، ص١١.
(٤) ن. م، ن. ص.

التسلسلية، هي عملية ربط الإسلام بالأديان السابقة، خصوصاً باليهودية التلمودية والمسيحية المتأخرة، وبعضا من الزرادشتية وخرافات الشرق الأوسط، لكن هذه في جدلية جعيط (والإسلاميين عموماً) هي أخطر عملية يقوم بها الاستشراق، لأن الإسلام في قناعته هو دين لا سابق له ولا لاحق. إن ربط الإسلام بالأديان الأخرى، يعني السير ضد ما دوّنته المصادر الإسلامية لأنها ليست موضوعية وغالبا ما تزوّر أو تُحرّف التواريخ والأحداث، ولذلك فإن المستشرقين لا يثقون بتلك المصادر التي دُوّن البعض منها بعد الأحداث بقرنين أو ثلاثة، وهو أمر ناشز غريب في تدوين التاريخ. لكن بالنسبة لجعيّط، مرة أخرى، هذه العملية خطيرة جدّاً على تماسك دينه الإسلامي الذي هو المُوجّه لوجوده وفكره وأمانيه، وبالتالي وجب رفض نقدهم للمصادر: «**من مأخذنا عليهم الاجحاف في نقد المصادر. فهم على سبيل المثال لا يزالون إلى حد الآن يعتبرون بأنه لا يمكن كتابة القرن الأوّل من الإسلام**». هذا غير صحيح، لقد خصّص المستشرق الإيطالي **ليون كايتاني** (Leone Caetani) ٢٣ مجلّداً ضخماً لدراسة القرن الأول من الإسلام، وأخرج عملاً جباراً بكل المقاييس، مَعْلماً شامخاً لم يفقد من أهميته إلى اليوم. جعيط يخلط المعطيات أو يختزلها، ومعلوماته حينما يرغب في ذلك يُدققها ولكن حينما يريد أن يسفسط فهو يرمي بها للقارئ دون تحقيق أو تثبّت.

إذن السيد هشام جعيّط يريد أن يعترض على المستشرقين ويُنفّر القراء العرب منهم، عن طريق نشر معلومات غير صحيحة بخصوص مصادر الإسلام الأولى وكيفية التعامل معها، وفحص مدى مصداقيتها عن طريق المنهج الفيلولوجي الصارم. والمستشرقون واعون بالإشكالات

التي تطرحها المدوّنات القديمة، وهي لا تمس الدين الإسلامي فقط وإنما تخترق كل الأديان، ورغم العوائق العقائدية، فإنهم اقتحموا المصاعب وحاولوا اعطاء صورة مُعقلنة وقريبة من الواقع، لظهور الإسلام. معلومة أخرى خاطئة هي زعمه بأن المستشرقين يبالغون في انتقاد المصادر بحجّة أنها «متأخّرة قليلاً عن فترة الإسلام الأول... ويريدون بهذا تقليد المنهجية الأوروبية، وهو تقليد غير وجيه، وفي غير محلّه». هذا أيضاً غير صحيح لأن ما يقوم به المستشرقون ليس تقليداً أعمى وإنما بحث معمّق وتدقيق بحسب قواعد صارمة، والمنهجية العلمية في حد ذاتها متعالية على الزمان والمكان ولا تخص أوروبا فقط أو تنطبق على اليهودية والمسيحية دون سواهما، وإنما كل دين، وكل نبيّ وكل كتاب «مقدّس».

لكن أن يقول جعيّط بأن المنهجية الأوروبية، يعني منهجية التاريخ النقدي والفيلولوجيا، هي غير وجيهة أو أنها تُستعمل في غير محلّها، فهذا صدّ عن الفكر النقدي ومحاولة يائسة لوقاية الإسلام من كل مقاربة نقدية. إن تلهّف جعيّط على اقصاء المستشرقين الكلاسيكيين جعلته يغرق في التعميمات ويقدّم معلومات مغلوطة، ويتخبّط في آرائه، دون أن يقف عند تبرير واحد يُعتدّ به. فكتابةُ التاريخ الإسلامي الأول، التي أثار حولها زوبعة بادّعائه أن المستشرقين ينقدون بإجحاف المصادر، ثم يقول إنهم يعتبرون كتابة تاريخ إسلام القرن الأول غير ممكنة، يُرجعها إلى تخاذل في التطبيق. ذلك أن المسألة حسب رأيه لا تكمن في المصادر «**وإنما هناك منهجية يجب اتّباعها ولم يستطيعوا تطبيقها**»[1]. إنه

---

(١) ن. م، ص١١.

كلام غريب، لا واقعي وفي غاية التخبّط والتناقض، مغالطات وسفسطة. فعلاً، أليس الغرب هو الذي ابتدع المنهجية الفيلولوجية؟ ألم يتمّ تطبيقها بنجاح على العهد القديم والعهد الجديد؟ أليس التاريخ النقدي والتحرّي من صحّة الأخبار وتمحيص الأحداث، والرجوع إلى مصادر داخلية وخارجية ابتُدع في الغرب؟ كيف يُذكّر المستشرقين الغربيّين بوجود منهجية هم الذين ابتعودها؟ ثم كيف يعيب عليهم عدم تطبيقها في الوقت الذي لم يكفّ هؤلاء العلماء عن تطبيقها في كل دراساتهم؟ وأخيراً كيف يعدّ برنارد لويس، أجير المخابرات الأنجليو ـ أمريكية، «مستشرقاً كبيراً»[1].

لن يولَدَ رجل مثل جاك بارك أو يخلّف تلاميذ من طرازه، فهو «**فريد من نوعه**»؛ ابتدع شكلا جديداً من الاستشراق «**بتماشى مع الدول العربية**»، تصوّروا هذا الخور: استشراق على مقاس الدول العربية. لكن الاستشراق كحركة فكرية، مات. ما هي الأسباب؟ عديدة: الاستشراق مات موتا رحيما في البداية بموت بعض رجالاته أو أغلبهم «الذين كان لهم تضلّع ولا شك بمعرفة المصادر وغير ذلك، هؤلاء اندثروا أو في طريق الاندثار بعد أن شاخوا مثل شاخت وبرنار لويس الذي، بقطع النظر عن مواقفه السياسية، يمكن أن يُعتبر مستشرقاً كبيراً»[2].

هذا هو الموت الرحيم الذي لَقِيه الاستشراق، لأن الزمن هو الذي تكفّل بقتل أساطينه. أما الموت العنيف فأسبابه عديدة، منها العامل السياسي حيث أن الغرب «لم يعد العنصر الوحيد المهيمن على الكرة

(١) ن. م، ن. ص.
(٢) ن. م، ص١١.

الأرضية، ولم تعد للغربيّين مستعمرات يطلّون عليها من فوق ويدرسونها ويشرحونها»[1]. المؤكد هو أن «هناك علاقة وطيدة بين الاستشراق والاستعمار»، هذه الفكرة قالها عبد الملك، رددها أركون، رسّخها ادوارد سعيد، وأكّدها مجدداً هاشم صالح، والإسلاميون على بكرة أبيهم، جعلوا منها كليشيهات تستهلك في كتاباتهم الضحلة. والكل علمانيون وإسلاميون مُجمعون عليها، دون أن يقدّموا براهين مقنعة، ودون الغوص في نصوص المستشرقين بجدّية. جعيّط ليس له أي شكّ في أن «**الاستشراق القديم كانت له أصول مرتبطة ولا شكّ بالامبريالية**».

ثمة أيضاً عامل آخر ساهم في موت الاستشراق، وهو أن الإسلام أصبح محل اهتمام من طرف الرأي العام الغربي سواء من غير المتعلمين أو المثقفين، وهكذا ضعف المستوى خصوصاً بعد أن تراجعت الدراسات التاريخية الفلسفية وحلّت محلها العلوم الاجتماعية والسياسية «بعيدة عن كل عمق وعن التفكير القديم الذي اضمحلّ بمختلف اتجاهاته التاريخية والفلسفية»[2]. انتاجات هذا الاستشراق الجديد كثيرة، ولكن على الرغم من كثرتها فهي «مُفعمة بالعدمية والسطحية، وأكثر من هذا، يتكلمون عن العرب ولا يعرفون العربية، ويتحدّثون عن الإسلام وهم يجهلون تاريخه وقواعده. فهي موجّهة لجمهور معيّن أو مؤدلجة في هذا الاتجاه أو ذاك، أو تلبية لرغبة الحكومات في خلق مراكز للسيطرة على هذه البلدان»[3].

---

(١) ن. م، ص١٦.
(٢) ن. م، ص١٦.
(٣) ن. م، ص١١.

جعيّط مُنخرط إيديولوجيا في معارضة الاستشراق، ومواكب لهذه المسيرة، وهو نفسه يعلمنا بذلك: «وقعتْ حملة على الاستشراق منذ الستينات والسبعينات، وتمّ العمل على تحرير التاريخ والفكر وغير ذلك من آثار الاستشراق وسُبُله المُلتوية وتَحامله على العروبة والإسلام. وصارت هذه الحملة من أهم التيارات الثقافية في الفكر العربي المعاصر طيلة حوالي ربع قرن تقريبا»[١]. ماذا كانت نتيجة هذه الحَملة؟ الإرهاب أو بالأحرى بث الرّعب في قلوب المستشرقين وجعلهم يتفكّرون ألف مرة قبل الإقدام على دراسة الإسلام: «**وفعلاً كان لهذه الحملة أثَرها، حيث أصبح كل من يهتمّ حالياً في الغرب بالعالم العربي والعالم الإسلامي صار يحترز في تحليلاته**»[٢]. وهذا أفهمه على أنه ابتزاز وتهديد للمستشرقين ولَجْمِهم عن التعبير عن رأيهم، وهكذا نجح العرب في مَسعاهم الترهيبي، وهو ما نراه الآن عند العديد من الدارسين الغربيين. إن المستشرقين المهدّدين لا يحظون من طرف جعيّط بأي تآزر، إذ لا يكفيه ترهيبهم وإسكاتهم، كما يفعل الإسلاميون، بل يريد أن يقضي عليهم تماماً، وحينما يقف في العقبة ولا يستطيع إبادتهم فهو يتحسّر، لأن الشبح المرعب عاد من جديد، أعني شبح توجيه النظر إلى الإسلام الأول، إلى حياة محمد والقرآن: «**بالرغم من هذا تمادى ما أسمّيه بالاستشراق الجديد في هجومه، وأقصد ذلك المنحى في الكتابة عن الفترات الكبرى من التاريخ الإسلامي**»[٣]. هذا الاستشراق، لم يتّعظ

---

(١) ن. م، ص١٢.

(٢) ن. م، ص١٢.

(٣) ن. م، ص١٢.

بما حدث في السابق ولم يستوعب الدرس القاسي، هذا الاستشراق له طابع علمي دون أن يتساوى مع القديم «**لكنه أكثر ضراوة من الاستشراق القديم، وهذا التيار تمثله باتريسيا كرون وأصحابها**». وعلى هذه المجموعة، جعيط يعطينا معلومات خاطئة ومزيفة كعادته: «**هم من الإنجليز الذين ارتحلوا إلى أمريكا واستقروا فيها**». معلومة خاطئة، لأن كرونه هي دانماركية وليست إنجليزية، على أية حال هؤلاء المستشرقين الجدد، تميّزوا، حسب جعيّط، باتخاذهم «**مذاهب مجحفة من التشكيك وسوء النية.** ويكفي هنا أن يحصل الاستشهاد بالعديد من المصادر القديمة والمراجع، وانتهوا إلى أمور مضحكة مثل أن مكّة لم تكن موجودة في مكانها الحالي وإنما كانت في فلسطين، وأن محمداً لم يوجد في قريش ولعلّه وُجد في مكان ما وسط الجزيرة!! أو أن التسمية التي اتّخذها أبو بكر «خليفة رسول الله»، ليست صحيحة، وإنما هو «خليفة الله»، وهذه التسمية تعني شخصاً مثل أبي بكر لم يُوجد تماماً في التاريخ! وأن القرآن لم تحصل صياغته إلاّ مؤخراً في القرن الثاني للهجرة بعد حصول تغييرات متعددة! وهي كتب جديدة ومكتوبة بكثير من الدقة»[1]. ورغم أنها مكتوبة بكثير من الدقة، كما يشهد هو نفسه، فهي بالنسبة إليه مدعاة للتعجّب، إن لم تكن مثيرة للضحك. جعيّط لا يتزحزح عن موقفه الرافض، بل المعادي والاحتقاري لأعمال باتريسيا كرون لأنها، حسب زعمه، «قامت بتفلسف زائف حول الشرق القديم ومجيء الإسلام في كتابها **هاغاريسم**، وليس هذا من العلم في شيء ولا

---

(١) ن. م، ص١٢.

من الفكر المُتّزن العميق، بل هو من ضرب العلم القصصي أو الخيالي بمعنى الـ«فيكسيون»»[١].

وكيف لا يكون الأمر كذلك؟ وكيف لا تكون ردّة فعله احتقارية إزاء من تشككت في مسلماته العقدية اللاتاريخية وداست على مقدساته الأسطورية: أن تُشكّك كرون في وجود مكّة، قدس الأقداس، فإن تاريخ جعيّط كله ينهار، وأعماله السابقة واللاحقة تذهب هباء منثورا. في كتابه **الكوفة** يتحدّث عن مكة القرن السادس ميلادي، يصفها وكأنه يراها أمامه، أو لديه خريطة جغرافية مفصلة تعود إلى القرون الغابرة: «كانت مكّة «أم القرى» ويعني ذلك حرفياً أم المدن. وقد سُمّيت يثرب كذلك أم القرى الملتصقة بها، ويدلّ هذا المفهوم على المركزية والتفوّق»[٢]. أين أدلّته الأثرية؟ أين الشهادات التاريخية قبل الإسلام؟ لقد دوّن لنا المؤرخون والرحالة اليونانيون والرومان كل صغيرة وكبيرة عن العالم المعروف، ووصفوا بلاد العرب واليمن السعيد، ووصلوا إلى الهند وأفغانستان وتخوم الصين، ولم يذكروا أم القرى المزعومة، هذه المدينة العظيمة المزدهرة في قلب الصحراء. لا شيء لديه إلاّ تخاريف كتّاب مؤمنين حتى النخاع، ومتأخرين بقرنين أو ثلاثة عن الأحداث، وبارعين فقط في صناعة الأساطير. وعلى الرغم من كل الغموض والأسطرة المحيطة بهذا المكان، الذي ربما لم يوجد في التاريخ أو اصطُنع

(١) الدكتور هشام جعيّط: الهوية تؤكد ذاتها.. ولا بد من غرس الحداثة فيها بقيمها العليا.. حاوره عبد الإله بلقزيز، المستقبل العربي السنة ٢٦، العدد ٢٩٤ أغسطس ٢٠٠٣، ص١٦.

(٢) هشام جعيط، الكوفة، ص٢٦٦.

اصطناعا في وقت متأخر، فإن جعيط يتمادى في رسم ليس فقط موضعها، بل أيضاً اكتشف لها شخصيّته خاصة ومميزة: «هناك عدّة خاصيّات ترسم فوراً شخصية مكة. إنها حرم أو بالأحرى هي تقع في حرم. وهي مقرّ للكعبة. وتتم شعائر الحج المقدس حولها لا بداخلها.. وهي مكّيّة صرف ومُركّزة على الكعبة. هذا اتجاه ديني مميّز ومؤثر، ولا شك أنه يسبق البقية ويسيطر عليها، أي الإقامة الدينية والنشاط التجاري. والملاحظ أن مكة بصفتها مدينة، أنشأت حقّاً أو تشكلت مع بروز دور القرشيين وبفضل ما قام به قصيّ من عمل.. إن قريشاً بصفتها مجموعة بشرية شديدة التماسك، وكشخص جماعي تمثل روح هذه المدينة.. فإذا كان الحرم الفضاء المقدس الواسع ـ ٧٠ كلمتراً في ٢٠ كلمتراً في أقصى امتداد له ـ هو الذي يسيطر على المجموع ويحيط به، فإن مكة بالذات تمثل فضاء مدينياً مادياً متميّزاً بيتها الخاص بها أي الكعبة. وقد منحت قريش لمكة الشخصية المعنوية، فجعلت منها مدينة بالمعنى المؤسسي، ذات هوية متميزة بقوة فائقة»[1].

كلام خطّي لا نُتوءات فيه ولا تمحيص ولا نقَد. اقرؤوا أي كتاب إسلامي، فلن تجدوا إلاّ ما قاله جعيّط، ولكن افتحوا هيرودوت أو بوليبيوس أو مؤرخي الكنيسة أو شهادات النسّاك وآباء الكنيسة السابقين عن الإسلام فلن تجدوا كلمة واحدة عن معبد في قلب الصحراء وعن مدينة اسمها أمّ القرى. إن ما يكتبه جعيّط عن مكة ليس هو بالأمر الفائق أو الجديد الباهر وإنما خطابة دينية تُلقّن للأطفال في المساجد وفي المدارس القرآنية، ويمكن لأي متعلّم في الأقسام الابتدائية أن يحفظه

---

(١) الكوفة، ص٢٦٧.

عن ظهر قلب، وهذا يترجم عن قناعات دينية مترسّبة وليس بحثاً تاريخياً استقصائياً مُعمّقاً. لكن أوصافه لمكة وحماسته المفرطة، وشدة خياله لهذا المكان الأسطوري جاءت باتريسيا كرون فأسقطتها كلها في الماء ولذلك فإن ردة فعله الغضوبة المتشنّجة كانت متوقعة جدّاً. أن يؤكد أحدهم، دون براهين تاريخية ثابتة أو آثار أركيولوجية بيّنة، أن مكة كانت حقّاً المدينة العربية بامتياز وأنها مهد الإسلام ونواة النخبة المقبلة، وأنها «المدينة الاستثنائية التي لا تدانى» والتي جعل منها التاريخ اللاحق «نموذجاً إلهياً يعود إلى الزمن الكوسمي»[1]، ثم تأتي مستشرقة دانماركية وتُفسد عليه وليمته، تدمّر قناعاته وتكذّبها عن طريق نصوص تاريخية خارجة عن تواريخ المسلمين، فهذا قمّة الخيبة والاحباط.

يجب الاحتماء بشيء آخر وطلب النّصرة من مستشرقين من طينة أخرى، وقد جاءه الخلاص هذه المرة من فرنسا، من مستشرق فرنسي، اسمه جاك بارك، الذي صحح هذه النظرة المجحفة للإنجليزيين، كما جاء من قبله الألماني فيلهاوزن ورمّم ما قد هدمه الفرنسيون: «وهنا يأتي شخص مثل جاك بارك في قراءته للقرآن ليقول إن هذه المذاهب قد أجحفت كثيراً في نقدها ومغالاتها وهي غير مقبولة عقلياً»[2]. أخوف ما يخافه جعيّط هو أن يفتتن الشباب العربي بهذه الأطروحات، أو يتقبلوا نتائج بحوث كرون كما لو أنها تعكس الواقع، فهي كاتبة ذكية جدّاً، يقول جعيّط، ونظراً لذكائها المفرط، فهي مخولة لأن تعبث بعقول

---

(١) ن. م، ص٢٦٨.

(٢) حوار مع هشام جعيط، أجراه: صلاح الدين الجورشي مجلة «حقائق»، م. س، ص١٢.

الطلبة: «لكني شخصياً أخشى على الكثير من طلبتنا العارفين والمختصين من شغفهم بشخصية مثل باتريسيا كرون، فهي ذكية جدّاً»[1]. أمّا هو، فهو مُحصّن من هذا الافتتان، وهو يستطيع أن يدمّرها في لمح البصر، لكن، كما هي الحال بالنسبة لهاشم صالح، الذي هدّد بتدمير المتعصبين المسلمين، ولكنه لا يملك الوقت لفعل ذلك، فإن جعيط أيضاً ليس لديه الوقت لإضاعته في هذا العمل التافه: «**لو أراد الباحث العارف مثلي أن ينسف تماماً نظريتها لكان ذلك بسهولة كبرى. وإنما أعتقد أن هذا سيكون مضيعة للوقت**». وفي الأثناء يواصل المستشرقون في القيام بأعمالهم دون الاهتمام بهوس المسلمين. لقد أجرى هذا الحوار منذ عشرين سنة، ولم يحقق ولو نزراً قليلاً من تهديده هذا، وواصلت المدرسة الاستشراقية الإنجليزية في انتاج مؤلفات وبحوث بهذه المنهجية، وانضم إليها باحثون من أقطار أوروبية أخرى، وحازت هذه المدرسة على شهرة عالمية، وما زال العالم العربي لم ينتج عملاً مرموقاً يُزاحمهم أو يُفنّد أعمالهم.

---

(١) ن. م، ص١٢.

٨ ـ خليط مشوّش:
عداء للعلم واحتقار للمستشرقين

أظن أن شيئاً من الإقدام لازم في ميدان العلم، لا التهوّر وسبّ العلماء أو قذفهم بالجهل والغطرسة كما يفعل جعيط وأركون وهاشم صالح، أو شتائم الإسلاميين المُبرّزين في البذاءة، وإنما أقصد بالإقدام التخلّص من سطوة المقدّس والذهاب بالاستنتاجات إلى مداها الأقصى حتى وإن صدمت المؤمنين. لكن ما نشاهده عند جعيط هو بسالة فعلية، لا لمنازلة الأساطير الدينية ولكن في اتجاه تجريح المستشرقين والحط من أعمالهم. إنّ السّماح للنفس بالتهجّم على المستشرقين واستعمال كلمات نابية في حقّهم، مقابل الحذر الشديد والتصاغر أمام المؤمنين، وتطمينهم مسبقاً بأنه لا ينوي المسّ من معتقداتهم، هو حقّاً أمر يدعو لليأس. وتتراءى هذه اللعبة من خلال كتابه عن سيرة محمد في مكة حين يُبرئ ساحته أمام المؤمنين قائلاً: «**يجب على القارئ أن يقتنع بأن هدفنا ليس المسّ بالمقدسات الإسلامية ولا بالذات النبوية، وليس إقامة أحكام تقريظية ولا سلبية بالمثل**»[1].

---

(١) هشام جعيّط، في السيرة النبوية. تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، دار الطليعة ـ بيروت، ٢٠٠٧، ص٦.

لكن هنا تكمن مغالطة من السّهل الكشف عنها بإلقاء نظرة بسيطة على أعماله الأخيرة. فالقسم الأول من تصريحه صحيح، إذ أنه فعلاً لم يمسس من المقدسات الإسلامية بتاتاً، والذات النبويّة، كما يسميها، بالغ في الثناء عليها وتقديسها إلى حدّ التأليه. أما القسم الثاني فهو كاذب لأن الأحكام التقريظية للإسلام ونبيّه حاضرة وبكثافة في نصوص جعيّط، وللتّدليل على ذلك أكتفي بمقطع واحد، كتبه في الثمانينات من القرن الماضي، يلخّص موقفه الثابت في هذه المسألة. وهذا المقطع اجتمع فيه التقريظان حتى ولو بدا للوهلة الأولى وكأنه وصف لتصوّرات وانطباعات تاريخية، لكن اللهجة الوعظيّة التي اتخذها والأسلوب الخطابي الإسلاموي تفضح المنحى التقريظي من كلامه: «**إن ظهور الرسالة هو أكبر عنصر تاريخي في الإسلام. إن الإيمان الذي هو ثقة يصبح من خلال ذلك ثقة في الرسول. وهو نفسه ليس بالإنسان الزمني وحسب، المولود بمكّة حوالي ٥٧٠ والمتوفى بالمدينة سنة ٦٣٢. بل أصبح ما أرادته أجيال من المسلمين أن يكون، أي كتلة هائلة من المثل والحبّ والوفاء. إنه يزن بوزن كلّ تلك الدّموع والاندفاعات. وقد نادى باسمه كثير ممّن كانوا في النزع الأخير من كائنات بشرية بسيطة طيبة ذكروه وهم على شفة الموت. إن التاريخ يثقل بكلّ وزن البشري وبكلّ قيمته، شخص الرّسول وكلامه. لقد كان الدين روح العالم والإسلام روح الأمّة الإسلامية، وهو ما زال قوّة حيّة ملموسة ملتصقة حميما بالمجتمع الإسلامي تخترقه من طرف إلى آخر**»[(١)].

العالم المحقق لا يعترف بالمقدّسات أيٍّ كانت ومن أي جهة أتت

---

(١) هشام جعيط، الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي، ص١٢٢

لأنها تطفئ نور العقل وتقود إلى الجنون، والذين يروّجون لها لا يَكنّون أي احترام لعقول البشر وبالتالي فإن الباحث الجدّي الذي يحترم عقله، لا يجد أيّ حرج في المَسّ منها وتقشيع هالة الخوف والجهالة على عقول الناس. لكن مع جعيّط علينا أن ننسى كلّ هذا، وأن نواصل في ما نحن عليه منذ قرون. لقد أعطى الرجل وعداً صادقاً، نابعاً من تعاطفه مع موضوع دراسته، إلى قرّائه، ليس جميعهم بل المسلمين المؤمنين فقط، بأنه لن يمس المقدسات ولا الذات النبوية. لكن في المقابل أطلق العنان للتهجّم على مقدسات أهل الأديان الأخرى، حتى في هذا الكتاب، وتوسّع في الحطّ من معتقداتهم طبقاً لنهجه المعتاد. إن تاريخ جعيّط مخترق بهمّ المنافحة الدينية، حتى وإن أبدى ظاهرياً بعض المعارضة أو الافتراضات الجانبية التي قد تحرج الإنسان المؤمن. التاريخ في جوهره هو عمل علمي مناف للدين، لا يمكن أن يَزدهر ويَربُو إلاّ في إطار نظرة علمانية وليس دينية للأشياء. لكن جعيّط يحاول الترفّع عليهما، ولست أدري كيف. قد يختلط التاريخ لدى المثقفين بالإيديولوجيا «**من مِثل الإسلامية أو العلمانية**»(١).

ملاحظة سريعة لا بد من الإدلاء بها وهي السفسطة في هذا الادّعاء: إن كانت الإيديولوجيا من الصنف الديني، إسلامية كانت أو مسيحية أو بوذية، فينبغي منهجيّاً وأخلاقياً تفاديها واستبعادها بالكامل لأنها أشدّ ضرراً على البحث العلمي من غيرها، أما إن كانت علمانية فيجب اتّباعها والتمسّك بها. ليس هناك طريق ثالث: إما الإيديولوجيا الإسلاموية الظلامية أو العلمانية التنويرية المنفتحة. وبالتالي فإن تنبيه

---

(١) هشام جعيّط، في السيرة النبوية. تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، م. س، ص٧.

جعيّط من أن مقاربته «لا علاقة لها بأي إيديولوجيا» هو تنبيه لا يستقيم منهجياً، ولا يستقيم قوله من أنه لن ينتهج نهج المنافحة ولا الهجوم على الدين: «**لا المقصود نسف الإسلام في ينابيعه، ولا المقصود إحياء مقاصده الأولى في وجاهتها أو الدفاع عن الرسول ضد من لم يعطه حقّه من بعض المستشرقين أو من الرأي العام الغربي المتأثر بتراث سلبي قديم إزاء شخص الرسول**»(١). هذا «البَيْنَ بَين» غير مُقنع لأن في ثنايا كتابات جعيّط هناك دفاع مستميت عن الإسلام، ومُجمَل نصوصه مخترقة بالمُنافحة والتمجيد لرموزه بصورة مكثفة ودائمة.

وإذا كانت شخصية محمد هي شخصية مقدسة، كما يتراءى من كل كتابات جعيّط، فإن غرضه الأول ليس المسك بالبعد التاريخي الدنيوي لمحمد بل هو «**تعميق المعرفة وإثراؤها في فترة عَرف فيها علم التاريخ تقدّماً بالغاً في الغرب لأن الغرب هو الذي أسّس العلم الحديث في كل الميادين**»(٢). أنا أسأل جعيط هل أن هذا الغرب الذي أسس العلم الحديث، هل أنه بنى علم التاريخ على المسيحية أم على العلمانية؟ هل تشبّث المؤرخون بدينهم ونافحوا عن إنجيلهم ومَسيحِهم أم أنهم استبعدوا العنصر الديني وتفادوا اقحامه في همومهم المعرفيّة، وهو المعنى الحقيقي للعلمانية؟ إن أكثر العلوم مصداقية هي التي انتهجت نهج الموضوعية بتَخلّيها الكلي عن ادماج القناعات الدينية في البحوث العلمية، ولو مكث علماء التاريخ والمستشرقون الغربيون يَدورون في حلقة الايمان أو يقدّرون قناعات المؤمنين لما أنتجوا علما، ولما عمّقوا

---

(١) ن. م، ن. ص.
(٢) ن. م، ن. ص.

المعرفة أو أثروها، بل ولما تجرّؤوا على استصدار فرضيات ثورية بخصوص تراث الأديان. لكن هذه الشجاعة هي التي يناهضها جعيط ويزدريها أشد الازدراء حيث يقول إن النظرة الغربية للإسلام تحسّنت في اتجاه الموضوعية والتعمّق باستثناء المستشرقين الذين شذوا عن قالب تاريخ السيرة كما رواها المسلمون. فعلاً، لقد ظهر أخيراً «**تيار منحاز تورّط في الافتراضات الواهية والتعميمات الضعيفة**»[1]، وهؤلاء الدارسين يسميهم بأسمائهم، وهم كالتّالي: مايكل كوك، باتريسيا كرون، وانسبروه، نوث. إنهم من خيرة المستشرقين المحدثين وأكثرهم حذقاً وسعة اطّلاع، وهم الذين فكّكوا السيرة العتيقة ونقدوا الروايات الإسلامية وقصّة تدوين القرآن، وأعادوا النظر في أسطورة محمد ومكة وراجعوا نقديّاً السيرة التي دونها ابن اسحاق وابن هشام، ودواوين الأحاديث. لكن جعيّط مرة أخرى جابههم بالتهجمات والأحكام القاسية، وقال إن أعمالهم هي «**افتراضات واهية وتعميمات ضعيفة**».

ويبدو أن نظرة جعيّط الرّخوة للعلم جَعلته يُزكّي فكر ما بعد الحداثة، ويَسعد لفُتور الفكر الوضعي الذي جاءته الضربات من المؤمنين وحاولوا التشهير به، حيث يرى بشيء من الغبطة أن أوروبا تجاوزت عهود الصراع مع الكنيسة (وكأن الكنيسة، أيّ كنيسة أو مؤسسة دينية، تخلّت في يوم ما عن حقّها في تسيير توجهات العلم أو استأنست بجهود العلماء وقبِلت كل اكتشافاتهم المنافية لمعتقدها). إن هذا التجاوز للصراع الإيديولوجي مع مؤسسة دينية خانقة، والذي في الواقع هو مجرد وهم وأماني قابعة في الهواء، من نتائجه أن العلم أصبح مجرّد

(١) ن. م، ص٨.

وسيلة للصناعة والتكنولوجيا «وابتعد عن نضاليّته الأولى وتجاوزَ النظريات الوضعية القديمة، أي أن العلم وبالخصوص علوم الإنسان والمجتمع، صار يتّسم بالرصانة في نفس الوقت الذي نأى فيه عن مواقع السذاجة والكفاح الإيديولوجي»[1].

إن الرصانة في التعامل مع الديني، التي يتحدّث عنها جعيّط، هي كسر أجْنِحَة العلم كي لا يُحلّق في العُلى ويمكث جاثما في الأرض ذليلا أمام سطوة الدين واللاعقل. ليس هناك من معنى آخر لهذا التهجّم على الوضعية، ووصفها بأنها **مواقع ساذجة**، إلاّ الحقد والضغينة على الموضوعية العلمية التي لا تخشى لومة لائم، ولا تُراعي إيمان المؤمنين وقناعاتهم الدينية ولا تعبأ بمقدساتهم. وفي نفس هذا المَنحَى تتنزّل قولته من أن العلوم الإنسانية تخلّت عن كفاحها الإيديولوجي، أي عن كفاحها من أجل حرية الفكر والحقّ في نقد الأنساق الدينية وكشف تناقضاتها وزيفها وأكاذيبها.

ما من شك في أن ملاحظات جعيّط على العلم وعلى دوره في كسر طوق القداسة، تبدو وكأنها تحسّر عوض أن تكون ملاحظات عابرة: العلم دمّر الأديان وقضى على الأشياء التي كانت تُعتَبر أسرار خفيّة لا يمكن أن ينالها عقل الإنسان: «**صحيح أن العلم إذ فكّك رموز العالم الطبيعي فسما بالعقل الإنساني، دمّر أيضاً مُطلقيّة الأديان كما السرّ الخفيّ للعالم**»[2].

وهذا أمر ينبغي أن يسعدنا وأن نشكر عليه العلماء الذين أفنوا

---

(١) ن. م، ن. ص.

(٢) ن. م، ص١٠.

عمرهم في البحث والتنقيب، لأنهم ساهموا في رفع الجهل عن عقولنا وفَتَحوا لنا آفاقاً رحبة لمعرفة الكون والطبيعة خارج نطاق الأساطير الدينية. ومن ضمن هؤلاء الذين يجب أن نشكرهم هم المستشرقون الأكاديميون الذين درسوا الحضارة الإسلامية دراسة فيلولوجية تاريخية وقشّعوا هالة التقديس عن رموزها وفسّروا تاريخها تفسيراً مادياً عقلانياً. لكن جعيّط عوض أن يثني على الاستشراق الأكاديمي، فهو يتوجه مباشرة إلى الشعراء والقصصيين والرحالة: «فالشعراء والكتّاب شغفوا بالشرق ونمط حياته، وكبار الأدباء اهتمّوا بشخصية محمد لأنه مصدر وأصل الإسلام ورمزه ومعلّمه، وهذا من **غوته إلى فيكتور هوغو وكارلايل**، ونظروا إليه بصفته المبدع الديني صاحب الرؤية الميتافيزيقية المرهق بالوحي»(١). هذه استيهامات الشعراء وقصص الرواة المُفعمة بالحماسة والخيال، وهي بعيدة عن الموضوعية العلمية، إذ أن ما يهمّ المؤرخ هو إرث الدراسات الفيلولوجية للقرن التاسع عشر التي كانت جريئة ومتجرّدة من هَمّ الخوف من إرهاب المسلمين الذين أصبحوا الآن يهدّدون ليس فقط الباحثين العرب بل الغربيين أنفسهم. إن أعظم ما قدّمه لنا الاستشراق من بحوث جدّية رائدة تتموقع في الفترة التي تقع بين القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، أما الاستشراق الحديث فقد بدأ يأخذ في الحسبان مناشدات المسلمين، والبعض من المستشرقين أذعنوا لتهديدات المسلمين، وأحياناً يتفادى نقاد القرآن بصورة مباشرة وعلنية استثارة حساسية المؤمنين، فترى البعض منهم (ليس كلهم ولا

---

(١) ن. م، ن. ص.

أغلبهم) يتخلّون عن أعمالهم أو يُخفون أسماءهم الحقيقية كي لا يطالهم الذبح، وأشهرهم هو المستشرق الألماني لوكسنمبرغ.

الاستشراق الأكاديمي، بالنسبة لجعيط ـ ونَكتبها بفائق الذهول ـ «**فضاؤه الفكري أضيق**» من فضاء الشعراء والأدباء والرحالة، وتُهمته الدائمة والخطيرة هو أنه «**يبحث عن حقائق تفصيليّة**». إن البحث عن حقائق ثابتة وبراهين مفصّلة هي من مشمولات العلم، وتُعدّ في نهاية المطاف فضيلة معرفيّة كبرى وليست رذيلة أو نقصاً فادحاً. لكن الاستشراق، حسب جعيّط، يبقى في هذا المجال مضروبا بالنقص، وحتى إن افترضنا وجود قليل من الفضائل فهو «**في بعض الأحيان يعبث بموضوع بحثه فينفلتُ من كبرى تقسيمات العلوم ويبقى مجاله مهمّشا**»[(١)].

لا واحدة من دراسات المستشرقين عن القرآن والسيرة تنال اعجابه أو تستطيع أن تُحقق مبتغاها دون شائبة؛ كلها تَعتورها النقائص حتى أفضلها وأكثرها علمية: بوهل وموير، مستوى أبحاثهما ضعيف ولا يمكن الاعتماد على دراستهما «**فقد بليت وتمّ تجاوزها**»[(٢)] رغم أنها اتسمت بالجدية في زمانها؛ المستشرقون اللاحقون والذين تناولوا جانبياً حياة محمد، حملت بحوثهم قسطاً لا يستهان به من الأحكام المسبقة «حول شخصيّته أو أخلاقيّته وحول مدى صدقه في ادعائه النبوّة، وكل هذا ليس من العلم في شيء»[(٣)].

(١) ن. م، ص١٠ ـ ١١.
(٢) ن. م، ص١١.
(٣) ن. م، ن. ص.

لقد ثبت جعيّط على هذه الأحكام التحقيرية منذ زمان، حتى أصبحت عنده كليشيهات جاهزة يعيدها في كل محفل، لقد أعاد طرحها حرفياً في حوار بجريد **العربي الجديد**، جريدة قَطَرية رجعية بأتم معنى الكلمة، لها توجّه أخواني سلفي إرهابي، معادية للعروبة وموالية للصهيونية والامبريالية الأمريكية. هجم على المستشرقين الكلاسيكيين، وهم أفضل العلماء الغربيين في ميدان الإسلاميات، وأفضل من أنتج أعمالاً قيّمة على القرآن وسيرة نبيّ الإسلام. لكن بالنسبة لجعيّط هم كارثة: «أغلب المستشرقين الكلاسيكيين **لم يؤلفوا كتبا قيّمة وجديرة بالاهتمام عن السيرة النبوية، ومعظم مؤلفاتهم الصادرة عن هذين الموضوعين، لا تعتمد على المناهج العلمية، بل تستغل رغبة الآخر في الاطلاع على الدين الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية، ليقدموا مؤلفات تهتمّ بالحديث عن الدين أكثر من علم الأديان وتاريخ القرآن وتاريخ السيرة**»[١].

ليس له من يعارضه، لأنه أمام صحفي اكتفى بطَرحه أسئلة بسيطة، ولا واحد أمامه لكي يقارعه بالحجة، ولذلك سرّح طاحونة أحكامه وبدأ يُصرّف في التحقيرات يمنة ويسرة. لكن من السهل نقضه وتدمير حججه، لأن كتاب تاريخ القرآن لنولدكه ـ شفيلي، هو معلم لم يستطع أن يضاهيه في العمق الفيلولوجي أي كتاب ألّف في العالم العربي، رغم أنه مرت على كتابته سبعين عاما. ولا أذكر **حوليات الإسلام** للمستشرق الإيطالي ليون كايتاني، الذي خصص، فقط للعشر سنوات الأولى من

---

(١) المفكر هشام جعيط: الحركات الإسلامية الراهنة تنظيمات إيديولوجية، حوار أجرته حياة السايب، «العربي الجديد» ٢٢ يونيو ٢٠١٥.

حياة محمد كتابا ضخما بأكثر من سبع مائة صفحة، مشحون بالمراجع والإحالات، والاستشهادات المتنوّعة والشاذة الغريبة المأخوذة من كمّ هائل من كتب التراث القديمة تفوق الخيال. إن قراءة مؤلفات كايتني هي متعة علمية وشعور بالتحرر من أغلال الأسطورة.

في كتاب **محمد في مكة** قال جعيّط إن بحوث تور أندري، وغودفرا ديمونبين ومنتغمري وات ومكسيم رودنسون أكثر جدية ودقّة، ومع ذلك فهي ناقصة لأن «كل منها تُلقي أضواء على نقطة معيّنة ولا تفي بالحاجة فيما يخص الكلّ»؛ أفضل بحث وأكثره تعمّقاً ودقة هو ما كتبه منتغمري وات، لكنه لا يفي بالغرض العلمي، أي بغرض جعيط في الحقيقة، لأنه يركّز على العوامل الاقتصادية وينقصه الاطلاع «على الأبحاث اللاحقة»؛ ولا يَنجُ من هذه النقائص حتى عمل تور أندري نفسه الذي لا يفوّت الفرصة لمدحه والثناء عليه «عمله مهمّ فيما يتعلّق بالتأثيرات المسيحية، إلاّ أنه لا يتعدّى موضوع البعث والحساب ويبقى أسيراً لفكرة أن محمداً لم يكن يعرف مباشرة النصوص السورية، وهي فكرة غلبت على المباحث الاستشراقية، إما لأنهم يعتقدون بـ«أمية» الرسول بالرغم من أنهم أناس متحررون من الانتماء الإسلامي، أو لأنهم بقوا أسارى نظرة دونية إلى معرفة الرسول وإلى استعداداته للرؤيا والكشف من جهة أخرى»[1].

وعلى نفس الوتيرة، دون أن يغيّر كلمة، قال في حواره المنشور بجريدة العربي الجديد: «باستثناء تور اندريه، الذي اهتم بنقاط التلاقي

---

(١) هشام جعيّط، في السيرة النبوية. تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، م. س، ص١١ - ١٢.

بين الإسلام والمسيحية ومونتغمري وات ومارتن لينغر ـ رغم أن كتابه حياة محمد قديم ـ فإن أغلب المؤلفات الأخرى تفتقر إلى الدقة اللازمة والموضوعية العلمية، فضلاً عن أن مستواها في الغالب ضعيف وفيها كذلك تحريف».

إن المستشرقين، كما أنهم لم يُقدّروا القرآن حق قدره، فهم أيضاً لم يُقدّروا الرسول محمد حق قدره ولم يُنصفوه في أحكامهم. محمد بالنسبة إليهم يجب أن يبقى «عربياً بسيطاً سمع بالسماع آراء رائجة في الأسواق ولم يهضم تماماً التقليد اليهودي ـ المسيحي، فيخطئ في عرضه لهذا التقليد». وتتجذر هذه الفكرة في شخص تور أندري، الذي كان في الصفحة السابقة قد أثنى على عمله، بعد أن برهن «على القرابة القريبة بين أفكار إفراييم السوري حول البعث والحساب... وتصوّره للجنة والنار وبين النص القرآني، لا يجرؤ على المضيّ قدما في برهنته لأنه لا يمكن للنبي في رأيه أن يكون مبتدئياً عالماً بالمسيحية»[١].

ثم مِن جهة أخرى ـ وهذا الذي يهمّنا تحديداً ـ يبدو أن قول جعيّط من أن «على القارئ أن يقتنع بأن هدفنا ليس المسّ بالمقدسات الإسلامية ولا بالذات النبوية وليس إقامة أحكام تقريظية ولا سلبية»[٢]، هو نوع من الاتهام للمستشرقين الناقدين للإسلام، والتَمَلُّص الضمني من علماء الغرب الذين دَرَسوا الإسلام وأخلصوا إلى نتائج تتعارض ومقدسات المسلمين. ليس هذا فقط، بل إن موقفه الصريح هذا يبدو في جوهره اتّهام لتراث فكري عظيم جَمَع كل أولئك الذين درسوا الديانات

---

(١) ن. م، ص١٢.

(٢) ن. م، ص٦.

بروح موضوعية غير عابئين باعتقادات المؤمنين، أو ناكرين، من حيث المبدأ، لفكرة المقدسات والوحي والنبوة. إن الموقف الذي اتخذه المؤرخ جعيط يتطابق مع الموقف المحبط الذي دأب عليه لاهوتيّو المسيحية واليهودية الذين رأوا مقدساتهم تتهاوى الواحدة تلو الأخرى، وتتقشع هالة القدسية عن رجال مَكَثوا لمدة قرون عديدة خارج الشرط الإنساني. كيف يمكن والحال على هذه الشاكلة ألاّ يَختلجنا الشك في ضماناته المنهجية وتصريحاته التالية: «قلتُ إن التاريخ كواقع وكعلم يجري على سطح الأرض ولا يتناول الحقائق الميتافيزيقية في حد ذاتها... وبالتالي على المؤرخ المسلم أن يضع بين قوسين قناعاته الدينية عندما يدرس بزوغ الإسلام»؟ لكن على العكس من ذلك فإن جعيط، في كتابه الأول وفي كتابه هذا عن السيرة النبوية، قد أجرى التاريخ على سطح السماء، وليس على سطح الأرض.

لقد قذف بأعمال المستشرقين في عداد الخرافة، ثم نَعَتَ الاستشراق الأكاديمي بضِيق النظر والعَبث بموضوعه، وبُعده عن أسس العلم[1]. ولكن مِن جمهرة المستشرقين لا يستثني إلاّ «كبار علماء الساميات من مثل نولدكه وفلهاوزن»، ولا يُقدّر إلاّ بحوث العالمين الألمانيين في القرن التاسع عشر، شبرنغر وغريمه. أما الذين جاؤوا بعدهم، وهم كثر، ممن لم يَتَناولوا مباشرة حياة الرسول محمد، فإن بحوثهم حسب جعيّط، «حملت قسطاً غير قليل من الأحكام المسبقة حول شخصيته أو

(١) ن.م، ص١٠ ـ ١١. «أما الاستشراق الأكاديمي فشيء آخر: فضاؤه الفكري أضيق وهو يبحث عن حقائق تفصيلية، لكنه في بعض الأحيان يَعبَثُ بموضوع بحثه فينفلتُ من كبرى تقسيمات العلوم ويبقى مجاله مهمّشاً».

أخلاقيته وحول مدى صدقه في ادعاء النبوة، وكل هذا ليس من العلم في شيء».

هذه الملاحظات وإن كانت تحمل في جزء منها وفي مجال ضيّق بعض الصحة، فهي من حيث النتيجة ليست في صالحه، لا بل يمكن إرجاعها عليه. أين نضع أحكامه هو بشأن الأديان السابقة واللاحقة عن الإسلام؟ ثم هل هناك من مبرّر عقلاني يُجيز لأي مؤرخ أن يَتبنّى أطروحات دين ما، ويدافع عنها، ضدّ دين آخر؟ وأخيراً، ما الشيء الذي يقدّمه جعيّط من ضمانات موضوعية للفلاسفة والمثقفين العلمانيين الذين لا يؤمنون بمنظومة الوحي، ويناهضون فكرة المقدّس؟ أرى أن جعيط نفسه، ومن خلال صريح أطروحاته، غير قادر على أن يوفّر لهم أي ضمانة علمية تُذكر لأن تداعياته الحرة تشهد بذلك: فرويد خرافة؛ أقوال مايكل كوك عن مكة هي أيضاً خرافة[1]؛ باتريسيا كرون عديمة الشعور بالمسؤولية العلمية، وبخصوص هذه الدارسة فإنه لم يتزحزح عن موقفه الهجومي قيد أنملة، بل عمّق نقده واتّهمها باستحداث نظريات وهمية. لقد مرّت على أحكامه القاسية ضدّها قرابة العشرين سنة (الفتنة الكبرى)، ولم تزده هذه المدّة إلاّ تشبثاً برأيه واستماتة على مواقفه، مع التّصعيد في اللهجة التي وصلت إلى حدّ السباب. وبالجملة الاستشراق، حسب قناعته الدائبة، انفلتَ «من عقاله [وابتعد] عن الصرامة المنهجية التاريخية بتعلّة الصرامة ذاتها أو حبّاً للجديد»[2].

(١) ن. م، ص١١.
(٢) ن. م، ص١٤.

٩ ـ فولتير المُفتَرَى عليه

كنت أتمنّى لو أن مؤرخاً عربياً صاحب مشروع علمي تنويري، يرصد باستمرار أخطاء المستشرقين ويبشّر القراء العرب بحتمية موت الاستشراق، أن يغوص على الأقل في الموضوع بجدّية وأن لا يبقى سابحاً على السطح. كان عليه أن يستشهد بنصوصهم وأن يبيّن مواطن الخلل في أفكارهم، وأن يجابههم بالحجة والأدلة التاريخية لدحض أطروحاتهم. لكنه لم يفعل ذلك، مثله مثل أركون، وإنما أجمل واختزل، والسبب في ذلك واضح لمن اطلع على مؤلفاته: ليس لديه أي موارد لمعارضتهم أو تفنيدهم، لا يملك أي بديل علمي، لأن مقاربته محكومة بنظرته الدينية الضيّقة ومُسخّرة فقط لغاية المنافحة والذبّ عليها.

وكل مؤرّخ حَكَمَ عليه الحظ التعيس بالسّقوط في جُبِّ المنافحة الدينية والسّياحة في تبرير كتابه المقدّس فإنه حتماً لا يمكن أن ينتج عملاً تاريخياً يُعتدّ به، وقد تفطّن فولتير إلى هذه النقيصة وقال قولة جميلة ومعبّرة جدّاً: «إن التاريخ، عند كل الأمم، تمّ تشويهه بالخرافات، حتى جاءت الفلسفة في النهاية لكي تضيء مسار الإنسانية؛ وعندما وصلت أخيراً إلى قلب هذه الظلمات، وجدت الأرواح قد عَمَتْها قرون من الأخطاء، بحيث إنها بالكاد استطاعت أن تُنقذهم من

الخداع»[١]. كلام في غاية الصواب والحكمة، يصف واقعا لا يمكن نكرانه ويكشف عن مصائر أحداث تاريخية طمستها الأساطير وعتّمت على حقيقتها. وأجلى دليل على ذلك هي التواريخ المقدسة التي انتجتها الأديان، والحال أنها مسخ من التاريخ الحقيقي، ولولا الفلسفة التي منحت المفكرين حسّاً نقدياً حادّاً، بالتظافر مع الفيلولوجيا التي أماطت اللثام عن البعد الإنساني التاريخي لمنظومة المقدسات، لبقيت البشرية في حالة غيبوبة مزمنة. وهذه الخاطرة لم يتبنّاها فولتير بل أصبحت شعاراً ومنهجاً لثلة من المفكرين الفرنسيين الماديين في أوج عصر التنوير.

لكن جعيّط له نظرة متحفّظة إن لم أقل محترزة تُجاه المثقفين الفرنسيين عموماً، وتُجاه فلاسفة العقلانية والتنوير خصوصا. فوَصْفه لأشخاصهم يشي بنوع من الازدراء والكره، بل لا يخلو من سهام السخرية. المثقف الفرنسي، في رأيه، «**يَعتبر نفسه كاتبا أكثر منه عالما، ومفكراً مستقلاً تجاه أجهزة السلطة، وناقداً لمجتمعه وواعياً بمسؤوليّته... مُفعما بتفوّق الفكر**»[٢]. لا تعتقدوا أن هذه الأوصاف تمثل إشادة أو مدحاً للمفكرين الفرنسيين من طرف مفكّر تونسي درس وعاش ردحاً طويلاً في فرنسا، بل هي حطّ منهم بالمقارنة مع المفكرين الألمان.

---

(1) VOLTAIRE, Essai sur les mœurs, in Œuvres complètes de Voltaire, t. 11, Paris, Hachette, 1895, p. 517.
"Chez toutes les nations l'histoire est défigurée par la fable, jusqu'à ce qu'enfin la philosophie vienne éclairer les hommes; et lorsque enfin la philosophie arrive au milieu de ces ténèbres, elle trouve les esprits si aveuglés par des siècles derreurs, qu elle peut à peine les détromper".

(٢) هشام جعيّط، أوروبا والإسلام، م. س، ص١٩.

فعلاً، المثقف الفرنسي «**لا يَملك عمق الـ** ***Wissenschafter*** **الألماني**»، يعني لا يملك عمق **العالم** الألماني المتميّز بسعة اطّلاعه وصرامة بحوثه الأكاديمية، فهو تقريباً مجرّد صحفي أو مثقف عمومي يتكلّم عن كل شيء دون أن يكون مختصاً في أي شيء، شبيه إلى حدّ ما بالسفسطائيين القدامى.

مثالان أوردهما جعيّط لهذه الحالة المزرية فولتير وفولني. بدأ بفولتير: «لِنَتَفحّص حالة فولتير الذي درس الإسلام عن كثب»[1]، والقارئ بدوره جاهز للانطلاق معه في رحلته المُمتعة والاطّلاع على خبايا أفكار فولتير عن كثب. لكن منذ الخطوة الأولى يترك جعيط القارئ لوحده بلا سند نصّي أو معطيات عينية، ويسير في حاله دون الالتفات إليه أو الوفاء بما أزمع القيام به. ذلك لأنه من فولتير، وأطلب من القارئ أن يتثبّت ممّا أقوله، لم يفتح كتاباً واحداً، ولم يستشهد منه بنص واحد، بل التجأ إلى نورمان دانيال من خلال كتابه: *الإسلام والغرب*، وإلى كتاب جماعي تحت إشراف برونشفيك وفون غرونمباوم: *النزعة الكلاسيكية والتدهور الثقافي في تاريخ الإسلام*. استشهد عابراً بكتاب فولتير *محاولة في الأخلاق*، ولكن فعل ذلك من خلال مراجع ثانوية دون أن يَنكبّ على قراءته أو يَنقل منه مباشرة ولو جملة واحدة؛ وهذا نقص فظيع في التوثيق وشِحّة مُفزعة في المراجع. لكنه على العكس من ذلك يتَوسّع في الأحكام والتقييمات الشخصية، ولم يتورّع عن القدح في صورة المثقف الفرنسي عموماً، والحط من شأنه ومن أعماله أمام نموذج العالم الألماني النّحرير، فريد زمانه.

---

(١) ن. م، ن. ص.

في نظر جعيّط حكم فولتير على الإسلام كان حكماً قاسياً وعدوانياً سواء ني المرحلة الأولى أو في المرحلة الثانية من حياته الفكرية: «في المرحلة الأولى في كتابه محمد والتعصّب [الأصح: محمد أو التعصب] كان حكمه على الإسلام قاسياً»[1]. وهذا أمر مُحزنٌ جدّا، ومحزن للغاية أيضاً أن فولتير في المرحلة الثانية، مرحلة «دراسة عن الأخلاق»، رغم أن لهجته أصبحت «أكثر جدّية وهدوءاً»[2] بقي حكمه على الإسلام «قاسيا»[3]. الأكيد هو أن فولتير كان يهاجم من خلال الإسلام «الدين بشكل عام والمسيحية الرسمية خصوصا. ولكن من وراء هذا المشروع العام يبرز تعمّده لاختيار الإسلام كمركز للتّعصّب وللاإنسانية ولإرادة القوّة. إن الخصائص التي ألصق بها الإسلام ونبيّه، تُعبّر عن نفور واضح تجاهها».

ومع ذلك فإن القارئ يتحرّق شوقاً كي يَطّلع على نصّ واحد من نصوص فولتير، أو مَرجع يعتدّ به كي يقارن ويحلل ويتأكد من صدقية أحكام جعيّط، وهذا أضعف الإيمان. لكنه لم يفعل ما يجب فعله ولا أنْجَزَ حتى الحدّ الأدنى من المطلوب منه كدارس محقق، بل اختزل الأمور وترك القارئ في عماء الكلمات. المفارقة هي أن الرجل يملك الشجاعة لكي يقوم باقتباسات مطوّلة من «فولتير» ويذكر بالتحديد العنوان الذي لخّص منه أفكاره: «إن كتاب *دراسة عن الأخلاق*، يحاول أن يحلّل العناصر التي تدخل في تركيب الإسلام، وذلك من منظور

(١) ن. م، ن. ص.

(٢) ن. م، ن. ص.

(٣) ن. م، ن. ص.

تاريخ الأديان. وهذا ما سمح لفولتير أن يفرّق بين المساهمة النبوية البحتة وبين التطوّر اللاحق للنظام الديني. فيبقى محمد ذلك الشخص الذي استفاد من بساطة مَن حوله، وفرَضَ رسالته بالقوّة. **إلاّ أن الإسلام قد تطوّر باتجاه التسامح، واقترب في تسامحه الجنسي مما يشبه نظاماً دينياً طبيعياً. المسيح طيّب، لكن المسيحيين أصبحوا غير متسامحين، بينما المسلمون متسامحون رغم النبيّ السيّء. إنه تطوّر تعيس في الحالة الأولى، وسعيد في الحالة الثانية**. بهذا يوفّق فولتير بين العديد من الوجهات المتناقضة، وبين أحكامه المسبقة وعقله. **هذا** الفصل بين النبي والإسلام التاريخي، هو فكرة هامة برزت في *دراسة عن الأخلاق*، حتى هنا كان الإسلام يتماثل مع مؤسسه، ويترك نفسه ليستوعب من خلاله»[1].

لو أن جعيط قدّم شواهد ونصوصاً داعِمة لكلامه، لحاز على مصداقية أوفر، ولأقنَع القارئ العربي بآرائه وتحليلاته. لكنه لم يَقم بذلك وبالتالي فإن هذا التمشّي الخطي في الأحكام لا يُقنعنا البتّة ولا يُشفي فضولنا الفكري، لا بل قد يُثير فينا بعض الشكوك المشروعة لأنه غير مدعوم بالنصوص وفاقد للمراجع الأصلية. وهذا، كما أسلفتُ، نقص كبير في عمل يَخوض فيه صاحبه صراعاً حامياً ضدّ العلماء الغربيين، ويضع أقوالهم وآراءهم على مِشرحة النقد. جعيط يواصل، دون توقّف، في الاستشهاد بكتاب *دراسة عن الأخلاق*، ويكتب وكأنه ينقل مباشرة عن فولتير: «**مَثلاً فولتير يقول بشكل واضح «إن هذه المجتمعات، يمكن أن تنهض بمفعول استعداد عميق لكل الناس من**

(١) ن. م، ص٢٠.

أجل الوصول إلى وضع ومصيرٍ أفضل، وإلى مستوى ثقافي أكثر ارتفاعا»[(١)]. أين قال فولتير هذا الكلام؟ لا ندري. كل ما نعرفه هو أن هذه القولة اليتيمة استمدّها من برنشفيك، وقد أحال عليه في أسفل الصفحة: «ذكرها برنشفيك في (Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam)»[(٢)].

لكن حتى هذه الاحالة فهي خاطئة، لأنها مُستمَدّة في الحقيقة من مقال برنشفيك بعنوان «**مشكلة الانحطاط** (Problème de la décadence)» الوارد في الصفحات ٢٩ ـ ٤٦ من الكتاب الجماعي بإشرافه هو وإشراف فون غرونباوم. ولقد ذكر برونشفيك مرة واحدة فولتير في الصفحة ٣١ ومنها نقل جعيّط مَقطعاً حرفيّاً دون التثبّت منه. النص الكامل لبرنشفيك هو كالآتي: «عند فولتير، دراسة الشعوب الأفرو ـ آسياوية (كما سنرى) غنيّة ومتنوّعة، ولكن ليست أقل توجّها منهجيّاً. لقد عارض، في بعض النقاط، منتسكيو: فهو ينفي مثلاً استبداد النظام التركي. وهو يَبتهج على وجه الخصوص بإظهار القيمة الجوهرية المتساوية للفروع المختلفة للإنسانية، بإيراد كنموذج شعوب آسيا. في دراسته عن الأخلاق، كان مجبوراً على الاعتراف بأن بلدين مثل مصر والمغرب، هما في انحطاط كامل، وله إزاء سُكّانهما كلمات قاسية جدّاً: المصريون قابعون في «الانحطاط الأكثر خزياً»؛ مُتكلماً عن المغاربة «في أي حالة تَدنٍّ، يقول، سقطت هذه الشعوب». لكنه سريعاً ما يصحّح رأيه قائلاً بأنها ليست خطأهم؛ ويُلقي بالمسؤولية، حسب خطّ تعاليمه المعهودة، على «حكومتهم البغيضة». وبالمثل فإن

---

(١) ن.م، ن. ص.

(٢) ن.م، ص٢٠. هامش ٢.

الانحطاط الذي تشهده فارس ليس هو خطأ الفرس، شعوب «مدمّرة منذ أربعين سنة وسيّئة الحكم»»[1]. وفي الأخير تتنزّل الجملة التي نَقلها جعيّط عن برنشفيك: «يكفي أن تحوز هذه الشعوب على حكومة رشيدة لكي تنهض قريباً «لتطلّع عميق لكل الناس قصد الوصول إلى مكانة أفضل، مصير أفضل، ومستوى ثقافيّ أعلى»»[2].

(1) R. BRUNSCHVICG, "Problème de la décadence", in *Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam*, Maisonneuve Larose, Paris, 1977, p. 31.

(2) ID, "Problème de la décadence", p. 31.

١٠ ـ تصحيح الموقف من فولتير

لكن فولتير كمؤرخ وفيلسوف حاول أن يُنصف الشرق، وليس من الشاذ أبداً، العثور في كتاباته على دفاع مستميت عن العالم الشرقي عموماً، وعن العرب والمسلمين خصوصاً، نادراً ما نجده في حضارات أخرى، وهو نفسه يسجّل التحولات التي طرأت على المؤرخين الغربيين في تلك الفترة. فهو يرى أن كل ما كتبه الغربيون تقريباً على الشرقيين قبل القرون الأخيرة يبدو خاطئا، ومناف للحقيقة[١]. ومن خلال بحثه المعمق حول نشأة الفنون والعلوم اقتنع بأن في قرون البربرية والجهل (nos siècles de barbarie et d'ignorance) التي عاشتها أوروبا بعد انهيار الامبراطورية الرومانية وتفتتها، «تلقّينا تقريباً كل شيء من العرب: علم الفلك، الكيمياء، الطبّ، خصوصاً أدوية أكثر اعتدالا وأكثر صحّية من تلك التي عرفها الاغريق والرومان. الجبر هو من اختراع العرب، الارثميطيقا نفسها جلبوها هم لنا. عَربيّان، حران وبن سعيد، هما اللذان

(1) VOLTAIRE, *Préface* à l'*Essai sur l'histoire universelle* (1754), III, *Mélanges*, in *Œuvres complètes de Voltaire*, t. XXV, Paris, Hachette, 1893, p. 2. "Presque rien de ce que les Occidentaux ont écrit sur les peuples d'Orients avant les derniers siècles, ne nous paraissait vraisemblable; et nous savions combien, en fait d'histoire, tout ce qui est contre la vraisemblance est presque toujours contre la vérité".

اشتغلا على الألواح الألفونسية (Tables Alphonsines). الشريف بن محمد، الذي يسمونه جغرافي النوبة، أخذ معه إلى صقلّية، للملك روجير الثاني، كرة من الفضة حيث رسم عليها الكرة الأرضية المعروفة، وأصلح بطليموس»[١]. لا يمكن للمؤرخ الصادق أن يتغاضى عن هذه الاسهامات، «كان من الواجب إنصاف العرب إذن، يقول فولتير، «il fallut donc rendre justice aux arabes»»، حتى وإن كانوا مسلمين، والاعتراف بأن شعوبنا الغربية (nos peuples occidentaux) كانوا جاهلين جدّاً للفنون والعلوم.

ولا يمكن لهذا الكلام إلاّ أن يصدم المتشبثين بتفوّق الغرب على كل الشعوب، وفعلاً، أحد الكتاب في مراجعة له على «مختصر التاريخ الكوني» لفولتير عاب عليه تحيّزه للأتراك (المسلمين)، وقال إن فولتير «لديه تعلّق سرّي بدين الأتراك؛ فهو ينتصر لهم بأقصى جهده، وغالبا ما يكون ذلك على حساب المسيحيّن. أصحاب الألسن السيّئة يقولون إن هذا الكاتب سيذهب للختان في القسطنطينية، وهناك ستكون خاتمة قصّته»[٢].

فولتير يردّ بحزم ودون تردّد، بأنه إذا كان بعض الأشخاص، عن سوء نيّة، يُلقون باللوم على هذا الانصاف، ويريدون جعله بغيضاً، فيجب حقاً الإشفاق عليهم لكونهم غير جديرين بالقرن الذي يعيشون فيه[٣].

---

(1) Ibid, p. 2.

(2) *Correspondance littéraire et philosophique*, Paris, 1^{e}, janvier 1754, p. 109.

(3) VOLTAIRE, *Préface* de l'*Essai sur l'histoire universelle* (1754), p. 2. "Si quelques personnes ont eu la mauvaise foi de blâmer cette équité, et de vouloir la rendre odieuse, elles sont bien à plaindre d'être si indignes du siècle où elles vivent".

أن تكون الديانة الإسلامية والرسالة المحمدية جديدتان كل الجدة في سياق التاريخ الكوني فهذه حقيقة ثابتة عند جعيّط، وهي تمثل أطروحة محورية بدونها ينهار نسقه الفكري كله ويذهب تاريخه سدى. لقد سقط في فخ الأحكام المسبقة لأنه لم يفهم فولتير ولم يُحمّل نفسه عناء قراءته. إن نص فولتير في الفصل السادس من كتابه «محاولة في الأخلاق» الذي خصّصه للتحدث عن بلاد العرب وعن نبي الإسلام، يبدو وكأنه نوع من المنافحة عن الإسلام وليس تهجّما عليه، وهذا يصدّق حدس رودنسون ويُكذّب ادّعاءات جعيّط.

لقد اختار فولتير النقطة الحرجة التي يركّز عليها إلى اليوم العديد من نقّاد الإسلام، وهي تعدّد الزوجات الذي أباحته الشريعة، والتصوّر الحسي لسعاة الآخرة، وحاول بكل شجاعة أن يخفف من حدّة هذا النقد ويبرء الإسلام من هذه التهمة. قال: «إنه حكم مسبق منتشر بيننا أن المحمدية لم تتقدّم بخطى عملاقة إلاّ لأنها تدغم التوجهات الحسّية. نحن لا نعتقد بأن كل ديانات الشرق القديمة سلّمت بتعدد الزوجات. وقد قصر محمد عددهن اللامحدود السائد حتى عصره إلى أربعة. يقال إن داود كانت لديه ثمانية عشر امرأة، وسليمان ستمائة، مع ثلاثمائة جارية. هؤلاء الملوك كانوا يشربون الخمر مع نسائهم. إذن الديانة اليهودية هي التي كانت حسيّة، وديانة محمد كانت متعففة»[1].

وكأن فولتير يدافع هنا نوعا ما عن مشروعية التّعدد في سياقه الاجتماعي - التاريخي وينزع عن القرآن والإسلام تُهمة ابتداع التعددية

(1) VOLTAIRE, *Essai sur les mœurs et l'esprit des nations*, in *Œuvres complètes de Voltaire*, t. X, Paris, Hachette, 1893, p. 164-165.

لإغراء أتباعه. قال إن الشرق حسَم المسألة التي يخوض فيها السياسيون: هل التعدد صالح للمجتمع أم لا؟ الشرق بالنسبة لفولتير حسم الموقف باختيار التعدد «والطبيعة موافقة للشعوب الشرقية، وهذا معمول به تقريباً عند كل أنواع الحيوانات التي يوجد فيها عدد من الإناث مقابل ذَكَرٍ واحد»[1]. وقد اندفع فولتير، متّبعاً في ذلك خطى بيار بايل (Bayle)، لرفع جميع الانتقادات ضد الإسلام، وذلك بعملية تعميم لكل البنود التي يعيبها المسيحيون والنقّاد الغربيّون على القرآن. الجنّة المحمدية، جنة ملذات وجنس؟ صحيح «ولكن العصور القديمة لم تَعرف غيرها... وهذا المعتقد هو نفسه معتقد آباء الكنيسة في القرن الثاني والثالث. يشهد بذلك القديس جوستين في الجزء الثاني من حواراته «أورشليم، يقول، ستُوسَّع وتُزيَّن لِكي تَتقَبَّل القديسين الذين سيتمتّعون لـمُدّة ألف سنة بكل ملذات الحواس». أخير، كلمة جنّة لا تفيد إلاّ حديقة مَزروعَة فيها أشجار مثمرة»[2].

مَن الذي كَتَبَ القرآن؟ مائة كاتب أوروبّي، كلهم نسخوا خبراً واحداً، قالوا إنه راهب نستوري. البعض سماه سرجيوس، والبعض الآخر بَحِيرة. فولتير ينقد هذه الرواية لأن حسب رأيه فصول القرآن «كُتبت بحسب الظروف، خلال السّفرات التي قام بها محمد، وخلال غزواته. هل كان هذا الراهب ملاصقاً له دائماً؟». نفس الحكم، ولكن بعض المسلمين يقبلونه والبعض الآخر، خصوصاً المحدثين يرفضوه، وهو أمية محمد. لقد اعتُقد حسب تأويل اعتباطي لمقطع من القرآن أن

(1) *Essai sur les mœurs et l'esprit des nations*, Ibid, p. 165.

(2) Ibid, p. 165.

محمداً لا يعرف الكتابة والقراءة. ليس صحيحاً يقول فولتير: «كيف يمكن لرجل امتهن التجارة لمدة عشرين سنة، شاعر، طبيب، مشرّع، أن يجهل ما يتعلّمه أصغر طفل من قبيلته؟»[1]. القرآن مشتق من القراءة وهو ليس بكتاب تاريخي مثل كتاب اليهود والأناجيل، وهو أيضاً ليس كتاب قوانين مثل سفر اللاويين أو التثنية؛ ولا مجموعة من المزامير وأناشيد دينية، ولا رؤيا نبويّة واستعارية في ذوق قيامي. ما هو إذن؟ «إنه خليط من كل هذه الأصناف، تركيب لمواعظ نجد فيها بعض الأحداث، بعض الرؤى، بعض النبوات، وتشريعات دينية ومدنية»[2]. لقد أصبح القرآن بمثابة مجلة قوانين، وتشريعات دينية عند كل الأمم المحمدية. كل المفسرين لهذا الكتاب مجمعون على أن أخلاقه متضمّنة في هذه الكلمات: «ابحثوا عن الذي يطردكم، اعطوا لمن يسلبكم، اغفروا لمن يُسيء لكم، احسنوا للجميع، لا تجادلوا الجهال». من ميزات القرآن، يواصل فولتير، رغم التناقضات العديدة التي تخترقه، حسب الذوق الشرقي، حضور مقاطع، هكذا بدت لفولتير، وكأنها رائعة، مثل قوله بعد الطوفان: «وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجوديّ». القرآن يعرّف الله، يقول فولتير، بصيغة أكثر تسامياً. حينما سأله أحدهم من هو هذا «الله»؟ أجابه: «هو الذي يملك الوجود من ذاته، والكل يستمدّه منه؛ أنه لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤ أحد». هذه الإجابة الشهيرة

(1) Ibidem.

(2) Ibidem.

المكرّسة في كافة أنحاء الشرق، توجد تقريباً كلمة كلمة، في اخر الفصل الثالث من القرآن[١].

لكن هناك دائماً في تحليلات فولتير وجها آخر للعملة، وفي هذا الإطار لا يمكننا أن نعيب على عقل يقظ شكّاك أن يُصادر روحه النقدية ويواصل في الثناء على القرآن والدين الإسلامي كما لو أنه مسلم سلفيّ، دون بصيص نقد. فهو يستخدم حقه في نقد القرآن، كما شغّل مكنته التهديمية في حقّ الإنجيل: «صحيح أن التناقضات، والسخافات، والأخطاء التأريخية، حاضرة بكثافة في هذا الكتاب. نلاحظ على وجه الخصوص جهلاً مطبقاً بالفيزياء الأبسط والأكثر شهرة. هنا يكمن حجر الزاوية لاختبار الكتب التي تزعم الديانات الكاذبة أنها مكتوبة من الله: لأن الله ليس بِسَخيفٍ ولا جاهل؛ لكن الشعب الذي لا يتفطّن لهذه الأخطاء، يعشقها، والأئمة يستعملون طوفانا من الكلام لتسويغها»[٢].

قارنوا بين ما يقوله فولتير وبين الوضع المزري الذي نعيشه الآن، وكيف حجز فيه أصحاب الاعجاز العلمي في القرآن عقول الناس، وكأن شيئاً لم يتغيّر منذ عهد فولتير إلى اليوم. إذا فحصنا الأمر عن كثب، لا شيء جديد في قرآن محمد وفي شريعته، «سوى أن محمداً رسول الله». فعلاً، بالنسبة لفولتير: «وحدة كائن متعالٍ، خالق وحافظ، هي فكرة قديمة جدّاً. الحساب والعقاب في حياة أخرى، الاعتقاد في جنة ونار، موجودان عند الصينيين والهنود والفرس والمصريين واليونانيين والرومانيين، وبعدها عند اليهود، وخصوصاً عند المسيحيين، التي

(1) Ibid, p. 166.

(2) Ibidem.

عملت ديانتهم على تكريسها. القرآن يعترف بوجود ملائكة وجنّ، وهذا المعتقد يأتي من قدماء الفرس. أما المعتقد الذي يقول بالبعث والحساب الأخير، فهو مقتبس من التلمود ومن المسيحيين. الألف سنة التي يستغرقها الله، حسب محمد، لحساب البشر، والطريقة التي يستعملها، هي متمّمات لا تَمنَع من أن تكون مستعارة كلّها. الجسر الحادّ [السراط] الذي سيمرّ عليه المبعوثون، الذي سيسقط من أعلاه المخطئون في النار، مستمدّ من التعاليم المجازية للمجوس»[١].

كذلك من المجوس استمدّ فكرة الجنة وصفات أهلها وملذاتها الحسية؛ الإيمان بالقدر الشامل الذي يبدو اليوم وكأنه عقيدة خاصة بالإسلام، هو مشهور في العالم أجمع، موجود سواء في الإلياذة أو في القرآن. أما بخصوص التشريعات التعبّدية، مثل الختان، الوضوء والصلوات والحج، محمد لم يفعل أكثر من الامتثال للأعراف السائدة. ليس هناك دين دون صلاة «الشريعة التي أتى بها محمد للصلاة خمس مرات في اليوم كانت مُقلقة، وهذا القلق نفسه كان محترما. مَن ذا الذي يتجرأ على التذمّر من أن يكون المخلوق مجبراً على عبادة خالقه خمس مرات في اليوم؟»[٢]. أما طقوس الحج لمكة والطواف بالكعبة وتقبيل الحجر الأسود، فهي في رأي فولتير، طقوس عزيزة على العرب منذ قرون عديدة، ومحمد عوض أن يُلغيها تركها «لكي يجلب له العرب، جاعلاً منها مبدأ إيجابياً»[٣]. صوم رمضان أيضاً موجود عند كثير من الشعوب، ومحمد جعله صارماً جدّاً بتمديده شهراً كاملاً.

(1) Ibidem.

(2) Ibid, p. 167.

(3) Ibidem.

ليس هناك دين لم يأمر بالصدقة، لكن الإسلام، في رأي فولتير، هو الدين الوحيد الذي جعل منها حكماً قانونياً لا مندوحة منه. هذه التعاليم الشاملة يستخلص منها النتيجة التالية: «كل الأديان استعارت كل معتقداتها وكل طقوسها من بعضها البعض»[١]. من بين المحظورات القاسية التي فعلها محمد هي منع شرب الخمر، ويمكن تحمّلها في مناخ مُحرق، لكن محمداً «لم يتنبأ بأن هذا المنع سيُصبح في يوم ما تقريباً غير مُحتَمل لمُسلميه في ثراسيا، مقدونيا، البوسنة وصربيا. لم يكن يعلم أن العرب سيتوغّلون في يوم ما حتى وسط فرنسا، والأتراك المسلمون سيصلون أمام أسوار فيينا»[٢]. أكثره تفرّدا في شريعة محمد هو منع لعب القمار الذي لا نجد له مثيلاً في أية شريعة «إنه يشبه قانون ديرٍ أكثر منه قانون عام لأمة ما. يبدو أن محمداً لم يُكوّن شعباً إلاّ للصلاة، للإنجاب، وللقتال»[٣].

وكأنّي بفولتير حينما يتحدث عن كيفيّة انتشار الإسلام، وكأني به أحد الإسلاميين الحاليين الذين يزعمون أن الإسلام لم ينتشر بحدّ السيف وإنما بالسيرة الحسنة وبالمعاملات الأخلاقية لأتباعه: «كل هذه القوانين التي هي، ما عدا تعدّد الزوجات، من الصرامة والزهد، وتعاليمه من البساطة بحيث أنها سريعاً ما جَلبتْ لدينه الاحترام والثقة. مُعتقد إله واحد، خصوصاً، متصوّرٌ دون أسرار، ومتناسب مع الفهم الإنساني، أظلّ تحت شريعته جمع من الأمم، وصولاً إلى سود إفريقيا

(1) Ibidem.

(2) Ibid, p. 168.

(3) Ibidem.

وسكان الجزر في المحيط الهندي»[1]. إن هذا الدين، يقول فولتير، يُسمَّى «الإسلام» ويعني الاستسلام لإرادة الله؛ وهذه الكلمة بمفردها قد جلبت له العديد من الأتباع. وهنا يتبع فولتير خطى بيار بايل الذي، في مقاله محمد، رفض القول بأن الإسلام انتشر بحد السيف. فولتير من جهته يردد نفس الفكرة تقريباً: «لم يكن أبداً بالسلاح قد استقرّ الإسلام في أكثر من نصف الكرة الأرضية، لكن كان بالحماسة، وبالإقناع، وخصوصاً بمثال الغالبين، الذي كان له قدر كبير من القوة على المغلوبين». إنه يتكلّم مثل فوكو حينما قابل مجموعة من المولا الإيرانيين في وقت الثورة الخمينية. لا بل إن فولتير يبرر حتى أعمال محمّد الحربية في المرحلة الأولى ويُثني على سماحة أتباعه في الفترة التالية: «في معاركه الأولى التي خاضها في بلاد العرب ضد أعداء كذبه (*contre les ennemis de son imposture*)، كان يُقتّل دون رحمة بني بلده الناكرين له. لم يكن في وقتها من القوة بحيث يمكنه أن يُبقِيَ على قيد الحياة أولئك الذين يمكنهم تدمير ديانته الوليدة؛ لكن بمُجرّد أن استقرّت ورسخت في بلاد العرب بالوعظ والحديد، العرب تخطّوا حدود بلدهم الذي لم يخرجوا منه حتى ذلك الوقت، فلَم يُكرِهوا أبداً الأجانب على اعتناق دينهم. لقد أعطوا دائماً للشعوب المَغلوبة خيار الدخول في الدين أو دفع ضريبة [الجزية]. كانوا يريدون النهب، والغلبة، والاستعباد، لكن ليس اجبار عبيدهم على الإيمان. وحينما اقتلعت منهم آسيا من طرف الأتراك والتّتار، حوّلوا غالبيهم أنفسهم إلى

(1) Ibidem.

دعاة لدينهم؛ وجحافل التتار أصبحت شعباً مسلماً كبيراً. من هذا نرى فعلاً أنهم أدخلوا في دينهم أكثر أناس ممّن أخضعوهم».

ما هي النتيجة التي استخلصها فولتير من هذه الخواطر؟ الحقيقة التاريخية التالية (*cette vérité historique*) ألا وهي أن «مُشَرِّع المسلمين، رجل قويّ ومرعب، أرسى تعاليمه بفضل شجاعته وسلاحه؛ إلاّ أن ديانته أصبحت ليّنة ومتسامحة. المعلّم الإلهي للمسيحية، عاش في التواضع والسلام، أمرَ بالعفو عن الاساءة؛ وديانته المقدسة والرقيقة أصبحت، بسبب شططنا، الديانة الأكثر تعصّبا والأكثر بربرية»[١]. هذه هي الخاطرة التي أوردها هشام جعيّط دون أن يستشهد بها في سياق نص فولتير.

إن القارئ الذي يكتفي بأقوال جعيّط لا يدري في الحقيقة من هو فولتير وما موقفه الصحيح من الإسلام، فهو لم يستعرض إلاّ نُتفا من أقواله، استعارها من كتّاب آخرين؛ لم يقدّم منه إلا الجانب السّلبي، ولم ير فيه، من وجهة نظره الشخصية، إلاّ المُتهجّم على الإسلام والناقد الصارم لكل الأديان. وحتى كتاب نورمان دانيال الذي رجع له جعيّط فهو محتار أمام فولتير ولم يحسم موقفه منه. وقد بَدَت هذه الظاهرة لنورمان دانيال دليل على التباس موقف عصر التنوير من الإسلام والذي يتمظهر في شخص فولتير[٢]. وقد نقل منه جعيّط فكرة المرحلتين اللتين مر بهما فولتير في مقاربته للإسلام. يقول نورمان «موقفه في

(1) Ibid, p. 169.

(2) N. DANIEL, *Islam and the West*, Oneworld Publications, Oxford 2009, p. 310. "The ambiguity of the Enlightenment about Islam is most obvious in Voltaire".

١٧٤٢ كان مختلفا عن موقف المسيحية القروسطية من ناحيتين فحسب. في مسرحيته «التعصّب أو محمد النبيّ»، فضّل صراحة أن يخترع أساطيره الخاصة بدلاً من استخدام تلك المنتشرة سابقاً والتي كانت على ما يبدو غير سَفيهة بما فيه الكفاية لتلبية غرضه؛ وحُجَجه ضد الإسلام لم تكن فقط، مثل الحجج القروسطية، بل يمكن استعمالها ضد كل الأديان السماوية. لكن الهجوم على محمد كان قناعا ممتازا، ورغم أن المسرحية اشتُبِه في كونها كانت مناهضة للملكية، فإن الحكيم بِنِدِيكت الرابع عشر قرأها بلذّة عارمة (*con sommo piacere*)»[١].

لا يَهمّنا كثيراً نورمان دانيال، لكن الشيء الذي ما كنّا ننتظره من جعيط، كمفكر عقلاني تنويري، هو إخراج فولتير في صورة مزرية، ومهاجمته فقط لأنه كان ناقدا للدين. وهذه هي السمة المميّزة لكل المؤمنين الذين جابهوا أفكار فولتير وكتاباته، يشترك فيها سواء كتّاب عرب مسلمون أو كتاب مسيحيون. في الوقت الذي يقول فيه جعيّط إن حكم فولتير على الإسلام كان قاسياً فإن كاتبا مسيحياً من القرن التاسع عشر ألقى على فولتير نفس اللّوم لتعامله غير الموقّر مع المسيحية. قال بينما كان بوسّويه (Bossuet) يحاول في بحوثه التاريخية العميقة أن يُقيّد الإنسان وراء العربة المنتصرة للمسيحية، فإن فولتير يَسخر من الإنسان ومن بؤسه[٢]. الأخطر من ذلك أنه يريد الاعلاء من شأن الحضارات والشعوب الأجنبية القاصية على حساب المسيحية، في الوقت الذي

(1) Ibidem.

(2) L'abbé MAYNARD, *Voltaire, sa vie et ses œuvres*, t. 2, Paris, Ambroise Bray, 1868, p. 527.

يقتضي فيه الحس السليم أن يكون العكس، كما فعل بوسّويه. فالمصريون واليونانيون والرومان، لم يكونوا، بالنسبة إلى هذا اللاهوتي، أجداداً وإنما الأجداد الصحاح هم أنبياء بني إسرائيل، ورُسل الربّ يسوع. لكن فولتير ما كان يرغب إزاء المسيحية، كما أكّد شاتوبريان، إلاّ أن يعمل لها إهانة طويلة (*une longue injure*)، والنتيجة هي أنه حكم على نفسه بإهانة البشرية قاطبة. لأن بالنسبة لهذا المؤمن المتعصّب، المسيحية هي البشرية كلّها، كما أن بالنسبة لجعيّط أعظم شيء في العالم هو الإسلام وكفى.

إن شغف فولتير بالشعوب القديمة التي هُضِمت حقوقها من طرف الكتاب الغربيين ومحاولته الاقتراب من الثقافات المغايرة واعادة الاعتبار لها، تؤرّق عقل إنسان مؤمن متسمّك باستثناء دينه وبعلوّ رجاله على الأمم الأخرى. قال إن فولتير، في كتابه **محاولة في الأخلاق**، يَرجع إلى العصور العتيقة، ويتكلم عن الشعوب التي تَجَاهلَها بُوسّويه، خصوصاً الهنود والصينيين، والذين لصالحهم ضحّى بالقدماء وبالأهمية الفريدة من نوعها لليهود: «إن هؤلاء الهنود والصينيين، الذين خصص لهم باستمرار عشرين موضعا متقدّما من الأعمال المنتصبة ضد الحقير (*l'infâme*)، يريد أن يستبدلهم عن اليهود، حاملي الوعود والآمال للإنسانية، ويذهب للتّفتيش عند هذه الشعوب، دون تاريخ أو دون تاريخ أصيل، عن المَهد الحقيقي للجنس البشري، عن الاسم الأعظم لله، وعن أصول المسيحية»[1].

كيف يجرؤ فولتير على الاعلاء من شأن الشعوب القاصية

(1) Ibid, p. 528.

والحضارات الغابرة؟ كيف يملك الجرأة على نقد المسيحية والحضارة الغربية؟ هذا الأمر، بالنسبة لمسيحي متعصّب، هو أعظم الخروقات التي يتجرّأ عليها عقلٌ في فرنسا وأوروبا كافة. اسألوا العلماء الغربيين عن قيمة هذه الشعوب وثقافتها، اسألوا العساكر الغربية عن قيمتهم الإنسانية: «ليس هناك من متخصص في الصّينيّات، ليس هناك من مُتضلّع في الهِنديّات اليوم لا يَضحك من أخطائه وجهالته؛ ليس هناك من جندي فرنسي، من بحّار إنجليزي، غير مُحِقّ في السخرية من الأهمية السخيفة المنسوبة إلى هذه الشعوب المتكوّنة من مئات الملايين من الناس، والتي تكفي شركة تجارية لكي تسيطر عليهم، طلقة مدفع من سفينة لكي تدحرهم بعيداً، فَيْلقاً واحداً من فَيَالقنا كي يتحكّم في مدن كبرى!»[1]. لقد أخطأ فولتير بتوجّهه نحو شعوب لا قيمة لها. هذه الشعوب، يكتب الراهب «هي خارج الحركة الكبرى للحضارة، والأمر كان دائماً كذلك»[2].

هكذا مرة أخرى فإن المقطع الذي اخترته من أحد نُقّاد فولتير من الكتاب المسيحيين يؤيّد المستشرقين، وخصوصاً رودنسون، ويكذب جعيّط، فضلاً عن أنه يجمع بين مواقف جعيّط ومواقف المسيحيين في وقوفهم ضد فولتير، لأنه دمّر المسيحية، شكك في تاريخها، هدم معالمها وداس على رموزها.

---

(1) Ibid, p. 530.

(2) Ibidem.

١١ ـ أسلِم تَسلم

لكن بالنسبة لجعيّط محاباة فولتير للإسلام وتقييماته الإيجابية لبعض جوانبه ـ وهي أمور محرجة بالنسبة للمفكر العقلاني ـ لا تكفي، كان عليه أن يفعل أكثر، ربّما أن يتوب إلى الله أو يعتنق الإسلام ويصرخ بالشهادة أمام الملأ.

لقد خصّص فولتير مقالاً كاملاً للقرآن في قاموسه الفلسفي، هذا المقال يذهب ضد مزاعم جعيّط من أن القرآن كان موضوع مظلمة من طرف الغرب. فولتير، على عكس ما فعله إزاء العهد القديم والإنجيل، يبرّز شريعة الإسلام ويُبدي إزاء القرآن نوعا من الانبهار. ويكفي الرجوع إلى مقاله بعنوان «قرآن» الذي دوّنه في قاموسه، حتى نتيقّن منذ لك. وإليك مقتطفات من هذا المقال[1] «هذا الكتاب، يحكم بصورة شمولية كل إفريقيا الشمالية من جبل الاطلس حتى صحراء برقة، مصر كلّها، سواحل البحر الأثيوبي على مدى ستة مائة فرسخ، سوريا آسيا الصغرى، كل البلدان التي تحيط بالبحر الأسود وبحر قزوين، ما عدا مملكة أستركان، كل امبراطورية الهندستان، كل بلاد فارس، جزء كبير

(1) VOLTAIRE, *Dizionario filosofico*, testo francese a fronte, a cura di Domenico Felice e Riccardo Campi, Bompiani 2013, p. 123 sgg.

من برّ التتار. في أوروبا: تراقيا، مقدونيا، بلغاريا، صربيا، البُوسنة، الوينان كلها، إبيروس وتقريبا كل الجزر حتى مضيق أوترانتو أين تنتهي كل هذه الممتلكات الهائلة.

في هذا الامتداد الهائل من الدول ليس هناك من مسلم له سعادة قراءة كتاباتنا المقدّسة؛ قليل من المثقفين بيننا يعرفون القرآن. كانت لدينا دائماً فكرة مضحكة عنه رغم البحوث الجيّدة لعلمائنا. السطور الأولى من هذا الكتاب تقول: «الحمد لله رب العالمين الرحمان الرحيم مالك يوم الدين... الآية». هذه هي المقدمة، بعدها تأتي ثلاثة حروف ا، ل، م، وهي حسب العالم سال (Sale) حروف لا يمكن فهمها بما أن كل مفسّر يفسّرها بطريقته، ولكن حسب الرأي السائد تعني: الله، لطيف، مجيد (Dieu, la grâce, la gloire). محمد يواصل، والله نفسه هو الذي يكلمه، بهذه الكلمات: «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين... في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا إلخ». يزعمون أن هذه الكلمات لها قوة مضاعفة مائة مرة باللغة العربية. فعلاً القرآن حتى اليوم يُعتبَر الكتاب الأكثر أناقة والأسمى الذي لم يكتب في هذه اللغة. لقد نسبنا إلى القرآن عدداً لا يحصى من الحماقات التي لم تكن فيه أبدا. وهذا مُوجّه أساساً ضد الأتراك الذين أصبحوا مسلمين، حيث عمد الرهبان إلى تأليف العديد من الكتب، حينما كنا عاجزين عن التصدّي لفاتحي القسطنطينية. كتّابنا الذين كانوا أكثر عدداً من الانكشاريين، لم تكن لديهم كثير متاعب لجلب النساء إلى صفّهم: لقد أقنعوهن أن محمداً لا ينظر إليهن على أنّهن حيوانات عاقلة؛ أنهن عبيدات لشريعة القرآن؛ لا يملكن أي شيء في هذا العالم، وأن في العالم الآخر لن يكون لهن أي نصيب من الجنة. كل هذا هو من البطلان الواضح؛ لكن اعتُقد فيه بجزم. ومع ذلك

يكفي قراءة السورتين الثانية والرابعة، لكي نتخلص من الوهم؛ وقد تُرجِمت من طرف راير (Ryer) الذي مكث مدة في القسطنطينية، من مرّاتشي الذي لم يسافر هناك قط، ومن سال (Sale) الذي عاش خمس وعشرين سنة بين العرب.

هذه الآيات تكفي بمفردها لكي تتصالح النساء مع محمد، الذي لم يُعاملهن بقسوة كما يُقال(١). نحن لا نَزعم تبريره، لا بالنسبة لجهله ولا لكذبه؛ ولكننا لا يمكن أن نُدينَه على معتقد الإله الواحد «الله أحد، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد»، هذه الكلمات، أقول، أخضعت له الشرق أكثر من سيفه. وبعد فإن هذا القرآن الذي نتحدث عنه هو خليط من الوحي المضحك والمواعظ المبهمة والمتناقضة، ولكن قوانينه جيّدة للبلد الذي سُنّت فيه، وهي كلها مُتَّبَعة إلى الآن دون أن تضعف أبداً أو تُغيّر من طرف مفسّرين مسلمين، أو عن طريق مراسم جديدة [...] حينما تفطّن أعداؤه أنهم لا يستطيعون تسفيهه، بثوا الدعاية من أنه ليس هو مؤلف القرآن، أو على الأقل أنه يستعين بشخص آخر لكتابة صحفه، تارة بعالم يهودي وتارة أخرى بعالم مسيحي، بافتراض أن في ذلك الزمن كان هناك علماء [...] محمد أجاب عن هذه التّهمة في فصل ١٦، بمناسبة حماقة كبيرة صرّح بها من المِنبَر، والتي لوحظت بسرعة. هاكم كيف انسلّ من المأزق: «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون... وإذا بدّلنا آية مكان آية والله أعلم بما يُنزّل قالوا إنّما أنت مُفترٍ بل أكثرهم لا يعلمون. قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ ليُثبّت الذين

(1) Ibid, p. 124.

آمنوا... ولقد نَعلم أنهم يقولون إنما يُعلّمه بشرٌ. لسان الذي يلحدون إليه أعجميّ وهذا لسان عربيّ مُبين».

الشخص الذي يزعمون أنه يعمل مع محمد كان يهوديا اسمه ابن سالن أو بن سلون. من المستبعد أن يهوديا قد علّم محمد كتابة أشياء ضد اليهود؛ لكن الأمر ليس مستحيلا [...] يقال إن القرآن آري، سابيلي، قردونسي، مانوي، دوناتي، أوريجي، مقدوني، إبيوني. لكن محمداً لم يكن شيئاً من هذا؛ كان على العكس جنينيست (janséniste)؛ لأن جوهر عقيدته هو القضاء القدر. ويواصل فولتير: إنه مهرّج بارع رائع هذا المحمد بن عبد الله. يقول في فصله العاشر: «وما كان هذا القرآن أن يُفتَرى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. في السابع عشر يصرخ: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام du sacré temple de la Mecque à celui de) إلى المسجد الأقصى (Jérusalem)». إنها سفرة رائعة، لكن لا شيء بالمقارنة مع تلك التي قام بها، في الليلة نفسها، من كوكب إلى آخر، ومع الأشياء الجميلة التي رآها. لقد قال إن هناك مسيرة خمسة مائة سنة بين كوكب وآخر، وأنه شق القمر إلى نصفين. أتباعه الذين جمعوا بكل مهابة آيات القرآن بعد موته، مَحَوا هذه الرحلة السماوية. خافوا من ردة فعل الساخرين والفلاسفة. لكن هذا افراط في الحذر. كان بإمكانهم أن يعوّلوا على المفسّرين الذين سيعرفون جيداً تبيين المسار. أصحاب محمد يجب عليهم أن يعرفوا بالتجربة أنّ البديع المبهر هو عقل الشّعب. الحكماء يناقضون في السّر، والشعب يُسكتهم. لكن بمحوهم معراج الكواكب

تركوا كلمات صغيرة عن مغامرة القمر (شق القمر)، لا يمكنك أن تكون حذراً في كل شيء. القرآن هو رابسوديا بلا رابط، بلا نظام، بلا فنّ؛ ومع ذلك يقولون إن هذا الكتاب المُمِلّ هو كتاب جميل جدّاً؛ أحيل في هذا على العرب الذين يزعمون أنه كُتِبَ بأسلوب أنيق وصاف بحيث أنه لا واحد استطاع مضاهاته منذ تلك اللحظة. إنه قصيدة، أو نوع من النثر المُقَفّى، يحتوي على ستة آلاف بيت. ليس هناك من شاعر نال شخصه وعمله مثل هذه الشهرة.

لقد أثيرت بين المسلمين مسألة هل أن القرآن قديم، أو هل أن الله كان قد خلَقه لكي يُمليه على محمد. اللاهوتيون قرّروا أنه قديم؛ ولهم الحق في ذلك، لأن هذا القِدم هو بالفعل أحسن من الرأي الآخر. يجب دائماً الانحياز مع العامة إلى الطرف الأكثر خرقاً للعادة. إن الرهبان الذين أطلقوا العنان للهجوم على محمد، والذين قالوا حماقات كثيرة على كاهله، زعموا أنه جاهل بالكتابة. لكن كيف نتخيّل شخصاً كان تاجراً، شاعراً، مشرّعاً وقائداً، لا يعرف توقيع اسمه؟ كتابه قبيح لزماننا ولنا نحن، لكنه كان جيداً بالنسبة لمعاصريه، ودينه أكثر جودة. يجب الاعتراف بأنه خلّص آسيا كلها من الوثنية. علّم وحدة الله، صرخ بقوة ضد الذين وضعوا له شركاء. الربا مع الغرباء عنده ممنوع، الصدقة مأمور بها. الصلاة هي ضرورة مطلقة؛ الخضوع للقرارات الخالدة هو المحرّك الكبير لكل شيء. كان من الصعب جدّاً على دين بهذه البساطة والحكمة، مُلقّن من طرف رجل منتصر دائماً، أن لا يُخضِع جزء كبيراً من الأرض. فعلاً، المسلمون جلبوا لدينهم العديد من الناس بالكلمة أكثر منه بالسيف. لقد أدخلوا في دينهم الهنود وحتى الزنوج. الأتراك أنفسهم، الذين انتصروا عليهم، خضعوا إلى الإسلام»

«لقد كان لدى محمد التواضع للاعتراف في قرآنه بأنه هو نفسه لن يدخل الجنة بأعماله، وإنما بمحض إرادة الله. وأيضا بمحض هذه الإرادة أمَرَ بأن يأخذ النبيّ خمس الغنائم. [...] بكلمة واحدة، قوانينه المدنية (ses lois civiles) جيدة، عقيدته مثيرة للإعجاب بما فيها من توافق معنا، لكن الوسائل رهيبة؛ إنها المكر والقتل[١]. قد يُعذر من ناحية المُكر، لأنه يقال، إن العرب يعدّون قبله مائة وأربعة وعشرين نبيّاً، ولا ضرر في أن يبرز واحد زيادة. الناس - يضيفون - هم في حاجة لمن يخدعهم. لكن كيف يمكن تبرير شخص يقول لك: «آمن بأني تكلّمت مع الملك جبريل أو ادفع لي ضريبة»؟ كم هو أفضل كنفوشيوس، أوّل البشر الذين لم ينزل عليهم وحي؛ لم يستعمل إلاّ العقل، لا الكذب ولا السيف. نائب ملكٍ لمحافظة كبيرة، نشر فيها الأخلاق والقوانين: فقير ومُعدم، عَلّمَها ومارَسَها في الرّخاء والشدّة؛ جعل الفضيلة محبوبة، أتباعه من أقدم وأحكم الشعوب»[٢].

(1) Ibid, p. 130.

(2) Ibidem.

١٢ ـ لا تلقي على فولتير باللائمة

كيف يطلب من فولتير أن يَعفي القرآن ومحمد والإسلام من النقد؟ كيف يعيب على فولتير استخدام عقله بحرّية؟ إن مَكنة نقدية رهيبة، مثل عقل فولتير، ستتعطّل لو تخلى الرجل عن حقّه في النقد. وبَعد فإن كلماته المحابية للإسلام في حد ذاتها محرجة جدّاً لعقل نقدي صارم، فما بالك لو أنه صادر ملكاته النقدية تماماً وأسكتها أمام المقدس. لكن فولتير صديق الجنس البشري، تعلّم الدرس اللوكريسي، ويدرك جيّدا بالتالي أنّ الدين هو السبب الرئيسي لخَراب الأمم، لتحويل البشرية إلى قطيع من المجانين السفاحين. يكفي الاطلاع على المقالات التي دونها في قاموسه، حتى نعي بأن هذا الرجل لا يهادن مع أي دين ولا يوقّر أي نبيّ وأي كتاب «مقدس». إن دين فولتير، لو سمح لنا بالتحدث عن دين لرجل بهذا القدر من الفطنة والتبصّر، هو اللادين. يعني كما قال هو: «أعبد الله، أحاول أن أكون عادلاً، وأن أتعلّم»(١). لا يتعلّق بأي كتاب «مقدّس» لأنها كتب غامضة، مشتتة، متناقضة وغير مفهومة، من الأفضل التعلّم من كتاب الطبيعة.

---

(1) VOLTAIRE, *Catéchisme de l'honnête homme*, in *Œuvres de Voltaire*, t.25, Paris, Librairie Hachette, 1893, p. 353.

العهد القديم؟ مملوء تناقضات وحكايات صبيانية متهافتة. عملياً، محال أن يكتب موسى في صحراء قاحلة تلك الصحف التي تُنسب إليه. إن كان شعبه قد عاش في مصر لمدّة أربع مائة عام، كان من المفروض أن يؤلّف هذا الكتاب بالمصرية وليس بالعبرية كما يزعمون. يجب أن يكون مدوّنا على الحجر أو على الألواح، لم تكن هناك طريقة أخرى للكتابة. إنه فن عويص جدّاً، يتطلب تحضيرات طويلة وشاقة، ولا يبدو أن هذا الفن متاح في صحراء حيث، حسب هذا الكتاب ذاته، الحشد اليهودي ليس لديه امكانية عمل ملابس وأحذية، والله كان مضطراً أن يقوم بمعجزة متواصلة لأربعين سنة كي يحافظ على ثيابهم ونِعالهم من التلف[١]. إن الرّجال الأكثر اختصاصاً في دراسة الكتب القديمة يعتقدون أن هذه الكتب دُوّنت بعد موسى بأكثر من سبع مائة سنة. هم يعتمدون على حقيقة أنه يتحدث عن الملوك، والملوك لم يوجدوا إلاّ بعد موسى بوقت طويل؛ يصف مواقع مدن، ستكون خاطئة إذا ألّف الكتاب في الصحراء، صحيحة إن كتب في أورشليم؛ يذكر أسماء مُدن أو قُرى لم تكن موجودة، ولكنّها أسّست أو حصلت على أسمائها بعد قرون من ذكرها.

أما الشيء الذي يجعلنا أكثر حيرة إزاء الكتب المنسوبة إلى موسى، يقول فولتير، هو أن خلود النفس، الحساب والعقاب بعد الموت هي أمور مجهولة تماماً في شريعته. من الغريب أنه يتكلّم عن الطريقة التي يجب أن يتغوّطوا بها ولم يتكلّم في أي مقطع عن خلود النفس. هل من الممكن أن موسى، نبياً ملهماً من الله، فضّل مؤخّراتنا على أرواحنا؟ أنه

(١) التثنية ٢٩، ٥.

شرّع لبني إسرائيل طريقة الذهاب إلى المرحاض، ولم يقل كلمة واحدة عن الحياة الأبدية؟ زرادشت، سابق للمشرّع اليهودي بقرون، يقول: «بِرّوا والديكم وأحبّوهم إن كنتم ترغبون في الحصول على الحياة الأبدية»؛ الوصايا العشر تقول: «أكرم أباك وأمّك لكي تطول أيامك على الأرض»[1].

الأحداث المرويّة في أسفار موسى تُدوّخ أولئك الذين قضى عليهم القدر التعيس بأن يحكموا على الأشياء فقط على أساس العقل وحيث أن هذا العقل أعمى وغير منوّر بنعمة خاصة. إن الفصل الأول من سفر التكوين هو من البُعد عن تصوراتنا إلى درجة أنه تم منع قراءته بين اليهود قبل بلوغ الخامسة والعشرين سنة. نقرأ فيه بصدمة عارمة أن الله يأتي لكي يتنزّه كلّ يوم في منتصف النهار في جنّة عدن؛ أن منابع أنهار أربعة، فُصِلت بمعجزة عن بعضها، وشكّلت نافورة في تلك الحديقة؛ أن ثعبانا يتكلم مع حوّاء، وهو أرق الحيوانات، وأن أتانا (أنثى حمار) ليست أرقّ الحيوانات، تتكلّم هي أيضاً عدّة قرون بعده[2]؛ أن الله فصل النور عن الظلمات كما لو أن الظلمات كانت شيئاً ملموساً واقعياً؛ أنه خلق النور، الذي يصدر من الشمس قبل الشمس؛ أنه بعد أن خلق الرجل والمرأة، اشتق بعد ذلك المرأة من ضلع الرجل وأنه وضع لحما مكان ذلك الضلع؛ أنه حكم على آدم وذرّيته كلها بالإعدام لأجل تفّاحة؛ أنه أخذ تحت حمايته قابيل الذي اغتال أخيه، وأن قابيل هذا خاف أن يقتله الرجال الذين يعمرون الأرض آنذاك، بينما، حسب

(١) التكوين ٢٠، ١٢.
(٢) العدد ٢٢، ٢٨.

النص، الجنس البشري مقتصر على أسرة آدم؛ أن ينابيع خيالية في السماء غمَرت الأرض؛ وأن كل الحيوانات حفظت لسنة كاملة في سفينة[1].

بعد هذه الكمية الهائلة من الخرافات التي تبدو كلها أكثر عبثية من ميتامورفوز أوفيد، لا تسكن دهشتنا حينما نعلم أن الله يخلّص من العبودية في مصر ستة مائة ألف مقاتل من شعبه، ناهيك عن الشيوخ والأطفال والنساء؛ وأن ستة مائة مقاتل بعد المعجزات الباهرة هربوا عوض أن يتصدّوا لأعدائهم ويحاربوهم؛ وبفرارهم لم يأخذوا طريق البلد الذي قادهم إليه الله؛ وأن الله فتح لهم البحر الأحمر وجعَلهم يعبرونه بأرجلهم وهي جافة لكي يقضي عليهم من بعد ذلك في صحاري رهيبة، عوض أن يقودهم إلى الأرض التي وعدهم إياها؛ أن هذا الشعب، تحت يد (حماية) وتحت عين (مراقبة) الله نفسه، يسأل أخا موسى عجلاً من ذهب لكي يَعبده؛ وأن هذا العجل صِيغ من الذهب الخالص في يوم واحد؛ وأن موسى سيّر ذلك الذهب إلى تراب شفّاف جَرّعه إلى الشعب؛ أن ثلاث وعشرين رجلاً من هذا الشعب ذبِحوا من قِبَل اللاّويين، كعقاب على عملهم هذا العجل الذهبي، في الوقت الذي كوفئ فيه هارون، الذي صهر الذهب، بإعلانه حبراً أعظم[2]؛ وأن مائتين وخمسين رجلاً أحرِقوا من جهة، وأربعة عشر ألفاً وسبع مائة من جهة أخرى، لأنهم رفضوا منح طقس البخور لهارون؛ وأن في مناسبة أخرى، موسى قام أيضاً بقتل أربعة وعشرين فرد من

(١) التكوين ٧، ٨ ـ ٩.

(٢) الخروج ٣٢، ٣٥؛ اللاويين ٨.

شعبه. إذا أردنا التقيّد بأبسط المعارف الفيزيائية، دون الالتجاء إلى القدرة الإلهية، من الصعب الاعتقاد في وجود ماء قادر على أن يقتل النسوة الزانيات ويترك النساء المُخلصات. أكثر من ذلك نحن نمكث بهتين كيف يعثر الشعب اليهودي، في قرية من البلد الصغير مَدْيَن، على ستمائة وخمس وسبعين ألف خروف، اثنان وسبعين ألف بقرة، واحد وستين ألف حمار، اثنين وثلاثين ألف فتات؛ نرتعد رعبا حينما نقرأ أن اليهود، بأمر من الربّ، ذبحوا جميع الذكور وكل الأرامل، الزوجات والأمّهات، وتركوا فقط ابناء العم. الشمس التي تقف في عزّ وقت الزوال لكي تعطي وقتا أطول لليهود كي يقتلوا العموريين، والذين كانوا قد أُنهِكوا بوابلٍ من الحجارة سقطت من السماء؛ نهر الأردن الذي يفتح قاعه مثل البحر الأحمر لكي يفسح المجال لكل ذلك الحشد كي يمر بسهولة؛ أسوار جرش التي تتحطّم بالنفخ في الصور: كثير من المعجزات من أي لون والتي تفرض للاعتقاد فيها، التضحية بالعقل والرّكون للايمان الأعمى. وفي الأخير، إلى ماذا أدت هذه المعجزات العديدة التي فعلها الله ذاته لمدة قرون لصالح شعبه؟ إلى جعله دائماً تقريباً عبداً للأمم الأخرى. كل رواية شمشون ومغامراته العشقية، وشعره، وأسده، والثلاثة مائة ثعلب، تبدو وكأنها مجعولة لتَسلِية الخيال أكثر منه لبناء الروح. حكاية يشوع ويافت تبدو بربرية. إن تاريخ الملوك هو حبكة من القسوة والتقتيل تُدمي القلب. كل الأحداث تقريباً هي غير قابلة للتصديق. الملك اليهودي الأول شاؤول وجد عند شعبه سيفين فقط، وخليفته داود ترك أكثر من عشرين مليار دينار نقدا. أنتم تقولون إن هذه الكتب قد كتبها الله نفسه؛ أنتم تعرفون أن الله لا يمكنه أن يكذب: إذن إذا كان هناك حدث واحداً كاذب، فكل الكتاب هو خدعة.

الأنبياء ليسوا أقل إثارة للقرف بالنسبة لمن لا يملك موهبة اختراق المعنى الخفيّ والاستعاري للكتب المقدّسة. من المؤلم تصوّر **إرميا** يحمل سرجاً وطوقاً ويقيّد بحبل؛ **هوشع**، الذي يأمره الله بصورة رسمية بأن يُنجب أبناءَ قحبةٍ من مُومس، وبعدها من امرأة زانية؛ **أشعياء**، الذي يَتمشّى عارياً تماماً في الساحة العامة؛ **حزقيال**، الذي يجثم لثلاث مائة وتسعين يوما على الجانب الأيسر، وأربعين على الجانب الأيمن، أن يأكل كتابا من البردي، أن يغطي خبزه ببراز إنساني، وبعدها بروث بقرة؛ أهولا وأهوليبا، اللذان وضعا بيتا للدعارة واللذان يقول لهما الله أنهما يحبان فقط قضيب حمار ومَنيّ حصان. أكيد، أن القارئ إذا لم يكن خبيراً بعادات البلد وبالطريقة في التنبؤ، فإنه سيصاب بصدمة كبرى؛ وحينما يري اليَسع يقوم بافتراس أربعين صبياً فقط لأنهم سمّوه أصلع، إن هكذا عقاب غير متناسب مع الاساءة يمكن أن يوحي له بالرعب أكثر منه بالاحترام»[1].

السؤال الذي يطرحه فولتير على المسيحيين وجيه ومُحرج للغاية: «نرى باختصار أن شريعة اليهود لم تَبْدُ لكم حسنة، نظراً إلى أنكم تخلّيتم عنها: لو كانت فعلاً حسنة في الواقع لماذا لم تواصلوا في العمل بها دائما؟ ولو كانت قبيحة، كيف يمكنها أن تكون إلهية؟» الجواب البديهي هو أن العهد الجديد عوّض شريعة موسى القاسية بشريعة المسيح الإنسانية. لكن ولا هذا الجواب يقنع فولتير، لأن حتى بالنسبة إلى الإنجيل فإن فولتير له اعتراضات رهيبة. «لقد قرأت كليهما بعناية...

---

(١) أرميا ٢٧، ٢؛ هوشع ١، ٢ و٣، ١؛ أشعيا ٢٠، ٢؛ حزقيال ٤، ٤...؛ ٢٣؛ الملوك الثاني ٢، ٢٣ ـ ٢٤.

أصطدم ببعض من المسيحيين الأرمن الذين يقولون إن أكل الأرانب غير مسموح به؛ بيونانيين يؤكدون أن الروح القدس لا يُشتقّ أبداً من الابن؛ بنَسْتوريّين ينكرون أن تكون مريم أم الله؛ ببعض اللاتين الذين يتباهون بأن في أقصى الغرب مسيحيو أوروبا يفكرون بطريقة مختلفة جدّاً عن أولئك الذين يقطنون في آسيا وإفريقيا. أعلمُ أن عشرة أو اثني عشرة طائفة في أوروبا يكفرون بعضهم البعض؛ المسلمون المحيطون بي ينظرون بنوع من الاحتقار إلى كل المسيحيين الذين على الرغم من ذلك يتسامحون معهم. اليهود يَلعنون سواء المسيحيين أو المسلمين؛ الزرادشتيون يحتقرونهم جميعا؛ وتلك الأقلية التي بقيت من الصابئين لا يريدون أبداً الغذاء مع أي واحد منهم؛ البراهماني لا يتحمل لا الصابئ ولا الزرادشتي ولا المسيحيين ولا المسلمين ولا اليهود.

لقد تمنّيتُ مائة مرّة أن يسوع المسيح، الذي جاء لكي يتجسد في يهوذا، عرف كيف يجمع تحت شريعته كل هذه الطوائف. تساءلتُ لأي سبب، بما أنه هو الله، لم يستفد من حقوق الالوهية؟ لو أنه بالفعل جاء لكي يخلّصنا من الخطيئة، فلماذا تركنا في الخطيئة؟ إن جاء لكي يُنوّر كل البشر، لماذا ترك البشرية كلها تقريباً في الخطأ؟ أعرف أنني لا شيء، أعرف أنني من قاع هذا العدم لا يمكنني أن أسائل الوجود الأسمى؛ لكن مسموح لي، مثلما كان مسموحاً لأيوب، أن أرفع آهاتي المحترمة من باطن بؤسي. ماذا تريدونني أن أعتقد حينما أرى اثنين من سلاسل النسب ليسوع، كل واحدة منها هي مباشرة مناقضة للأخرى؟ وحينما أرى أن سلاسل النسب هذه، والتي تختلف في الاسماء وعدد الأجداد، ليست حتى ليسوع، ولكن لأبيه يوسف، الذي هو ليس بأبيه؟ (متّى ١، ١ ـ ٧؛ لوقا ٣، ٢٣ ـ ٣٧). أعذّبُ دماغي لكي أفهمَ كيف

لإله أن يموت؟ أقرأ الكتب المقدسة والدّنيوية لذلك الزمن، واحد فقط من هذه الكتب المقدسة يقول لي إن نجما طَلع من الشرق وقاد المجوس إلى قدمي الله الذي ولد للتوّ.

ليس هناك أيّ كتاب دُنيوي ذكرَ هذا الحدث الذي لا يُنسى أبداً، الذي من المفروض أن يكون قد شاهده سكان الأرض جميعاً ودُوّن في حوليّات الدول كلّها. واحد فقط من كتّاب الإنجيل يقول لي أن ملكا اسمه عيرود، الذي منَحه الرومان، أسياد العالم المعروف، حكم يهوذا سمع بخبر أن الطفل الذي ولد للتوّ في اسطبل سيكون ملك اليهود؛ لكن كيف، ومن أين، وعلى أي أساس وصل إلى مسامعه هذا النبأ الغريب؟ هل من الممكن أن هذا الملك، الذي لم يفقد عقله، تصوّر فكرة ذبح كل الأطفال الرضّع في البلاد لكي يضمّ للمذبحة رضيعا مجهولا؟ هل هناك على الأرض مثال لغضب بهذا القدر من الفظاعة والجنون؟ أرى أن الأناجيل التي بقيت لدينا تتناقض تقريباً في كل صفحة. أفتح تاريخ يوسفوس، كاتب معاصر؛ يوسفوس، قريب ماريانا، ضحّى بها عيرود؛ يوسفوس، عدوّ طبيعي لهذا الأمير، لم يقل كلمة عن هذه الحادثة؛ إنه يهودي، ولم يشر ولو مرّة إلى هذا اليسوع الذي وُلِد بين اليهود. كم من الشكوك تضطهدني في البحث الجدّي عمّا يجب أن أعبد وعمّا يجب أن أعتقد. أقرأ الأناجيل، ولا أجد في أي مقطع أن يسوع، لاحقاً اعترف به كإله، أو سمّى نفسه إلهاً؛ لا بل أرى عكس ذلك تماما: يقول إن أباه هو أكبر منه، إن الآب فقط هو الذي يعرف ما يجهله الابن[1]. وأيضا كيف يمكن أن نفهم عبارات آب وابن

---

(١) انظر: يوحنا ١٤، ٢٨؛ متّى ٢٤، ٣٦؛ مرقس ١٣، ٣٢.

عند شعب حيث بكلمة ابن بليعال يُراد الشرّير، وبكلمة ابن الله يشار إلى الرجال العادلين؟ أنا أتبنّى بعض القوانين الأخلاقية ليسوع؛ ولكن أيّ مُشرّع عَلّم أخلاقاً سيّئة؟ في أي دين لا يُحظر الزنا، السرقة، القتل، الكذب، ولا يُؤمَر صراحة بِبِرّ الوالدين، الانصياع للقوانين، العمل بكل الفضائل؟

كلّما تعمّقت في القراءة كلّما ازدادت حيرتي. أبحث عن معجزات جديرة بإله، ومشهورة عالميا. أتجرّأ على القول، بتلك السذاجة السخية لمن يخشى الكفر، أن الشياطين التي أرسلت في أجسام قطيع من الخنازير، الماء الذي يتحوّل إلى خمر لمجموعة رجال هم في حالة سكر، شجرة تين جُففت لأنها لم تُثمر قبل أوانها[1] وهكذا دواليك، لا تستجيب إلى الفكرة التي كوّنتُها عن سيّد الطبيعة كمن يعلن ويبرهن على الحقيقة بمعجزات فائقة ومفيدة. هل أستطيع أن أعبد سيّد الطبيعة في هذا اليهودي، الذي يقولون لي إن الشيطان حمله على قمّة جبل ومنها شاهد كل مملكات الأرض؟ أقرأ الكلمات التي تُنسَبُ إليه؛ أرى قدوما وشيكا لملكوت السماء كحبّة خردل، كشبَكَة لاصطياد السمك، كنقود أعيرت بربًى، كعشاء يرغم على الدخول عميان وعرج، يسوع يقول إنه لا يوضع خمر في إناء قديم، إن الخمر القديم أفضل من الجديد[2]. أهكذا يتكلّم الله؟ أخيراً كيف أستطيع أن أتعرّف على الله في يهودي من العامّة، حُكم عليه بالإعدام لأنه تكلّم بسوء عن القضاة للعامّة، وأنه

---

(١) متّى ٨، ٣٢؛ مرقص ٥، ١٣؛ يوحنا ٢، ٩؛ متّى ٢١، ١٩؛ مرقص ٩، ١٣.
(٢) متّى ١٣، ٣١، ٤٧؛ ٢٥، ٢٧؛ لوقا ١٩، ٢٣؛ ١٤، ٢١؛ متّى ٩، ١٧؛ مرقص ٢، ٢٢؛ لوقا ٥، ٣٧، ٣٩.

تصبّب عرقَ دم[١] من الرعب ومن والخوف الذي استبدّ به بسبب الموت؟ ماذا نقول إذن في أفلاطون؟ أو ما ذا نقول في سقراط، في أونطونين، في إيبيكتات، في سلوق، في صولون، في كنفشيوس؟ مَن مِن بين هؤلاء جميعاً لم يتكلّم بطريقة أكثر استجابة للأفكار التي نملكها عن الحكمة؟ وبأي وسيلة يمكننا أن نحكم سوى بأفكارنا؟».

بالنسبة لفولتير أقوال المسيح في الأناجيل ليست حكيمة، وقد أعاد تكرار هذه الاعتراضات في كل كتاباته، ولكنه عزاها إلى زيغ السلف والرّواة. قال في «حوار بين الشكاك والعابد» إنهم ينسبون إليه أشياء لا يمكن أن يفعلها أو يقولها أي حكيم في العالم. إن حكيما ما «لا يمكن أن يبحث عن التين من شجرة تين في غرة مارس، ولَعْنها لأنها لم تثمر تينا. حكيم لا يمكنه أن يحوّل الماء إلى خمر لكي يُسكر أناساً سكارى. حكيم لا يمكن أن يبعث شياطين في أجسام خنازير في بلد ليس فيه بتاتاً خنازير. حكيم لا يتحوّل خلال الليل لكي يلبس ثياباً بيضاء. حكيم لا يتم حمله من الشيطان[٢]. إن حكيماً ما حينما يقول إن الله هو أبوه، يعني دون شك القول بأن الله أب كل البشرية: المعنى الذي أريدَ به تفسير هذه القولة، هو فظيع ومجدّف»[٣].

والحال أن المؤمنين الذين أدركوا حقيقة أن فولتير يحاول تهديم المسيحية من الجذور عن طريق تهديم سلطة الإنجيل لم يجانبوا

---

(١) لوقا ٢٢، ٤٤.

(٢) متّى ٢١، ١٨ ـ ١٩؛ ١٧، ٢؛ ٤، ٨؛ مرقص ٩، ١٣؛ ٥، ١٣؛ ٩، ٢؛ لوقا ٩، ٢٩؛ ٤، ٥. يوحنّا ٢، ٩.

(3) VOLTAIRE, *Dialogue du douteur et de l'adorateur, in Œuvres complètes de Voltaire,* t. 26, Paris, Hachette, 1893, p. 7.

الصواب، ولكنه صواب المؤمنين، يعني اللاصواب وإنما التعصب والجهل. تهديم الإنجيل من الجذور يبدأ بالتشكيك في صحّته: «يبدو أن أقوال وأفعال هذا الحكيم قد جُمعت بطريقة سيئة جدّاً؛ أن تكون العديد من قصص حياته قد كُتبت تسعين سنة بعده، وتم اختيار تلك التي هي غير مرجّحة وذلك لأنه يُعتقد أنها يمكن أن تكون في غاية الأهمية بالنسبة للبلهاء. كل كاتب يجتهد لكي يجعل هذه القصة خارقة للعادة. كل مجموعة مسيحية مصغّرة كانت تملك إنجيلها الخاصّ. وهذا هو السبب الواضح لعدم اتفاق هذه الأناجيل تقريباً على أي شيء. إذا صدّقتم إنجيلاً واحداً، فأنتم مجبرون على التخلّي عن الباقي. إن تناقضا مستديما يثير الضحك كأمارة للحقيقة، والحماقات التي تتضارب في ما بينها هي نوع كوميدي من الحكمة»[1].

قد تكون هناك نصائح جميلة وحكيمة في أقوال يسوع في الأناجيل، يمكن للمرء أن يتبعها ويسير على هديها، صحيح لكن ليست كلّها: «لقد مكثتُ متألّماً حينما قرأت: «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَماً عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَماً بَلْ سَيْفاً. فَإِنِّي جِئْتُ لِأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا»[2]. أعترف لكم أن هذه الكلمات تركتني متألّما ومَرعُوبا، وإذا اعتبرتُ هذه الكلمات كنبوّة يمكنني أن أعتقد أني أرى تحقّقها في المجادلات التي قسمت المسيحيين منذ الأزمان الأولى، في الحروب الأهلية التي سلّحت أيديهم طوال قرون عديدة، في اغتيال العديد من الأمراء، في المصائب الفظيعة للعديد من العوائل.

(1) Ibidem.

(٢) متى ١٠، ٣٤ ـ ٣٥.

أعترف أيضاً، يواصل فولتير، أن مشاعر السخط والشفقة أثيرت في قلبي عندما أمر بطرس بجلب دنانير أتباعه بين رجليه. حنانيا وسفيرا[1] احتفظا لنفسهما بشيء من عائدات بيع حقلهما، لكن لم يَبُوحا به، وبطرس عاقبهما بقتل في الحين الزوج والزوجة. واحسرتاه! ليست هذه هي المعجزة التي كنت أترقّبها ممّن يقول إنه لا يريد موت المُذنب، وإنما الهداية. لقد تجرّأت على الاعتقاد أن الله، إن أراد فعل المعجزات، كان من الواجب عليه أن يفعلها لكي يداوي البشرية وليس لكي يقتلها؛ لكي يُقوّمَها لا لكي يهلكها؛ لأنه إله الرحمة، وليس طاغية مجرما.. ما عكّرني في هذه الحكاية، هو أن بطرس، الذي كان قد قتل عنانيا، حينما رأى زوجته سفيرا مُقبِلة، لم يُنذرها، لم يَقل لها: «حذار أن تحتفظي لك ببعض الدراهم؛ إنْ فعلت، فاعترفي حالاً، سلّمي كل شيء، اتّعِظي بمصير زوجك»، لكن على العكس منذ ذلك، أوقعها في الفخ: يبدو وكأنه يتلذّذ بإيقاع ضحيّة ثانية. أعترفُ أن هذه المغامرة أصابتني دائماً بالقشعريرة، ولم أُعَزِّ نفسي إلاّ حينما تفطّنتُ إلى مدى استِحالتَها وسُخفَها».

لم يكتف بهذا بل إنه فولتير كما لو كان في عدو حرّ يصفي حساباته مع المسيحية ذاتها، ويُقوّضها من أسسها على مستوى التاريخ والكتاب: «أواصل وأقول لم أجد أي أثر للمسيحية في تاريخ يسوع. الأناجيل الأربعة التي بقيت لنا، تتضارب في وقائع عديدة، لكنها تشهد كلها أن يسوع كان خاضعا لشريعة موسى من لحظة ولادته إلى موته. جميع تلاميذه كانوا يَرتادون المعبد: يطلبون إصلاحاً، ولا يبشرون بدين

(١) أعمال الرّسل ٥، ١ ـ ١٠.

جديد؛ لم يتمّ فصل المسيحيين عن اليهود إلاّ بعد وقت طويل. في أي وقت بالتحديد أراد الله أن يُكَفّ عن أن يكون الناس يهوداً ويصبحوا مسيحيّين؟ منَ ذا الذي لا يرى أن الزمن هو الذي فعل كل شيء، أنّ كل المعتقدات جاءت الواحدة تلو الأخرى؟ إذا أراد يسوع إقامة كنيسة مسيحية، أما كان عليه أن يُعلّم شريعتها؟ أما كان عليه هو شخصياً إرساء كل الطقوس؟ أما كان من واجبه أن يُعلن الأسرار السبعة التي لم يتكلّم عنها أبدا؟ ألا يجب عليه أن يقول: «أنا الله، مولود وليس مخلوق؛ الروح القدس يفيض من أبي دون أن يكون مولودا؛ لديّ إرادتان وشخص واحد، أمي هي أم الله»؟ لكن على العكس، فقد قال لأمّه: «مَا لِي وَلَكِ يَا امْرَأَةُ؟»[1]. لم يُرسِ لا مُعتقداً، لا طقساً ولا هرميّة: ليس هو إذن الذي فعل دينه». التاريخ الإسلامي والأحاديث كلها خرافات وفظاعة، لكن المسيحيين لا يختلفون عنها، لقد رضعوا خرافات اليهود وأعادوا تكريسها من جديد: «بينما بدأت المعتقدات الأولى تستقرّ، أرى المسيحيين يؤيدون هذه المعتقدات بكُتُب خياليّة؛ يختلقون حكايات وعجائب، عبثيّتها مَلموسة. تلك مثلاً هي حكاية مدينة اورشليم الجديدة مبنية في الهواء، والتي قُطر أسوارها وعُلوّها خمسمائة فرسخ، والتي تسير تتجوّل في الأفق أثناء الليل ثم تختفي مع بزوغ النهار؛ كذلك هي المماحكة بين بطرس وسيمون الساحر أمام نيرون؛ كذلك أيضاً مائة حكاية ليست أقل خلفا. كم من المعجزات الصبيانية تمّ اختلاقها! كم من الشهداء المزوّرين، كم من الأساطير المضحكة!

---

(١) متّى ٢، ٤.

كيف وصلت العنجهيّة بالشخص الذي كتب أسطورة لوقا تحت اسم البِشارة السارّة، إلى حد القول: لن يمرّ الجيل الذي يعيش فيه دون أن تتزعزع أسس السماوات؛ دون أن تبرز أمارات في الشمس، في القمر وفي النّجوم؛ دون، أخيراً، أن يأتي يسوع في ظلل من الغمام بقوّة كبيرة وعظمة فائقة؟ من الأكيد أنه لم تكن هناك أي علامة في الشمس، في القمر وفي النجوم، ولا أي تزعزع في السماء، لا أي يسوع جاء بجلاله على السحاب. كيف يمكن للمتعصّب الذي كتب رسائل بولس أن يكون بهذا القدر من التّهوّر كي يقوّله: «فَإِنَّنَا نَقُولُ لَكُمْ هذَا بِكَلِمَةِ الرَّبِّ: إِنَّنَا نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ إِلَى مَجِيءِ الرَّبِّ، لاَ نَسْبِقُ الرَّاقِدِينَ. لأَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ بِهُتَافٍ، بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلاَئِكَةٍ وَبُوقِ اللهِ، سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَمْوَاتُ فِي الْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلاً. ثُمَّ نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعاً مَعَهُمْ فِي السُّحُبِ لِمُلاَقَاةِ الرَّبِّ فِي الْهَوَاءِ، وَهكَذَا نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ»؟

هل تحققت هذه النّبوءة الجميلة؟ بولس واليهود المسيحيون هل رُفعوا إلى السماء بحضرة يسوع على صوت البوق؟ ومن أين، أرجوكم، لِبُولس أن يسمع من المسيح كل هذه الخوارق، هو الذي لم يره قطّ، الذي تصرّف كشرطي، كجزّار إزاء تلاميذه، والذي ساهمَ في رَجْم اصطفن؟ تكلّم مع يسوع حينما عُرّج به إلى السماء الثالثة؟ وما السماء الثالثة هذه؟ هل هي عطارد أو المريخ؟ في الحقيقة، إذا قرأنا بتمعّن سنُصاب بالرعب والشفقة في كل صفحة». لكن قد يعترض أحدهم، كما هي الحال عند المسلمين، هو أنه إذا كان صحيحاً أن هذا الكتاب يحدث مثل هذا المفعول عند القرّاء، لماذا يعتقد فيه نفر كبير من الناس؟ كيف استطاع أن يهدي الآلاف من الناس؟ جواب فولتير،

وهو جواب صالح لكل الأديان: «الحقيقة أنهم لا يقرؤون. أكان عن طريق القراءة قد توصّل إلى اقناع عشرة ملايين من الفلاحين أن ثلاثة هي واحد، أن الله يحلّ في قطعة عجين، وأن هذا العجين سيضمحلّ، وفي لَمح البصر الله شخصياً سيتمّ ابتلاعه من طرف إنسان؟ فقط عن طريق المحادثة، والوعظ؛ فقط بإغراء نساء وأطفال بواسطة أكاذيب وقصص خارقة، يتسنى بسهولة تعليم مجموعة صغيرة. كتب المسيحيين الأوائل كانت نادرة جدّاً؛ ممنوع دراستها للمبتدئين؛ كان يعلم سراً أسرار المسيحيين مثل أسرار سيرير. العامّة كانت تلهث دائماً وراء أناس يقنعونها بأن ليس فقط كل البشر متساوين، بل إن مسيحياً هو أعلى بكثير من امبراطور روماني».

وفي نقطة ما يُبدي فولتير افتتانه بصفاء الدين الإسلامي ونجاحات نبيّ الإسلام، بالمقارنة مع المسيحية ومصير مؤسسها وكتابها، الشيء الذي توجّس منه نقاده وعابوا عليه محاباته للأتراك ولدينهم. قال: «إن الأرض كلها في فترة نشوء المسيحية كانت منقسمة إلى جمعيّات صغيرة، مصرية، يونانية، سريانية، رومانية، يهودية الخ. طائفةُ المسيحيّين شهدت رواجاً على أفضل حال عند الدهماء. يكفي ثلاثة أو أربعة رؤوس ساخنة مثل بولس لكي تجذب الغوغاء. ولم يمرّ وقت طويل حتى برز بعض الرجال المهرة، لكي يتصدّروا قيادته». لكن الإسلام يختلف عن ذلك: «كل الطوائف تقريباً استقرّت بهذه الطريقة، باستثناء ديانة محمد، ألْمَعُها جميعاً، التي لوحدها، بين مؤسسات إنسانية عديدة، بدت وكأن منذ ولادتها تحت حماية الله، نظراً إلى أنها اعتمدت في وجودها فقط على الانتصارات. الدّيانة الإسلامية مازالت،

بعد اثني عشر قرنا، كما كانت تحت مؤسسها: لم يتغيّر منها شيء على الاطلاق. التشريعات التي كتبها محمد نفسه، لا تزال باقية سليمة. قرآنه يحظى باحترام سواء في إيران أو تركيا، سواء في إفريقيا أو في الهند؛ يُتقيّد بها حرفياً في كل مكان؛ الانقسام الوحيد كان حول حق توريث الخلافة بين عليّ وعمر»[١]. ولكن المسيحية، على العكس من ذلك «مختلفة كليّاً عن ديانة المسيح. هذا المسيح، ابن نجّار قرية، لم يكتب شيئاً قطّ؛ وربّما لا يعرف القراءة والكتابة. ولد، عاش، مات يهودياً، مُراعياً كل الطقوس اليهودية؛ كان مَخْتُونا، قدّم ضحايا وفقاً لشريعة موسى، أكل من خروف عيد الفصح مع الخَسّ، امتنع عن أكل لحم الخنزير، والثعابين، وكذلك الأرانب، لأن هذه تجترّ ولا تشقّ ظلفا، متّبعاً هكذا الشريعة الموسويّة»[٢].

المسيحيون، حسب فولتير، لا يتقيّدون بما تقيّد به المسيح، وهذا من بين الاعتراضات المستقرة في جداله مع المسيحية: المسيحيون يتناسون كل ما تقيّد به نبيّهم أو الههم. فعلاً، أنتم، يقول فولتير «من جهتكم، عكس ذلك، تتجرّؤون على الاعتقاد بأن الأرنب لها ظلف غير مُنشقّ ولا تجترّ، ومع ذلك تأكلونها بوقاحة،....؛ أنتم لستم أبداً مَختُونين؛ لا تقدّمون الأضاحي؛ لا واحدة من أعيادكم كان قد أرساها يَسُوعُكم. ما الشيء الذي يجمعكم به؟». لا يمكن للمسيحي، وقد وضعه فولتير في هذا المأزق، أن يجد أي مخرج من هذا الاحراج

---

(1) VOLTAIRE, *Catéchisme de l'honnête homme*, in *Œuvres complètes de Voltaire*, t. xxv, Paris, Hachette 1893, p. 361.

(٢) التثنية ١٤، ٧.

التاريخي، لكن بالنسبة لكل المؤمنين هناك منبع لا ينضب وهو الالتجاء إلى إرادة الله العليّة. فالله هنا هو الذي سمح بهذه التّغييرات. جواب فولتير: «الله يتحوّل! الله يتغيّر! هذه الفكرة تبدو لي تجديفا. كيف! شمس الإله دائماً بازغة، ودينُه سلسلة من التّقلّبات! كيف! أتجعلونه شبيها بتلك الحكومات البائسة التي تصدر كلّ يوم مراسيم جديدة ومتناقضة! هل أعطى مرسوما إلى آدم، وآخر إلى سيث، وثالثاً إلى نوح، ورابعاً إلى إبراهيم، خامساً إلى موسى وسادساً إلى يسوع، ومراسيم جديدة في كل مجمع؛ وكل هذا تغيّر من لحظة منع الأكل من ثمار شجرة الخير والشرّ، حتى مرسوم اونيجانيتوس (*Unigenitus*) لليسوعي لوتيلي (Le Tellier)! صدّقوني، فلتخشوا من الاساءة إلى الله باتهامه بهذا القدر من التقلّب، الوهن، التناقض، إنه أمر مثير للسخرية وللشر حتى»[١].

لكن قد يعترض المؤمن قائلاً إن أخلاق المسيحية تتجاوز تقلبات البشرية التي اصطنعت هذه الصورة للإله. هذا الجواب لا يردع فولتير ولا يقنعه، لأنه يعلم يقينا أن الأديان غريبة عن الأخلاق: «فلنتوقّف عند هذه الأخلاق: اواه كم خرّبها المسيحيون! بكم قسوة انتهكوا القانون الطبيعي الذي علّمه كل المشرعين والذي هو منقوش في قلوب كل البشر. إذا كان يسوع قد تكلّم عن هذا القانون القديم قدم العالم، عن هذا القانون المستقرّ بين الهورون وبين الصينيين: أحبّ قريبك كنفسك[٢]، قانون المسيحيين كان: اكرَه قريبك كنفسك. يا أثانزيّين

(1) VOLTAIRE, *Catéchisme de l'honnête homme*, op. cit, p. 362.

(٢) متّى ١٩، ١٩؛ ٢٢، ٣٩؛ مرقص ١٢، ٣١؛ لوقا ١٠، ٢٧.

(athanasiens) اضطهِدوا الأوزيبيّين (eusèbiens) ولتكونوا مضطهَدين من طرفهم؛ يا قيرليّين (cyrilliens) اسحقوا أبناء النّستوريّين على الحائط؛ غويلفي وغيبليني اعملوا حرباً أهليّة لمدة خمس مائة سنة لمعرفة هل أن يسوع أمر شمعون بن يونان بخلع الأباطرة والملوك وهل أن قسطنطين سلّم الامبراطورية للبابا سيلفستر. بابويّون عَلّقوا أعمدة طولها ثلاثين قدما، مزّقوا، احرقوا تعساء لا يعتقدون أن قطعة عجين تتحوّل إلى الله. بولترو (Poltrot)، بالتاسّار جيرار، جاك كليمون، شاتال، غينيار، رافياك، اشحذوا خناجركم المقدسة، اشحنوا مسدساتكم المقدسة. أوروبا، اسبحي في الدم، بينما خليفة الله، الاسكندر VI، الملوّث بالقتل والتّسميم، ينام بين أحضان ابنته لوكريسيا؛ بينما ليون X، يَسبح في الملذّات؛ بينما بولص III، يُثري نذله بغنائم الأمم، بينما جوليو III، يسمّي كاردينالا مربّي قروده (شرف مناسب للقرد أكثر منه لمُربّيه)؛ بينما بيوس VI، يأمر بِخَنْق الكاردينال كارافا....».

قد يعترض أحدهم أن في خضمّ كل هذه الجرائم هناك فضائل كبرى لا يمكن نكرانها، ثم لا ينبغي أن ننسى المعجزات التي قام به يسوع: «معجزات! يا إلهي! وأي دين ليست لديه معجزاته؟ كل شيء خارق للعادة في القديم. كيف؟ ألا تعتقدون في المعجزات التي ذكرها هيرودوت وتيتليف، تلك التي سرَدَها مائة كاتب محترم بين الأمم، وتعتقدون في مغامرات جرت في فلسطين رُوِيَت، يقال، من طرف يوحنا ومرقص في كتب بقيت مجهولة لمدة ثلاث مائة عام عند اليونانين والرومان، كُتب أُلِفت دون شك بعد وقت طويل من تدمير أورشليم، مثلما هو بيّن من هذه النصوص ذاتها التي تعجّ بالتناقضات في كل

صفحة! يقال مثلاً في إنجيل القديس متّى إن دم زكريا، ابن باراكيا، الذي قُتِل بين الهيكل والمذبح، سيقع على اليهود[1]؛ لكننا نرى في تاريخ يوسيفوس فلافيوس أن زكريا هذا قُتل فعلاً بين الهيكل والمذبح خلال محاصرة أورشليم من طرف طيطوس. ولماذا سيفعل الله هذه المعجزات؟ لكي يحكم عليه بالصلب من طرف اليهود! ماذا! أحيى الموتى ولم يجن من ثماره إلاّ أن يَموت شَرّ مِيتَة! لو أنه قام بهذه المعجزات، لقام بها لكي يُعَرّف بألوهيّته. هل تُفكّرون ما معنى اتّهام الله بأنه أصبح إنسانا بدون جدوى، وبأنه أحيى الموتى لكي ينتهي مشنوقا؟ ماذا! آلاف المعجزات في صالح اليهود لكي يجعلهم عبيداً، ومعجزات يسوع لكي يُقتل على الصليب! ثمة حماقة في هذا الاعتقاد، وفورة إجرامية حقّاً بتعليمه دون الاعتقاد فيه». إن كتبا تتناقض لا يمكنها أن تكون مقدسة، لا يمكنها أن تكون «مُلهَمة من طرف الروح القدس... كل هذه التناقضات، التي عابوها غالباً على الأناجيل بشديد المرارة، وقع تسليط الضوء عليها من طرف المفسرين الحكماء؛ بعيداً عن أن تلحق بها الضرر، فهي تضيء بعضها البعض؛ تمد المساعدة المتبادلة في التوافق والانسجام بين الأناجيل الأربعة. وإذا كانت هناك العديد من الصعوبات التي لا يمكن تفسيرها، من العمق الذي لا يمكن سبره، ومغامرات لا يمكن تصديقها، خوارق تصدم العقل الإنساني الضعيف، فذلك لأنها صالحة لممارسة إيماننا وإذلال عقولنا»[2].

إذا دُمّرت المعتقدات، يجب على الأقل الانزواء تحت دين ما؟

---

(١) متّى ٢٣، ٣٥.

(2) *Contraddizione*, in Voltaire, *Dizionario filosofico*, p. 1051.

فولتير لا ينكر هذه الحاجة «الروح تطلب هذا الغذاء، ولكن لماذا تحويله إلى سمّ؟ لماذا خنق الحقيقة البسيطة وتحويلها إلى ركام من الأكاذيب التافهة؟ لماذا تثبيت هذه الأكاذيب بالحديد والنار؟ ما هذا الرعب الجهنّمي! أإذا كانت ديانتكم من الله، تُدعّمونها بالجلادين؟ هل المهندس محتاج إلى أن يقول لك: اعتقدْ أو أقتلك؟ الدين، بين الإنسان والله، هو عبادة وفضيلة؛ بين الأمير ورعاياه، مسألة بُوليسية؛ وبين الإنسان والإنسان، ليس إلا تجارة مُكر. نعبد الله بصدق، ببساطة، ولا نخادع أحداً. أجل، الدين ضرورة للإنسان، لكن يجب أن يكون نقيّاً، معقولاً، كونياً: يجب أن يكون مثل الشمس التي تشرق على كل الناس وليس على مقاطعة صغيرة محظوظة. إنه أمر سخيف، بغيض، فظيع تخيّل أن الله ينير كل العيون، ويغمس كل الأرواح في الظلمات. هناك خيار واحد مشترك بين العالم كله؛ ليس هناك إذن إلاّ دين واحد. وما هو؟ أتعرفون؟ إنه عبادة الله والاستقامة». الدين الجدير بالإله هو دين المحبّة والعدل وهو الذي نقشه في كل القلوب؛ لكن من الأكيد أنه «لم ينقش فيه أن ثلاثة هي واحد، وأن قطعة خبز هي الكائن الخالد، وأن حمار بلعام تكلّم». إن ضميري يأمرني بأن «أحبّ الدراويش [المسلمين]، البونزي ورجال الدين البوذيين أهل سيام، واعتبر كل البشر أخوة لي».

كيف ثبتت الديانة المسيحية؟ كيف استقرّت ودامت؟ جواب فولتير: «مثل كل الأديان الأخرى. رجل صاحب خيال جامح يسحب وراءه أشخاصاً ذوي خيال ضعيف. القطيع يتضخّم: يبدأ التعصّب؛ والمُكر يُتمّم العملية. يأتي رجل قويّ فيرى حشدا يَضع بردعة على ظهره ولجاماً في فمه؛ يَمتطيه ويَقوده. وفي اللحظة التي تعترف فيها الدولة بالديانة

الجديدة، فإن الحكومة تشتغل لمنع كل السبل التي جعلت تلك الديانة ممكنة. بدأت باجتماعات سريّة، والآن تُمنع الاجتماعات السرية. الرسل الأوائل بُعثوا صراحة لإخراج الشياطين: مُنعت الشياطين؛ الرسل يجلبون الأموال من الأتباع: مَن استمد أموالاً بهذه الطريقة يعاقب؛ يقولون إنه من الأفضل طاعة الله على طاعة الإنسان وبهذه التعلّة يتحدّون القوانين. السياسة أخيراً تحاول بلا هوادة أن تُوفّق بين الخطأ المُتَعمد والصالح العامّ». وفي موضع آخر يقول فولتير إن الدين عموماً، والمسيحي خصوصاً هو نتاج مجموعة من المتعصبين «فتنوا (أغووا) أناساً بسطاء، فتنوا هم بدورهم بسطاء آخرين. هؤلاء الأخيرين إذن يتجاوزون الأولين. من المحتمل أن التاريخ الصحيح ليسوع لم يكن إلا تاريخ رجل صالح استأنف رذائل الفرّيسيّين، والفرّيسيّون قتلوه. بعد ذلك جعلوه نبيّاً، وعلى رأس ثلاث مائة عام جعلوه إلها: هذا هو تاريخ الروح البشري»[1].

ليس هناك من مؤسسة ولا سلطة تعلو على الضمير الفردي للإنسان. الكنيسة الكاثوليكية؟ «إنها استبدادية. أنا لا أريد لا بطريرك سيموني يشتري كرامته المخزية من وزير كبير، ولا قسيس اعتقد لسبع مائة سنة أنه ربّ الملوك». الدين القويم والمناسب للبشر هو التوجه لله فقط دون غيره من الطوائف «فهو يتكلم لكل القلوب؛ وكلنا نملك الحق المتساوي في الاستماع إليه. الضمير الذي مَنَحَه إلى كل البشر هو القانون الكلّي. إن البشر لهم الضمير، من قطب إلى آخر، ينبغي أن

(1) VOLTAIRE, *Dialogue du douteur et de l'adorateur, in Œuvres complètes de Voltaire,* t. 26, Paris, Hachette, 1893, p. 7.

يكونوا عادلين، ويجب برّ الوالدين، مساعدة أمثالنا، الوفاء بالوعود: هذه القوانين صادرة من الله، الزيغ من الإنسان. كل الأديان تختلف مثل الحكومات؛ الله يسمح بهذه وتلك. اعتقدتُ دائماً أن الطريقة الخارجية لعبادته لا يمكن أن تَستعطفه أو تُغضبه، الشرط الكافي هو أن تكون تلك العبادة لا خرافية إزاءه، ولا بربرية تجاه البشرية». أليس إساءة لله الزعم بأنه أختار «كأمة مفضلة أمة صغيرة مشحونة بالجرائم، لغرض لعنة الباقي؟ أن يكون قاتل **أوريا** [داود[1]] أحبّ الناس إليه، وأن يكون كريها التقيّ أنطونينوس؟ أليس من أكبر الشناعات أن تعتقد أن الكائن الأعلى سينتقم إلى الأبد من كالوجيرو لأنه أكل لحم أرنب، أو تركي (مسلم) لأنه أكل الخنزير؟ هناك شعوب وضعت، يقال، البصل في مرتبة الآلهة؛ هناك آخرون قالوا إن قطعة من العجين يتمّ تحويلها إلى عدد من الآلهة بقدر الفتات. هذان الطرفان من الجنون الإنساني يثيران سويّة الشفقة؛ لكن أن يجرأ أولئك الذين يَتَبنّون هذه الحماقات على اضطهاد أولئك الذين لا يؤمنون، فهذا شيء فظيع حقاً. الإيرانيون القدامى، المصريون، اليونانيون اعتقدوا في الجحيم: هذا الجحيم هو على وجه الأرض، والشياطين ليسوا إلاّ المضطهدين».

إن العقل العظيم لفولتير رغم متانة تفكيره، ورغم انفتاحه على الحضارات الشرقية ورغم اسهاماته في نقد الدين وتنوير العقول، لا يحظى عند جعيّط بأي اعجاب، أو تقارب أو تفهّم، لأن صحابة جعيط وأحباءه هم من فصيلة أخرى، سنتحدّث عنهم الآن. وأعتذر للقارئ على هذا الانتقال الظرفي من نور فولتير إلى ظلام الإسلاميين.

(١) صامويل الثاني ٢، ١١.

١٣ ـ زملاء في الكفاح ضد الاستشراق: وهابيون وسلفيون وعلمانيون متأسلمون

إن أقرب الناس إلى أطروحات جعيّط وأكثرهم تكالبا على سلخ المستشرقين، هو الفيلسوف العنصري الفاشستي أبو يعرب المرزوقي. إنه «فيلسوف» إرهابي بأتمّ معنى الكلمة، وهو يتبجّح بإرهابه ويفتخر بتحريضه على سفك دماء السّوريّين. ومنذ مدّة وهو يُنظّر للحرب الأهلية العربية التي خطّطت لها أمريكا وإسرائيل، وكان دائماً يتهجّم على الشيعة وعلى المتصوّفة ويدعو إلى قطع دابرهم بالحديد والنار. وأمام موجة التحريض التي عملت على تذكيتها قطر والسعودية وأمريكا وإسرائيل فقد كتب هذا الإرهابي مقالاً يليق بمقامه في جريدة **السور** الاخوانية بعنوان: **أخجَلُ ممّن يَعتبِر جهاد الشباب التونسي في سوريا جُرما**[1]. وهذا العنوان بمفرده يُحوصل محتوى المقال ويكشف نَظرته السياسية الإرهابية، ويُقنعنا بأن الرّجل هو من بين أكبر المحرّضين على العنف الإسلامي والمساهمين في سفك الدم السوري. ولو تجرّأ وكتب

---

(١) أبو يعرب المرزوقي، «أخجل ممن يعتبر جهاد الشباب التونسي في سوريا جرما»، جريدة السور، الأحد ١٦ جوان ٢٠١٣.

«إسرائيل» بدل «سوريا» لأذاقه أسياده أشد العذاب ولنَفَوه إلى الصّومال أو جبال طورا بورا في أفغانستان لكي يتذوّق هناك طعم الجهاد.

إنه رجل عنيف سليط اللسان مُتعطّش للدماء، سفسطائي قادر على أن يُزيّف الحقائق الأكثر بداهة، يكفي أنه عوض أن يَخجل من إرسال الشباب التونسي لقتل السوريين، فهو يخجل لعدم ارسالهم. لقد تفطّن المثقّفون التونسيون إلى خطورة هذا الرجل وإلى عمالته الصريحة للقوى الامبريالية الصهيونية، وبدأوا يُندّدون به ويشجبون على الملأ أقواله وتصريحاته الإرهابية. وقد كتب المحلل السياسي التونسي رياض الصيداوي مقالاً يدعو فيه إلى محاكمته بتهمة دعم الإرهاب عبر التّغرير بالشباب التونسي للجهاد في سبيل إسرائيل. قال إن أبا يعرب المرزوقي «التجمّعي القديم الذي أصبح قومياً عِربياً ثم نَهضاوياً ثم انشق عنها لأنه لم يحصل على ما يريد من مناصب، صرّح لصحيفة تونسية ينتقد من يحاول مَنع شبابنا من تجربة مغامرة القتال في أرض الشام ـ ويا لها من تجربة... لم يَدعُ أبداً للجهاد ضد أمريكا في أفغانستان أو ضد أمريكا في العراق أو ضدّ إسرائيل في غزة أو في الجنوب اللبناني ـ أو لتحرير قطر من الاحتلال الأمريكي»(١).

وقد أضاف بكل أسى أن هذا الشخص لم يفتح فاه للتنديد بانتهاكات العدو الصهيوني حينما «قصفت إسرائيل سوريا خمس مرات منذ بداية الأزمة. لكن ذلك لم يجعل هذا المتفلسف العديدي السيلي (نسبة إلى

---

(١) رياض الصيداوي، «بكل هدوء: ألا يجب محاكمة «الحبيب اللوز» و«أبو يعرب المرزوقي» بتهمة دعم الإرهاب عبر التغرير بشبابنا للجهاد في سبيل إسرائيل؟»، جريدة الشعب عدد ١٢٩٥ الخميس ٢١ أوت ٢٠١٤.

قاعدتي العيديد والسّيلية في قطر) يَسْتَحِ من تهجّمه على الجيش العربي السوري وعلى المقاومة اللبنانية خدمة رخيصة لآل ثاني ولأسياد آل ثاني مقابل فتات قليل على حساب دماء مئات الآلاف من العرب... كان أبو يعرب تجمّعيا مع المخلوع زين العابدين بن علي ثم اقترب من النهضة وغازلها ثم شتمها لأنها لم تعيّنه وزيراً، والآن هو يعمل لصالح آل ثاني وقاعدة العيديد الأمريكية ويرتزق في قناتهم الجزيرة ويبرر لهم أفعالهم ويغرر بشباب تونس... وكان أيضاً في صفّ المنصف المرزوقي ثم هاجمه وانقلب عليه في الدور الثاني عندما أدرك أن حظوظه ضعيفة... [هذا الشخص] هو نموذج المتعلم الذي يبيع نفسه مرات ومرات كثيرة في حياته... لم يُعرف عنه ثبات على مبادئ ومُثل وقيم وعُرف عنه تغيير جلده حسب المصلحة الظرفية... هو الآن يعيش في العسل القطري العيديدي نسبة إلى قاعدة العيديد الامريكية الملطخة بالدماء العربية التي تنزف في سوريا... يا ما نبّهت لتخريب آل ثاني وآل سعود لأشباه المثقفين عبر شراءهم ببضعة آلاف من الدولارات. على الدولة التونسية أن تضاعف من رواتب الأساتذة الجامعيين حتى لا يدفعهم الفقر إلى الارتماء في أحضان الملكيات الإقطاعية القروسطية وقواعدها العسكرية الأمريكية مثل أبو يعرب المرزوقي المتخصّص في بيع «فلسفته» للرجعية والاستعمار. لكن المثل العربي يقول تجوع الحرة ولا تأكل بثديها».

لقد أصبح هذا الرجل بُوق دعاية في وسائل الإعلام الخليجية وخصوصاً قناتي الجزيرة والعربية، مروّجاً للسلفية الوهابية وداعياً الشباب جهاراً لمقاتلة الجيش العربي السوري والإطاحة بالنظام كما ترغب في ذلك أمريكا وإسرائيل ودول الخليج الممولة للجهاديين المسعورين. ولقد وصلت به العمالة إلى معانقة السيناتور الصهيوني

ماكاين (McCain) في زيارة قام بها لتونس واجتمع فيها مع أعضاء من حكومة الإسلاميين وشارك فيها هو شخصياً وجلس قبالته على نفس الطاولة. ومن المحتمل جدّاً أن توصيات ماكاين للعصابة هي بتعبئة الشبان التونسيين وارسالهم إلى سوريا لتفجير أنفسهم في الأبرياء (وفعلاً بسبب تحريضه التحق أكثر من ألف وثلاثمائة طالب جامعي تونسي بصفوف الإرهابيين وسافروا إلى سوريا والعراق للقتال). وهذا ما قام به أيضاً أئمة المساجد التي استحوذت عليها حركة راشد الغنوشي، وما فعله هو بمقالاته وحواراته التلفزية في القنوات الفضائية.

لقد حفظ بعض المقولات الفلسفية وضخّ فيها سموم معتقده الوهابي وأخذ يلوكها في كل محفل بغية اقناع الناس بأن التكفيري، ابن تيمية، هو أعظم فيلسوف أنتجته الحضارة العربية، وأن ابن خلدون أكبر مؤرخ وأعظم عالم اجتماع بلا منازع. لم تَنطَل هذه الترّهات على العقول اليقظة ولم تَلق صدى إلاّ في أوساط الإسلاميين المُغيّبين، لكن جمهور الفلاسفة نبذوه، وسخروا منه ومن استيهاماته، بل لا يعتبرونه حتى مفكراً وإنما عنصراً فاعلاً في التيّار الوهابي العالمي، ينشط في إطاره كمنظّر للإرهاب الإسلامي. ومن المؤسف أننا نناقش، في هذا المقام، كائناً إجرامياً يحرّض علنا على اقتتال العرب ويتفادى الصراع المصيري ضد العدوّ الصهيوني. لكن بما أن هناك قرابة فكرية وإيديولوجية بينه وبين جعيّط، فلا بأس من التعريج على مَخاريقه.

لو بَقي إرهابه مَدفوناً في دماغه لَما التَفتنا إليه ولما كَتبنا عنه ولو كلمة واحدة، لكنه تخطّى حدوده وأصبح يُهدد المجتمع التونسي ككل، لأن الإرهابيين الذين شجّعهم على الذهاب إلى سوريا وحرّضهم على

«الجهاد» هناك سيعودون، أو هم في طريق العودة لحرق الأخضر واليابس.

المفارقة الكبرى هي أن هذا الإرهابي، عوض أن يُحاسب على تحريضه العَلني على قتل الشعب السوري وأن يُحاكَم كمجرم حرب، كوفئ بتعيينه في مناصب عالية، وأوكِلَت له مهامّ رسمية في مؤسسات عالمية، حيث شارك كعضو رئيسي في كتابة تقرير «**التكامل العربي سبيلاً لنهضة إنسانية**»، الذي أعدّته منظمة **الإسكوا**، التابعة للأمم المتحدة. وأنا أتساءل كيف يمكن لشخص يدعو جهاراً نهاراً في الصحافة المقروءة والمسموعة وعلى شبكات انترنت لقتل السوريّين أن يتبوّأ هذا المنصب وأن يُعوَّل عليه لكتابة تقرير يُحدّد مَصِير الأجيال اللاحقة؟ إنها وَسمة عار على منظّمة الإسكوا، وعلى الأمم المتحدة وعلى لجنتها الاقتصادية لغربي آسيا، أن تلجأ إلى هذا الرجل الإجرامي وتُدمجه في فريق المساهمين الرئيسيّين لصياغة تقرير بهذه الأهمية والخطورة.

كل مثقف شريف ذي حسّ إنساني لا بد أن يُدين هذا الإرهابي وأن يدين هذه المنظمة لا لشيء إلاّ لأنها سَمحت عن قصد لإسلاموي متطرّف أن يطأ حرمها وأن يُقبَل فيها كعنصر فاعل بمجلس الاستشاريين ويُدمَج في الفريق الرئيسي كي يكتب عن التكامل العربي ويضع لنا برنامجاً لتنمية الحقد والتكفير والقتل. ولا أحد من المسؤولين بمقدوره أن يتذرّع بأنه يجهل خبايا فكره ومنحاه الإرهابي، يكفي القيام ببحث بسيط في «غوغل» أو اقتناء أي كتاب من كتبه حتى يدرك جوهر تفكيره ويتيقّن من مُيولاته الإرهابية. وإن كانت قد مُورِسَت على هذه المنظّمة ضغوط لإدخاله عنوة في هذا الفريق فما كان عليهم إلاّ أن يُعلنوا ذلك

صراحة أمام الملأ، وإلاّ فإن تهمة التواطؤ في سفك دماء السوريين لن تُقتلع من كاهلهم[1].

* * *

(١) بعد مُطالعة للتقرير الذي نشرته الاسكوا على موقعها الإلكتروني، بعنوان التكامل العربي سبيلا لنهضة إنسانية، تَبيّن لي أن هذه المنظمة تقع تحت طائلة الإسلاميين ومكاتبها ومسؤوليها أغلبهم من هذه الفصيلة، والدول العربية الراعية للإرهاب يبدو أنها هي المموّلة لها. وتبيّن لي أيضاً أن الجزء الخاص بالثقافة كتبه الإرهابي أبو يعرب المرزوقي، وهناك أدلّة ثابتة على أن الأفكار التي وردت فيه مقتلعة من كتاباته، اقتطعها ولصَقها في هذا التقرير. لقد ركز مشاكل العالم العربي على تغييب باب الاجتهاد في الفقه والجهاد الإسلامي والتجاء العرب إلى العالم الغربي لاستلهام أنظمته. وهذه هي أطروحات المرزوقي التي تتخلّل كل كتاباته؛ أطروحة لاكَهَا الإسلاميون وأعادوها ولونوها في كل نشريّاتهم الضّحلة، وإليك نبذة من أقواله: «وكان موقف الانفعال والتقبّل تاريخيا نتيجة لإلحاح الفعل قبل التأسيس النظري الصحيح له. وانعكس هذا سلبا على الاجتهاد الفقهي فتقلص دوره حتى كاد ينحصر في التبرير البَعدي وبطرق ملتوية لتبنّي الحلول الموجودة التي أبدعتها ثقافات أخرى، بعد صمود أوّلي أمام التأثير الخارجي ورفض سطحي له يحوّل الأخذ به إلى حاجة ملحّة بعد فوات أوان الفكر المبدع، ص١٥٠». الاستعمال المكثف لمقولة التحريف، وهي المقولة الوهابية التي تستخدم ضد اليهودية والمسيحية «التحريف النظري.. هذا التحريف تجميد»؛ الحديث عن الجهاد «دور الجهاد، وهو جوهر العقل النظري والعملي المُطبّقين»؛ أسلوب الخور المتواصل، بعد أن استخدم لبعض السنوات أسلوب السجع والمقامات والتي لولا وقوفي ضدّه لواصل في بثها في كتاباته الضحلة؛ اللعب على الثنائيات والتقسيم المتواصل للفكرة، ثم مضاعفة التقسيم، وادخال السلبيات والايجابيات في الفكرة ذاتها بعد أن فتتها إلى اثنين ثم أربعة الخ. وهذه عيّنة من خوره المتواصل: «ومع غياب الشجاعة العقلية والخُلُقيّة كان الحل السلبي الممكن عقلا هو حلّ سدّ الذرائع، وهو إيجابا استعارة أي حلّ جاهز لتجنّب مغامرة إبداعية قد تتضمّن شيئاً من الفوضى وعدم الانضباط. ولما كان سدّ الذرائع تعميما للمنع، بات التحريم بديلا عن الإباحة. وبذلك أصبح سد الذرائع وفتحها=

السّباب والشّتم والتّعنيف اللفظي بشتّى أنواعه هي من اختصاصات

=مستندا إلى إعادة ضمنية للسلطات الروحية والزمنية التي تدّعي دور وساطة كان الدين قد ألغاها بين الإنسان وربّه». العدو اللدود هو الوساطة، المشكلة الأساسية التي تنخر العالم العربي هي مشكلة فقهية، وملخّصها هو عدم تطبيق أحكام الفقه كما فهمها ابن تيمية والوهابيون على المجتمع العربي الحديث. الجهاد هو الحل: «فقُزّم دور الاجتهاد والجهاد موضوعاً، فأصبحا محصورين في الاجتهاد الفقهي والجهاد القتالي؛ وبهذا همّشت مواد العلوم في الاجتهاد، وأصبح الجهاد مقصورا على الحرب المقدّسة من دون الأدوات المباشرة التي تحقق شروط النجاح في أي حرب مقدسة كانت أو غير مقدسة». هذه هي فحوى مُدوّنة التكامل العربي والنهضة المنشودة التي أخرجتها لنا الاسكوا. المشرفون لم يذكروا اسم المرزوقي ولكن العارف بكتبه يمكنه أن يدرك بسهولة أنه هو المدوّن لهذه المهاترات الإرهابية. لكن اسمه برز في اقتباس ورد في الصفحة ١٠٦ حيث طفق يحلّل بيت الشعر الشهير للشّاعر التونسي أبو القاسم الشابي، إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر. وهذا البيت كفّره الإسلاميون: لأن القدر بالنسبة إليهم هو الله، ولا يمكن لله أن يستجيب غصباً عنه إذا أرادت مخلوقاته شيئاً لم يرده هو، حتى وإن كانت إرادة الحياة. فعلاً، كيف يمكن أن يُجبَر إله الكون على الاستجابة لمبادرة مخلوقاته؟ لكن المسلمين لو كانوا منسجمين مع مبادئهم لكفّروا القرآن نفسه. ألم يأت في الآية ١١ من سورة الرعد التأكيد على أن الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يُغيّر ما بأنفسهم؟ فهذا كلام صريح على أن فعل الله مشروط وتابع لفعل الإنسان. هذه الورطة يريد أن يتجاوزها المرزوقي بالقول إن الشابي بسفسطة رياضية (الرجل مهووس بالرياضيات كما فهمها هو) «و«حتى» تعني «إلاّ إذا». والجمع بين «لا» و«حتى» في الآية القرآنية يعني «لا... إلاّ إذا». وقد صاغها الشابي شعراً معتبراً «إذا وفقط إذا» مرادفة «لا بدّ»». هذه السفسطة التي اصطنعها تعني بالنسبة للإرهابي «فهم دقيق لدلالة القضاء والقدر. وهو دون شكّ فهم مقابل تمام المقابلة لفهم عصر الانحطاط: وبهذا المعنى فالثورة ثورة على عصر الانحطاط بما كانت ثورة على الفهم المَنحطّ للقضاء والقدر وعودة إلى المعنى الأصلي لهذا المفهوم كما حددته الآية». وهذا الاكتشاف الجديد من أن الثورات العربية هي ثورة ضد الفهم المنحط للقضاء والقدر، وليست انتفاضات خطّطت لها الدول الغربية ومخابراتها، للإتيان بالإسلاميين الخونة=

هذا الرّجل، وهي القِطَاعات الوحيدة التي تضلّع فيها عن جدارة، بل إنه قد أبدع فيها طيفاً مزركشاً من الكلمات النّابية القبيحة. تعنيفه اللفظي لم يَطُل فقط المفكرين العرب على بكرة أبيهم، بل أعلام الفلسفة الغربية وشرائح المستشرقين بجميع مشاربهم. لقد كال أبشع النعوت إلى المستشرقَ الألماني هورتن (Horten) بعده تحوّل إلى زميله بيكّر (Becker)، ثم انتقل إلى ماسينيون (Massignon) وافترض، بشيء من الوثوقيّة، أن هذا الأخير استعماريّ عنصري يَعمل كجاسوس لصالح بلده فرنسا. إن هذه التهجّمات المقذوفة ضد المستشرقين، تَعوّدنا عليها من طرف المفكرين الإسلاميين، فهي وسيلتهم الوحيدة للحوار مع العلماء الغربيّين، والمرزوقي هو واحد منهم بل زعيمهم الآن، والفارق الوحيد بينه وبينهم هو أن هؤلاء عبّروا عن معارضتهم بلُغة بسيطة وبيّنة

=والتمكين لهم كي يدمّروا العالم العربي من الجذور. وهذا الخور المسترسل الذي اشتهر به هذا الرجل يفسّر من خلال نظرته التيميّة الحشوية لله: إن عنفه يصعّده على الله كما صعّده صاحب القرآن وجعل من الله وحشا كاسرا، ذلك أن المعنى الحقيقي للآية هي أن الله لا يرحم مخلوقاته وإنّما يُنكّل بهم كلّما أرادوا ذلك، وهذا هو لبّ ما جاء به القرآن في عديد المواضع، حيث يقول «ختم الله على قلوبهم... زادهم كفرا... لا يفقهون»: «المعلوم أن الآية الكريمة التي صاغ الشابي صورتها الايجابية شعرا تتعلّق بالتغيير السّلبي أي إن الله لا يجعل الأمم تتردّى إلاّ إذا هي أرادت ذلك، أي أن الله يُمِيتُ خُلُقيّاً وحضارياً مَن يريد الموت الخُلقي والحضاري من الأمم». أنا أسأل هل هناك أمم تريد الموت الخلقي والحضاري؟ وهل عن طريق هذه السفسطة يستطيع أن يتجنّب الصورة التشبيهية السلبية التي يعطيها القرآن عن الله؟ حسب منطق هذا الإرهابي الله لا يعنيه خلاص البشرية ولا يمدّ لها يد العون إن وجدها في وضع حرج خطير، وإنما هو متفرّج متعالٍ على مجريات الأمور. الله لا يقرّر سيرورة العالم ولا يتحكّم في مجرياته وهو عاجز حتى أن يقرّر أي شيء مسبقا، وإنما إرادة الإنسان هي التي تسبقه وتشرّط أفعاله.

مملوءة خطابة وخاوية من أدنى مُقوّمات التحليل العلمي، أما كاتبنا فقد أضاف إلى كل هذه السلبيات: الغموض اللغوي والتقعّر اللفظي والتكرار المُهستر.

في مقال له بعنوان «**مدلول التلقي الغربي المعاصر للإسلام**»، وهو محاولة، حسب زعمه، لاستخلاص العوائق الفلسفية الحائلة دون فهم الروحانية الإسلامية من طرف علماء الغرب، شَحنه بالتّهجم على المسيحية وعلى المستشرقين وعلى من نحا نحوهم من المفكرين العرب. بعد أن قال بأن القرآن ـ مرجعه الوحيد في حل القضايا الفلسفية ـ قد اعتبر التوراة والإنجيل محرّفين، أخذ يتكلم عن أخلاقيات الحوار ـ من هذا المنطلق بالذات أعني من منطلق التّحقير من الديانات السابقة ـ طالبا من المسيحيين واليهود الإقرار بأن ديانتهم فاسدة وكتبهم محرّفة، وبالتالي عليهم أن يتمسّكوا أولاً بالكتاب الأوحد والدين الأكمل خاتم الأديان، ثم بعد ذلك سوف نُفكر في الحوار. تقنية شبيهة بتلك التي استعملها جعيّط، حينما خيّر المسيحيين بين الاعتراف بالإسلام أو الغرق معا.

المرزوقي يُنبّه المفكرين العرب، الذين يُكابِدون من أجل التّقدّم المعرفي ويَطمحون إلى إنتاج خطاب علمي ذي مستوى راق، بأن لا يُصدّقوا المستشرقين وأن يتفادوا الاغترار بأطروحاتهم. ويتوجّه إلى الإسلاميين لكي يفضح المفكرين ذوي التوجه العلماني مصوّراً إياهم على أنهم شرذمة من السّذج يصدّقون كل ما يأتيهم من خارج، ويَحتَذون بأسيادهم حذو النعل بالنعل، دون القدرة حتى على مناقشتهم أو الردّ عليهم. يقول إن حُسن الظن المفرط بمنهج المستشرقين العلمي «**قد أُطلِق في بداية القرن عند العلمانيين من مفكري النهضة العربية**

الإسلامية إلى حد التّسليم اللاواعي بموقفهم الفلسفي تسليما حصر التفلسف فيه»(١). وهذه مغالطة كبرى وتزييف للتاريخ لأن أغلب العلمانيين العرب لا يُعادون الإسلام بتاتاً، بل إنهم منخرطون هم أنفسهم في الدفاع عنه بشراسة، ولا يتوانون من التهجّم على المستشرقين وضرب المنهج التاريخي النقدي كما فعل أركون وجعيّط.

ماكس هورتن، مستشرق ألماني من القرن الماضي، بالنسبة للمرزوقي هو رجل متطفّل دَعِيٌّ لأنه يزعم أن له مهمّة كبرى ألا وهي انقاذ المسلمين من الشريعة والوحي، كما جاء في مقاله «نصوص حول الصراع بين الإيمان والعلم في الإسلام». وهذا المقال في حقيقة الأمر هو مجرّد عرض سريع لتصوّر النبوة عند فلاسفة الإسلام، طَرَحَ فيه هورتن، بصورة عابرة، خواطر وجيزة حول الإسلام المعاصر، ومن بين ما جاء فيها قوله: «**ينبغي، قبل المَهامّ الكبرى حقّاً الساعية إلى تطوير العقيدة الإسلامية تطويراً يرفعها إلى شرف الدين الكوني الطبيعي والكلي، أن يوضع الإسلام أولاً في سياق التطوّر الحديث. وسيقطع الإسلام هنا أيضاً خطّاً مماثلاً لخطّ تطوّر الدين المسيحي. ولكي يستجيب الإسلام إلى هذه المتطلبات فإنه بوسع [المسلم] أن يتأمّل بعض النظريات التي ظهرت على هامشه منذ قرون، أعني الأنساق الصوفية. ففيها يفقد النبي ما يتجاوز به البشر بفضل كون الإنسان سيرتفع فيها إلى دائرة الألوهية. إذ أن العالم بحسب هذا المذهب شكل متطوّر من الربوبية، تعيّن للذات الإلهية. ومن ثم فكل البشر إلهيون على نفس**

---

(١) أبو يعرب المرزوقي، مدلول التلقي الغربي المعاصر للإسلام، مجلّة «الحياة الثقافية» تونس، عدد ١٠٧ سبتمبر ١٩٩٩ الصفحات، ٢٥ ـ ٤٢. الاستشهاد، ص٣٠.

المنوال. لم يبق للنبيّ أي فضل على غيره من البشر المائتين. وبذلك يمكن للمرء أن يسمو بدينه وأن يتخلص من قيوده ليجعله ديناً كونياً وكلياً للحب الإنساني [...] وتوجد نظرية أخرى تفتكّ من النبي موقعه المتجاوز للطبيعة بعض التجاوز، إنها نظرية الإمامة».

مِن المتوقّع أنّ رجلاً جاهر بعدائه الشديد للفلاسفة والمتصوفة والشيعة لن يقبل بهذا الكلام وسينتفض حينما يقرأ أطروحة من هذا القبيل. ذلك لأن المرزوقي بَنَى مواقفه العدوانية على أطروحات ابن تيمية الذي كفّر الفلاسفة وكل الفرق الإسلامية والأديان قاطبة، وهو المنبع الأوّل للوهابية التي أنتجت الإرهابيين القتلة قاطعي الرؤوس وآكلي لحوم البشر. غني عن القول أن فقيهاً تكفيرياً عنيفاً مثل ابن تيمية لا يمكن أن يُنتج لنا إلاّ نسخة مصغّرة منه، وهذا ما حدث بالفعل مع المرزوقي الذي لا يفوّتُ فرصة للتهجم على المسيحيين واليهود وإلقاء التهم يَمنة ويَسرة على المستشرقين والفلاسفة القدماء والمحدثين طبقاً للمرجعيّة التّيميّة الوهابية.

كيف يمكن لشخص يَعتقد أشدّ ما يكون عليه الاعتقاد في قدسية القرآن، ومُتمسّك مبدئياً بفكرة أن محمداً هو أعظم نبيّ في العالم، ربّى البشرية قاطبة وأتى بأفضل وأعظم الأديان، كيف له أن يقبل بفكرة هورتن هذه؟ لقد عبّر هورتن عن رأيه مجرد تعبير عرضي، من أنّ النبيّ في الأنساق الصوفية (die sufischen (mystischen) Systeme)[1] يفقد ما يتجاوز به البشر، أو أن عن طريق هذا النسق يصبح كل البشر إلهيين

(1) M. HORTEN, *Texte zu dem Streite zwischen Glauben und Wissen im Islam*, Bonn, Marcus und Webers Verlag, 1913, p. 27.

على نفس المستوى، وهكذا لن يبقى للنبيّ أي فضل على غيره من الناس. المُعطى الثابت، من خلال كتابات المرزوقي، هو أن الرجل جعل من أعداء حياته الصوفية وتعاليمهم، التي اختزلها في فكرة وحدة الوجود والتي تذكّره بالتجسّد المسيحي، وهو يَنفر بشدة من فكرة إنزال الإله للعالم وتماهيه مع البشر، وأكثر هرطقة في نظره هو القول بأن النبيّ يفقد أي فضل على البشرية. إنها أشياء صادمة لمُعتقده التّيمي - الوهابي وغير مقبولة ولا ينبغي التفكير فيها أو التفوّه بها أصلا. والسّبب في ذلك هو أن الرجل يعتقد في نبوّة محمد ويعتبر تعاليمه أرقى وأعظم ما وصلت إليه الروح البشرية منذ العصر الحجري إلى قيام الساعة.

كيف لا ينقم على المستشرقين ولا يناصبهم العداء هم وكل من حاول من الدارسين العرب اتّباع النهج الاستشراقي العلمي في مقاربتهم لتعاليم محمد؟ إن أقوال هورتن صنّفها، وأظن أن دماغه لا يمكن أن يذهب إلى شيء أبعد من ذلك أو مغاير له، في خانة «**عين التحريف الديني الذي هو في جوهره الغلوّ الصوفي والشيعي**»[1].

ولا يمكن أن يختفي، عند رجل كاره للعقائد والفرق الدينية المحلّية والعالمية، عنصر المؤامرة وفكرة كُره الإسلام وإرادة الإطاحة به أو تشويهه، وهي أعمال برع فيها المستشرقون، جاعلين من معيارهم لتقييم

---

(١) أبو يعرب أبو يعرب المرزوقي، مدلول التلقي الغربي المعاصر للإسلام، ص٢٩. يجب أن أذكّر المرزوقي بأن المستشرقين الجِدّيين لم يتفوّهوا في حق الإسلام بكلمة تحريف ولا أحد منهم درس الإسلام من منطلق هذه المقولة. لكن المسلمين هم الذين أصرّوا على هذه التسمية وتمادوا في الحطّ من الديانتين السابقتين بصورة مكشوفة.

الإسلام الدين المسيحي، وقد رأينا هذه التهمة تتكرّر عند جعيّط. المرزوقي يهجم على لويس ماسينيون بشدّة لأنه، حسب زعمه: «**يذهب إلى حد تحديد منزلة الإسلام وتعيير الروحانية الإسلامية بالقياس إلى المسيحية التي تُمثل الحقيقة الدينية المطلقة عنده، ليُقنع ضعاف العقل والإيمان من المسلمين بأنهم من المنبوذين ميتافيزيقياً، استناداً إلى قراءته التحكمية للفكر الإسلامي عامة وللفكر الصوفي خاصة وتغليف ذلك كله بمنهج ليس له من منهج العلم حتى شكلياته الجوفاء وليس له من حيل المغالطة إلاّ أكثرها سطحية**»(١).

لقد قهرَنا الإسلاميون ودمّروا عقولنا وشوّشوا أفكارنا وتعدّوا على حرمة إنسانيّتنا. لا يمكن أن تتحاور معهم في أي قضية علمية إلاّ وقفزوا إلى إشكالية أخرى أو نَفوا ما قالوه وبدّلوا آراءهم في لمح البصر. لقد انقسموا إزاء المستشرقين (وليس المستشرقين فقط) إلى فريقين يتداولان المواقف المتضاربة ويتقاسمان أدوار المراوغة والتقيّة: فريق منهم يشيد بأعمال ماسينيون ويَعتبر كتاباته في مجال التصوّف الإسلامي وخصوصاً كتاب «**وجد الحلاج**» قمّة في الإبداع ومثالا للبحث الجدي والتبحّر المعرفي والتدقيق في التراث الإسلامي، ثم يأتي الفريق الثاني، ومن بينهم أو على رأسهم الإرهابي أبي يعرب المرزوقي، وينفي ما قاله الأوّل ويرى أن أفكار ماسينيون ضعيفة جدّاً، ليست لها أية قيمة علمية وأن صاحبها لا يملك من المنهج العلمي حتى شكليّاته.

أنا أتحدّاه أن يَكتب رُبع ما كتَبه ماسينيون، كمّا وكيفا، وأن يَطّلع

(١) مدلول التلقي الغربي المعاصر للإسلام، ن. م، ص٣٧.

على خُمس ما اطّلع عليه من كتب التراث العربي الإسلامي والغربي المسيحي؛ أن يشمّر على ذراعه ويَبتدِع لنا منهجاً جديداً أو يُنجز عملاً راقياً خالٍ من السباب والشتم والقذف والترهيب.

ونظراً إلى أن ماسينيون ثمّن التجربة الصوفية وأعاد احياء ذاكرة الحلاج، فإن باقة من التّهم والسباب المقذع انهالت عليه من طرف الإرهابي أبي يعرب المرزوقي، واسمه الحقيقي، محمد الحبيب المرزوقي. وقد توسّع، في إحدى هوامش المقال، في ايراد اعتراضات ساذجة، مُتخلّلة بوابل من السباب والتجريح، دون نسيان التفريعات والتقسيمات التي لا تخلو منها صفحة من صفحاته، حتى مقالاته السخيفة المنشورة على انترنت: «**ولعل أثبت الخاصيات في عمل ماسينيون أثبتها هي الخاصية التي جعلت الاستناد إليه في تأسيس الحوار أمراً ممتنعاً. فقد جمع ماسينيون بين هذين الإطلاقين فأسهم في العنفين الحارّ (بما هو عسكري ودبلوماسي وربما جاسوس مثل لاورانس العرب صديقه وشريكه) والبارد (التحيّل بالدفاع المزعوم عن القضايا العربية وبمحاولة تأسيس التصوف المُغالي بحثاً عن مؤيدات من القرآن الكريم ومن الشواهد التاريخية الإيهامية من التوكيد المَرضي على غلاة المذاهب لجعلها الممثل الحقيقي لجوهر الإسلام). فرغْم ما يُنسب إليه من تطور في تصور الإسلام وإسهام في تغيير موقف الكنيسة منه بما يزعم له من تأثير في صياغة قرارات الفاتيكان الثاني (وهو أمر لا معنى له لكون موقف الكنيسة من الإسلام أمر لا يعنيها إلا في حركتها التبشيرية) فإنه قد بَقي ثابتا لا يتزحزح في أمرين هما: ١ ـ تأويله لحادثة نفي هاجر وإسماعيل تدليلا على كون العرب خاصة والمسلمين عامة من المنبوذين الميتافيزيقيين بالذات، ٢ ـ تأويله عدم تقدم الرسول محمد في الإسراء**

والمعراج إلى حد الانصهار في الذات الإلهية مثل الحلاج تأويلاً يعني في جوهره أن محمداً هو ضديد المسيح الحقيقي أو الدجال ومتمم ذلك النبذ الميتافيزيقي المزعوم»[١].

أين النصوص؟ أين الاستشهادات؟ أين البراهين الدامغة؟ لقد وردت تُهمة مماثلة عند أنور عبد الملك في مقاله الكارثي «الاستشراق في أزمة»، ولكنه استشهد بنصّ حوار مقتضب لماسّينيون، لا يبرهن على شيء، وبعيداً عن أن يكون معبّراً عن نزعة عنصرية تحقيريّة للعرب[٢]. إن هذا المرزوقي الذي اشتُهر بشراسته وأكاذيبه وإرهابه، وهي أشياء ليست غريبة عن الإسلاميين ككل، لا ينال إعجابه أي عمل فكري إلاّ عمله هو المحشوّ خوراً وتناقضاً وسباباً مقذعاً، وكلمات نابية قبيحة، مثل قوله في مقال بعنوان «فنون الجنس والسرير» بموقع «ألف لحرية الكشف» «**الإنسان الحديث لا يأكل ولا يَنيك بل يَتفرّج على الآكلين والنّائكين الذين هم بدورهم لا يأكلون ولا يَنيكون بل يُمَثلون دور الآكل والنّائك**».

لكن هل كان ماسينيون، كشخص وكعالم، بهذه الحقارة وبهذا القدر من العنصرية والروح الاستعمارية التي نسبها إليه الإرهابي أبو يعرب؟ أشك في ذلك لأن شهادات حذاق القوم من الدارسين تُفنّد دون رجعة مزاعم هذا الرجل السبّاب الذي لم يترك مفكراً واحداً في العالم إلاّ وشنّع عليه وقذفه بأبشع النعوت. لقد أشاد رودنسون بعمل

(١) أبو يعرب المرزوقي، *مدلول التلقي الغربي المعاصر للإسلام*، م. س، ص٤١، هامش ٣٠.

(2) Cfr., A. Abdel - Malek, "L'orientalisme en crise", p. 134, note. 12.

المستشرق ماسينيون ورَسَم صورة مشرقة لواحد من كبار العلماء الفرنسيين، ذي النزعة العالمية المناهضة للإستعمار. ماسينيون ينتمي إلى مجموعة من الكاثوليك اليساريين الناشطين في الحقل الاجتماعي السياسي؛ كان مُشبّعا «**بالنظرة الصّوفية للتاريخ، وتضرب جذوره بعُمق في التقاليد المسيحية العلمانية بما فيها من تفانٍ نحو الفقراء والبسطاء، فسار إلى آخر الشوط في ذلك الاتجاه الذي كان كامناً في مسيحية العصور الحديثة، والذي كان أقوى وأوضح مُمثليه**»(١).

إن الانفتاح الديني من طرف مسيحي كاثوليكي، مثل ماسينيون، يرجع إلى أن المسيحيين الكاثوليك غيّروا من موقفهم إزاء الإسلام، في الوقت الذي لا يزال المسلمون يعتبرون الديانات الأخرى كلها محرّفة وأن الإسلام هو أصح الأديان وخاتمها. فالحركة المسكونية الكاثوليكية «**تخلّت عن الضغط الزائد في المجال الروحي واعترفت بأن أصحاب العقائد الأخرى شركاء في الحوار، ويمكن أن يتحوّلوا إلى حلفاء، وأنهم أناس طيّبون متعلّقون بقيَم جديرة بالاحترام. لم يعودوا بالنسبة إليها أعداء يجب تحطيمهم**». ليس هذا فقط بل إن أعلى سلطة كنسية، مجلس الفاتيكان المسكوني، أشادت «**بالحقائق التي جاء بها الإسلام والتي تتعلّق بالله وقدرته ويسوع ومريم والأنبياء والمرسلين**»(٢). هذه النزعة الانفتاحيّة على الإسلام والقطع مع العداء القروسطي لنبيّه، التي سماها رودنسون «ثورة في التفكير» جعلت التقييم المسيحي لمحمّد

---

(١) مكسيم رودنسون، الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية، ضمن: تراث الإسلام، ج. ١، ص٨٨.

(٢) ن. م، ص٨٩.

مسألة حساسة للغاية. لم يعد محمداً، كما كان يقال في العصور الوسطى «محتال شيطاني»، بل إن بعض المسيحيين الكاثوليك المُتخصّصين بالإسلام «**يعتبرونه «عبقرياً دينياً»**»، آخرون ذهبوا أبعد من ذلك واعتبروه «**نبياً حقيقياً، ما دام القديس توماس الأكويني يقول بالنبوّة التوجيهية**»[١]. وعلى غرار ماسينيون، يواصل رودنسون، فقد أعجب بعض المسيحيين بالقيمة الروحيّة للتّجارب الدينية الإسلامية، وعارضوا مواقف الظلم «**التي وقفتها شعوبهم من الإسلام، كدين، وكمجموعة من الشعوب التي تعرّضت في الآونة الأخيرة للمذلّة والاحتقار**»[٢].

أما فرانتشاسكو غابريالي، المستشرق الإيطالي اللامع الذي قضى حياته في دراسة العالم الإسلامي، فقد أدلى بشهادة عارف مُحنّك، ورَسَمَ صورة إنسانية شيّقة لماسينوين. وقد كان مطّلعاً عن كثب على مؤلفاته: *وجد الحلاج والمعجم التقني للتصوف الإسلامي*، وقارئاً مثابراً لمجلّتيه: *مجلة العالم الإسلامي*، و*حوليات العالم الإسلامي*، ويكنّ له أسمى مشاعر الاحترام والتقدير لعطائه العلمي ولإنسانيته العالية. وقد بقيت تلك المشاعر مساوية لنفسها على مدى ثلاثين سنة[٣]. إن مصاحبة ماسينيون واتصالاته به (متفرّقة ووجيزة) يعترف غابريالي، كانت كافية لكي تترك فيه بصمة لا تُمحى، أي «**ذكرى دائمة لهذه الشخصيّة الاستثنائية** (*personalità eccezionale*)»[٤]. والسّبب في هذا الانطباع

---

(١) ن. م، ص٨٩.

(٢) ن. م، ن. ص.

(3) F. GABRIELI, *Orientalisti del Novecento*, Istituto per l'Oriente, Roma 1993, p. 93.

(٤) غابريالي، مستشرقو القرن التاسع عشر، م. س، ص٩٣.

القويّ وفي هذه التسمية التي قليلاً ما نسمعها تتداول بين الدارسين، هو تفانيه العلمي، ومعرفته الخارقة للعادة بالتراث الإسلامي. إن ما فتنه منذ اللقاء الأوّل مع ماسينيون، يقول غابريالي «**هو العمل الدؤوب، تقريباً الاهتزاز الجسدي الذي يَفيض من ذاك الرجل، من أجل التزامه، المَرِنِ والعنيد في نفس الوقت، بإشكالية تتجاوز بسيط الاهتمام العلمي تجاه العالم الإسلامي المتضلّع فيه تضلّعا بلا منازع. من هذا التضلّع، رحبٌ جدّاً بالنسبة لبعض القطاعات الدينية والاجتماعية للحضارة العربية الإسلامية العتيقة، وغير مسبوق (لا نظير له)، أقول، بالنسبة للوقت الحاضر، حتى الحوار البسيط معه يعطي دلائل مضيئة**»[١].

هذا الدارس المحقّق، الرّحالة دون هوادة، الذي لا يتوقّف عن العبور من نقطة إلى أخرى من العالم العربي الإسلامي «المُختص في العمق بمشاكله السياسية والدينية، اللغويّة والاجتماعية، مرتبط بخيوط لا تحصى بعلاقات حميمة مع أكابر شخصيات الإسلام، معاهده، معابده، مراكز بحوثه، ماسينيون يمثل بالنسبة لي، وأظن بالنسبة للجميع، نموذجاً فريداً من نوعه للاتّصال الحيّ بين العلوم الإسلامية الأوروبية وواقع العالم الإسلامي الحديث: عكس ذلك التكوين الكُتُبِي السائد الذي مثّل محدودية، وأيضاً عذاب دارسين آخرين (بما فيهم كاتب هذه السطور)، وشرّط قيمة فحوصهم، وأحكامهم على العرب والإسلام اليوم»[٢]. ومع ذلك فإن ماسينيون، يقول غابريالي، لم يكن، ولا ادّعى يوماً ما أنه «مَعصوم من الخطأ (*infallibile*)». لكنهم قليلون

---

(١) ن. م، ص٩٤.

(٢) ن. م، ن. ص.

أولئك الذين، لتدعيم أطروحاتهم، يستطيعون أن يأتوا بخلاصة تجارب على حقل الواقع، نظيرة له[1]. ما فَحوى أطروحات ماسينيون المركزية؟ في المجال التاريخي الديني، يقول غابريالي، التحليل العميق المتشعّب لكل التقاء بين الايمان المسيحي والعقيدة الإسلامية، كل وجوه التناسب حتى البعيدة منها بين ظواهر الروحانية المسيحية وتلك الإسلامية (يكفي أن نذكر صورة فاطمة، المقارنة بمريم العذراء)، لكلّ التقاء تاريخي بين الدّينين (القديس فرانشيسكو والملك الكامل)؛ قطاع هذا، حيث الدراسة المعمّقة للصوفية منحت لماسّينيون أخصب وأوعد حصاد فكري. في المجال السياسي «شَجْبُ الاستعمار... احترام الكلمة المُعطاة (*la parole donnée*) للعالم العربي والإسلامي عموماً، وبالجملة انهاء الاستعمار، مع كل التحولات العميقة وتغيير القيم التي تنطوي عليها. كل الرجال، ذوي الرفعة أو لا في تيار العروبة الحديث، الذين كافحوا من أجل هذا الهدف، كلّهم حظيو بتضامن هذا الدارس للعالم الإسلامي نَزيل الكوليج دي فرانس (*Collège de France*)»[2]. وبخصوص القضية الفلسطينية فإن ماسينيون لا يُخفي انحيازه إلى السياسة التحرّرية العربية، ولأجل التزاماته الشخصية هذه، خضع لمضايقات وإهانات حتى، وأمام المشاكل السياسية الحارقة، فإن ماسينيون «أصبح محل سخرية ومحلّ نفور من العديد، وصولاً إلى حدّ الإهانة والتعنيف الجسدي الواضح». ولكن الرجل لم يتأثر كثيراً بهذه الأعمال لأن الحقيقة والعدل هما بالنسبة إليه أعزّ ما يجب الدفاع عنه.

---

(١) ن. م، ص٩٤.

(٢) ن. م، ن. ص.

«الفيلسوف» الإرهابي التونسي، أبو يعرب المرزوقي، ينضمّ إلى قافلة الناقمين على هذه الشخصية الإنسانية الراقية[1]، ويبدو أنه محكوم بدينه وبتعاليمه العنيفة البائسة التي شعارها: الولاء والبراء. بعد أن حطّ من مجهودات ماسينيون وأعماله العلمية القيّمة، وبعد أن قذفه بوابل من التّهم النابية، ها هو الآن يتماهى مع ماسينيون، ويتكلّم باسمه مباشرة لكي يقوّله ما لم يقله، ويستنتج ما لم يستنتجه: «**أنا ماسينيون، ملك الحقيقة والمعبّر عنها، أكتشف حقيقة الجذام الميتافيزيقي الذي أصابكم أيها المسلمون في البدء (حادثة النفي) وفي الغاية (حادثة الإسراء والمعراج). وها أنا ذا أبيّن لكم الطريق إلى تجاوزه: إنها طريق تصوف الحلاج الذي حرر الإسلام من نقصه بأن بلغ به الغاية أعني المسيحية التي هي الدين الوحيد التام الذي أدعوكم إليه أيها العرب والمسلمون السّذج، ولعل ما ورد في رسالة بعثها إلى أحد أصدقائه حول الحوار مع العرب والمسلمين أكبر دليل على ذلك: فقد ذكر فيها أن الحوار معهم لا يمكن أن يكون إلا من منطلق نكوصهم إلى التصور الأبوي الإبراهيمي!**».

هذا الخطاب التشهيري المقذوف من طرف رجل معروف بسلاطة لسانه وبخوره المستديم، مُوجّه بالدرجة الأولى إلى المثقفين العرب الذين كان قد كال لهم من قبل أبشع النعوت. وهو يستغرب من عدم ادراكهم ما أدركه هو، ومن تماديهم في دراسة أفكار ماسينيون وتدريسه أو حتى مجرّد الإعجاب به. وهنا يَحصرهم بين خيارين أحدهما أمرّ من

---

(١) انظر التقييم النقيض الذي كتبه عبد الرحمان بدوي في مقدمة كتابه: شخصيات قلقة في الإسلام، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٤، صي - يز.

الآخر: إما أن يتجرّعوا صاغرين سبابه وشتائمه البذيئة ويعترفوا بأنهم كتلة من الأغبياء، أو يتقبّلوا عن طيب خاطر تهمة التواطؤ مع الجاسوس الأجنبي وتبنّي تصورات منافية للإسلام الصافي (التّيمي الوهّابي) الذي يدعو إليه هذا الرجل. لكن مع اختلاف جوهري قد يكون هو الأهم، وفي هذا الصدد يعلو ماسينيون على أتباعه العرب: وهو أن الرجل يملك إيماناً خالصاً بأطروحاته، في الوقت الذي تنقص أتباعه العرب صفات الاخلاص والأمانة العلمية. إنهم يرغبون، فقط، في الحصول على مآرب أخرى بأثمان بخسة، وبالتالي فهم كذابون وانتهازيون: «وأغرب ما في الأمر موقف المثقفين العرب والمسلمين من معاصري ماسينيون أو الحاليين وإعجابهم به. فهذا الإعجاب لا يمكن أن يفهم إلا بأحد أمرين: إما عدم فهم قصده الواضح وهو مستبعد **لكونه يعني أنهم بلغوا درجة من الغباء يصعب تصديقها**، أو **التواطؤ الناتج عن الاقتناع بهذه التصورات مع فقدان الإيمان الحار والصادق الذي يتميز به ماسينيون عليهم، للحصول على عوض بخس لا يشرئب إليه إلا المثقف الكاذب**. فهو يقدم لهم شهادة في حيازة فكر رفيع وتعال على العامة ويحقق لهم وهم منزلة الاعتراف في الرأي العام الاستعماري (مثال ذلك طه حسين الذي يتفق مع ماسينيون بخصوص منزلة الإسلام ولكن من منطلق آخر، هو منطلق الموقف الوضعي من الدين)..[(١)]».

كل هذه البضاعة المُرِبكة جدّا، نَبَعت من دماغ «فيلسوف»، أستاذ الفلسفة في جامعة تونس الأولى، كما كُتب في أسفل الصفحة من

---

(١) أبو يعرب المرزوقي، ، مدلول التلقي الغربي المعاصر للإسلام، م. س، ن. صن. هامش. (التشديد من عندي).

المقال. وأرى أن هذا الحقد المسعور على المثقفين العرب والعلماء الغربيين من أمثال ماسينيون هو تثمينهم للتجربة الصوفية، وجرأتهم على كسر التديّن الفقهي المَبنيّ على عبوديّة الشرائع وعلى أداء الفرائض وقهر الخلق بها. وكل من أدرك، ليس فقط كرهه، بل حقده المسموم على ذكر أسماء المتصوفة، عدا معتقداتهم وطرقهم ومناهجهم، فإنه لن يستغرب هذا الكلام الذي يبرّر به تهجماته على ماسينيون وأتباعه العرب: «والواقع أن كل المعتقدات الصوفية وكل **ادّعاء للتعالي على العامة**، كل ذلك ليس إلاّ شعوذات أكثر عامّية من كل المواقف العامية بقدر لا يكاد يصدقه أحد. فمجمل معتقدهم يعود إلى التسليم بأوهام تسمى أسرار الوجود وبوهم الأوهام المتمثل في ظن ذلك معلوماً لهم وحكراً عليهم ثم تحويل ذلك إلى **أساس للوساطة الروحية بما هي القاعدة التي ينبني عليه سلطانهم الدنيوي** إذ ليس الأول عندهم إلاّ أداة الثاني [...] ولعل أكبر الأدلة هو كون هذه الأسرار ليست شيئاً آخر غير المعنى المتعامق الكاذب التي من جنس كرامات الأولياء ومعجزات الوسطاء وهي جميعاً حيل ساذجة من جنس حيل السيمائيين وكل خفاف الأصابع كما هو الشأن في مهرجانات الأطفال»(١).

هذا هو أعلى سقف الأفكار التي يمكن أن تصل إليها مداركه، وأقصى ما يمكن أن يتمخّض عنه دماغه، والمستوى الأقصى الذي يَليق بهذا الإرهابي المَخرُور، أبي يعرب المرزوقي، المُتطفّل على العلم والعلم في حِلّ منه، والمتطفّل على الفلسفة، والفلسفة بعيدة عنه بعد السماء عن الأرض لأن الفلسفة والإرهاب لا يجتمعان. إن هذا الرجل

---

(١) ن. م، ن. ص.

حامل لجرثومة الإرهاب منذ عشرات السنين (اقرؤوا السببية عند الغزالي)، وبسبب تحريضه العلني على الإجرام فإن يديه ملطّختان بدماء السوريين والتونسيين والليبيين والشيعة والمتصوفة الذين سقطوا على أيدي الإسلاميين. ومع ذلك فهو صديق جعيّط وحليفه في ضرب المستشرقين، لا بل حتى في سفك دماء السوريين لأن جعيّط انخرط قلباً وقالباً مع جرذان الإسلاميين وكان يتحيّن منذ خمسين سنة، منذ عهد بورقيبة، هذه الفرصة الثمينة لكي ينقضّ على الحداثة ويسترجع مشروع الخلافة الذي يحققه الآن آكلي لحوم البشر. لم نسمع منه ولو مرّة واحدة إدانة واضحة وصريحة للإرهابيين الإسلاميين، ولم نره مرة يتحدث عن التحالف بين الإسلاميين والصهاينة والنّاتو لتدمير الجيش العربي السوري. لكنه يُثني على الإرهابي المنصف المرزوقي الذي وضعته لنا قطر والمخابرات الأمريكية لكي يحكم البلاد ويشجع الإرهابيين على الدخول في حرب ضد الجزائر. ولم يُدرك أن ما يُسمى بـ «الربيع العربي» هو ربيع إسرائيل، وأن سوريا هي المستهدفة لأنها البلد الوحيد الصامد أمام اختراق الصهيونية والامبريالية العالمية التي تريد أن تعود بالعالم العربي إلى قرون الظلام وتُفتّته إلى إمارات إسلامية متناحرة.

١٤ ـ آثار جعيّط الدائمة:
التزوير الشامل للتاريخ

إن بذرة أعمال جعيّط سقطت في أرض خصبة فأينعت وبدأت تعطي أكلها بِوَفرة، وهذا الأكل جاء في كتاب لباحثة تونسية، سلوى بالحاج صالح، بعنوان، **المسيحية العربية وتطوراتها: من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي**، وهو في الأصل أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط أنجزته تحت إشراف الأستاذ الدكتور هشام جعيط في جامعة تونس الأولى سنة ١٩٩٥. ثم نُشر في بيروت، أغسطس ١٩٩٧، وصدرت له طبعة ثانية في أكتوبر ١٩٩٨. لكن هذا العمل الذي يبدو بعيداً عن مشاغل الإنسان العامي، خرج من طور البحث الأكاديمي إلى طور الترويج والاشهار، ومَن تكفّل بالترويج إليه؟ قناة تلفزية اسمها «الميادين» ذات منحى إسلاموي رجعيّ، وصاحبها اخواني حاقد على العلمانية حتى الموت، والعاملين فيها من صحفيّين أغلبهم إن لم أقل كلّهم إسلاميين، يدافعون عن المشروع الاخواني الرجعي التخريبي. فعلاً، لكي تكتمل دورة تزوير التاريخ وتحسين صورة الإسلام استُدعيتْ هذه الباحثة من طرف قناة «الميادين» الإسلاموية، في برنامج «أجراس المشرق»، وبدأت تبث أطروحاتها المسمومة في عقول المشاهدين العرب الذين لم يتسنّ لهم قراءة كتابها، أو لم يعرفوا شيئاً عنها وعن

مشروعها. في هذا الحوار، قامت هذه الباحثة سليلة مدرسة جعيّط، باكتشاف باهر، وهو أن مبدأ التعدد والاختلاف ليس هو مبدأ تنادي به العلمانية فقط، وإنما كان شيئاً موجوداً عند العرب من قديم الزمان، قبل أن يظهر الإسلام إلى الوجود. قالت إنها اكتشفت حرّية دينية بين العرب، وأنها أرادت بعمَلها هذا أن تضرب فكرة أحادية الدين، وتُبرز أن العرب كانوا أيضاً مسيحيين، وهذا الاكتشاف الباهر تكرّمت به علينا وكأنه سرّ مخفي منذ زمان. إن جعيّط واتباعه لا يَنفكّون عن الخور، وعن الاشادة بأعمالهم وكأنهم أيقضوا البشرية من سباتها العميق أو أنقذوها من خطر داهم، في الوقت الذي حتى صبيّ في قسم الابتدائي يعلم أن العرب كانوا مسيحيين ويهود وربما زرادشتيين، وأن الإسلام جاء متأخراً عن المسيح بستة قرون[1].

قالت إنها أرادت أن تُبرز هذا الأمر بشكل أكاديمي علمي وقد شجّعها أستاذها هشام جعيط على المضيّ قُدما في بحثها. ولكي نضع أقوالها على محك العقل ونمتحن مدى جدّيتها وحِرفيّة عملها، يجب أن نذهب إلى المنبع، إلى نصّها الذي تناولت فيه هذه القضية الخطيرة. في المقدمة تقول: إن اهتمامها بالمسيحية العربية، في نشأتها وتطورها، «لا يتأتّى فقط مما في هذا الموضوع من إثارة لروح البحث التاريخي من أجل معرفة الحقيقة كما هي، لا كما يريدها بعض الإيديولوجيين الذاتيين من هذا الشق أو ذاك والذين ينطلقون من أفكار مسبقة ليُقوْلِبوا على أساسها الواقع، إنما أيضاً من أهمية الأطراف التي شملها

(١) انظر الحلقة في موقع قناة الميادين، برنامج «أجراس المشرق» مع سلوى بالحاج صالح ـ مؤرخة تونسية ـ ٠٧ ـ ١٢ ـ ٢٠١٤.

البحث»[1]. مثيرة للانتباه الاشارة الضمنية إلى هؤلاء الأيديولوجيون الذاتويين، دون ذكر أسمائهم ولا ملامحهم والاكتفاء فقط بالقول إنهم ينطلقون من أفكار مسبقة يرومون من خلالها تفصيل الواقع بحسب قوالبهم الشخصية الجاهزة. لكن منذ البداية، وفي هذه المقدمة المقتضبة جمعت عُصارة أفكار جعيط وتوجهاته الإسلاموية، من حيث رفضها عروبة المسيحيين، وإخراجها مصر من دائرة العالم العربي، كما كان قد فعل جعيط وبنفس التعبيرات. قالت إن المسيحية القديمة «شملت قبائل كثيرة وأحياء معروفة كانت منتشرة في الجزيرة العربية والعراق والشام والجزيرة الفراتية. ويُعَدّ أفرادها من ذوي **الأصل العربي الخالص أي من العرب الأقحاح**»[2]. أما المسيحيون الحاليّون فهم ليسوا عرباً لكونهم، على حد زعمها وعلى حد زعم جعيّط «**مستعربين، منحدرين من أجناس متعددة كالسريان واليونانيين**»[3]. إن لم يكن هذا سحقاً للمسيحيّين العرب الحاليّين أو تبريراً لسحقهم فلا أدري ما هو بالتحديد.

المسألة الجوهرية التي خاضت فيها الكاتبة المؤرخة، تسميها مسألة شائكة، هي تحديد «تشيّع هذه القبائل [القبائل العربية] لتلك الديانة [المسيحية] بدقة»[4]. الكاتبة تقصي منذ البداية، وسنرى لاحقاً السبب الحقيقي، أن يكون هذا «التشيّع» أو بالأحرى اعتناق الديانة المسيحية

---

(١) سلوى بالحاج صالح ـ العايب، المسيحية العربية وتطوراتها: من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، دار الطليعة، بيروت ط. ٢، ١٩٩٨، ص٦.

(٢) ن. م، ن. ص.

(٣) ن. م، ن. ص.

(٤) ن. م، ص٢٦.

من طرف العرب، حَدَث في القرن الميلادي الأوّل. تقول: «لا نجازف بأخذ القرون الميلادية الثلاثة الأولى منطلقاً لهذا البحث»[1].

إن الإنصاف إلى «النصارى الحاليين» يمرّ عبر هذه النقطة، والأسباب التي قدّمتها المؤرخة، واهية وغير مقنعة، بل هي في شكلها ومضمونها جاءت على شكل جُملٍ تقريرية وأحكام قيميّة مرصوصة بدل أن تكون براهين عقلانية. تقول إن الأسباب التي تجعل المسيحية العربية غير موجودة في القرن الثالث هي أن الحضور العربي بالشام في شكله القبلي الواضح لم يتأكّد إلا في القرن الرابع.

والمعلومات المستمدّة من التراث المسيحي القديم، مثل الأناجيل وأعمال الرسل، التي تورد أسماء عربية اعتنقت هذه الديانة منذ بروزها، أنأخذها بعين الاعتبار أم نتركها أم نتجاهلها؟ المؤرخة تقول إن هذه الوثائق لا يُعتَدّ بها، وهكذا بِجَرّة قلمٍ مَحت كل الشواهد التي تفنّد أطروحتها. إن هذه الشواهد التي تثبت انتشار المسيحية في أرض الشام، حسب رأيها، غير قابلة للاستعمال، وأن الثلاثة قرون الأولى يجب استبعادها من البحث، وتقريرها التعسفي هذا، تُبرّره بالأسباب التالية: «الحضور العربي بالشام في شكله القبلي لم يتأكّد **إلاّ في القرن الرابع**.. إن المعلومات الواردة في الآثار النصرانية القديمة، مثل **الأناجيل وأعمال الرسل، زيادة على غموضها، لا تفيدنا بشيء في توضيح بداية تنصّر العرب، إذ أنها لا تحوي سوى إشارات جزئية وضبابية حول عرب حضروا في عهد الرسل بكنيسة القدس**». هكذا، الأناجيل وأعمال الرسل

(١) ن. م، ن. ص.

غير قابلة لحسم المسألة التاريخية لأنها ضبابية؛ الجملة التقريرية التي تمثل استنتاجها المسبّق، رغم كل ما روي عن المسيحية وعن حضورها المبكر في الشام وفلسطين، هي هذه: «**إن الديانة المسيحية لم تتركّز ولم تستقر في مختلف جهات بلاد الشام إلا بداية من القرن الرابع**»[1]. وهذا الاستنتاج المسبق، له انعكاسات خطيرة، إن لم أقل إجرامية على ذاكرة المسيحية العربية، لأن الغرض منها هو القول بأن المسيحية هي حدث طارئ، لم يدم إلاّ قرن ونصف، حتى مجيئ الإسلام، وأنها لم تَحيا إلا لفترة قصيرة، وتمركزت في منطقة محدودة وبين قبائل متفرقة، لا جذور لها متينة، وبالتالي فإن الإسلام لم يقض عليها وإنما قضت على نفسها بنفسها.

جُمَل تقريريّة ومصادرات لا تاريخية، وتَشفٍّ في المسيحية، مع تبرير ما قبلي للإسلام ومسح ذاكرة كل حملات الابادة التي قام بها الغزاة العرب. إن أي قارئ موضوعي لهذا العمل يحدس دون عناء الأرضية الإيديولوجية التي تنطلق منها الكاتبة، والغاية التي تصبو إليها: أرضية إسلاموية بحت، غاب فيها التاريخ الموضوعي وحضر فيها التبرير الديني والمنافحة. فعلاً، هذا التشبث بعمليّة تأخير تمسيح العرب، من بلاد الشام إلى العراق، وصولا الجزيرة العربية، الغرض منه كما قلتُ هو تسويغ انقراض المسيحية واضفاء مشروعية على العنف الذي استخدمه المسلمون لاستئصالها من الشرق، وهو عنف متواصل إلى اليوم وأجلى دليل على ذلك ما تَقترفه داعش من شناعات في سوريا والعراق. ليس لديّ أي تفسير آخر، وهذه الباحثة واعية بأن أطروحتها

(١) ن. م، ص٢٧.

لها ما يعارضها في التواريخ الأخرى، وتُقرّ بأن هناك بعض الدراسات «حاولت إرجاع أصول المسيحية العربية بالشام **إلى القرن الميلادي الأول استناداً إلى ما جاء في الأناجيل وأعمال الرسل**»[1]، لكنها لم تلتفت إليها، بل سفّهتها وسخرت منها. وكيف لا تفعل ذلك ومشروعها يقف في الطرف النقيض منها؛ مشروعها أو المحور الحامل لتأريخها واضح وصريح: «إن دراستنا للمسيحية العربية بالشام ستنطلق **من القرن الرابع**، وسوف نتتبع تطوّرها إلى مجيئ الإسلام»[2].

لقد بَنت دراستها كلها على هذا التأريخ وقضت أيضاً، حسب معلومات قالت إنها مؤكدة، بأن الغساسنة تنصّروا في القرن السادس، يعني بالتزامن مع بروز الإسلام. والمعلومات التي تؤكد ذلك استقتها من المؤرخين العرب، والذين نعلم أن تواريخهم منحازة، يغلب عليها الطابع الديني، وخالية تقريباً من الموضوعية العلمية. ثم هجمت على الباحثين الذين حاولوا اثبات تنصّر الغساسنة قبل الحملة اليعقوبية في القرن السادس وقالت إنهم لم يقدموا «شواهد ثابتة ومباشرة عن تنصّرهم»[3]، في الوقت الذي اعتمدت فيه هي على شواهد من المؤرخين العرب واعتبرتهم ثقات. هل تذكرون وحوش داعش الذين عذّبوا المسيحيين في سوريا والعراق، وكتبوا على أبوابهم (ن)، يعني نصراني؟ المؤرخة التونسية، تلميذة المؤرخ الكبير هشام جعيّط، تختار تسمية المسيحيين «نصارى»، لا مسيحيين، تحت تعلّة أن الاتفاق

---

(١) ن. م، ص٢٦ ـ ٢٧. هامش، ٨٩.

(٢) ن. م، ص٢٧.

(٣) ن. م، ص٣٦.

حاصل حول مدلول هذه التسمية: «أتباع المسيحية في الشرق بما في ذلك العرب. وهو المعنى الذي سنتقيّد به في بحثنا هذا. فالنصرانية العربية تعني بالنسبة إلينا المسيحية العربية، والنصارى العرب هم المسيحيون العرب والنصارى بشكل عام هم مسيحيو الشرق عرباً كانوا أو غيرهم»[1]. وفعلاً تقيّدت بهذه التسمية واستخدمتها بكثافة في كل مفاصل كتابها: «لقد أثبتت **المصادر العربية** تنصّر قبيلة بهراء... مدى انتشار **النصرانية**... كما أشار **البلاذري** إلى **تنصّر** الذين يسكنون بخناصرة شمال سوريا... بني كنانة ينتسبون إلى **النصرانية**.. وجود هذه الأرستقراطية **النصرانية** العربية... **النصرانية** كانت منتشرة في عدد هام من بطون كلب... إن **تنصّرهم** حصل خلال القرن السادس»[2]. ومهما كانت هذه التسمية جارحة، ومهما حملت من شحنة تحقيريّة، ومهما فعل المسيحيون للتصدي لهذه التسمية الخاطئة، (وهي تسمية تلمودية استخدمها كاتب القرآن من هذا المنبع)، ومهما احتج المسيحيون على شحنة الاساءة الكامنة فيها، فهي تصرّ، مثل داعش والإسلاميين جميعهم، على تسمية المسيحيين «نصارى»، وتعتمدها في كامل بحثها. وهذا مؤشر أوّلي على المحتوى الفاضح المنحاز الذي سيجده القارئ في ثنايا هذا العمل الذي أقل ما يقال فيه أنه غير جدي إيديولوجي يقطر كرها للمسيحية.

الأطروحة المركزية التي لم تَحِذْ عنها هي هذه الثابتة الزمنية التي تخللت كل استنتاجاتها: «اعتبار **القرن الرابع** منطلقاً لمسيحية عربية

---

(١) ن. م، ص٢٨.

(٢) ن. م، ص٤٢ ـ ٤٣.

منظّمة في الشام» وأن أقدم القبائل العربية الشامية «تنصّرا»، تنوخ وسليح في «**القرنين الرابع والخامس**، ومن القبائل التي ثبت تنصّرها متأخراً (**القرن السادس**) غسّان، كلب، بنو عذرة..[1].».

ومن الشام تحوّلت إلى العراق، والأسلوب واحد: جُمل تقريرية وتواريخ مستمدّة من كُتّاب عرب قدامى، دون حجج مادية ثابتة، للتدليل على أن المسيحية، حتى في العراق جاءت متأخرة: «إن أقدم الشواهد الثابتة على **تنصّر العرب في العراق تعود إلى القرن الرابع**»، وتقول إن أهم المعطيات المتوفرة «عن جذور نشأة المسيحية العربية بالحيرة والتي تبرز بشكل ثابت انتشار المسيحية بين عرب جنوب العراق **منذ القرن الرابع وخصوصاً بالحيرة التي تطوّرت إلى مركز مسيحي هام منذ القرن الخامس**»[2]. وملوك الحيرة تأخر اعتناقهم الديانة المسيحية (**إلى أواخر القرن السادس**)[3].

لكن رغم كل ما فعلته لتأخير زمن بروز المسيحية في الشرق وانتشارها بين القبائل العربية الكبرى، فهي تسقط في تناقضات رهيبة، وتُطلّ التواريخ الصحيحة، دون أن تتفطن إلى تضارب الأخبار والشواهد. تقول إن الديانة المسيحية عرفت «منذ القرن الثالث تطوّراً هاماً من حيث الانتشار وعدد الأتباع وهو ما ساعد على بروزها في شكل منظّم في العديد من المناطق الشامية»، وبعد إعلان ميلانو عام ٣١٣ ميلادي «دخلت المسيحية مرحلة ثانية من تاريخها واستمرّ العمل

---

(١) ن. م، ص٤٥.
(٢) ن. م، ص٥٤.
(٣) ن. م، ص٥٩.

التبشيري حثيثاً في مختلف جهات البلاد، فامتدّت هذه الديانة إلى أطراف الشام الجنوبية ومختلف المناطق العربية التي ترتفع فيها كثافة السكان العرب»[1]. والآن نسيت القرن الرابع الذي هو محور تأريخها ونقطة بداية عملها التحريفي، وقسّمت مراحل المسيحية في الشرق إلى مرحلة أولى، فترة الاضطهاد التي تواصلت حتى تمسّح الامبراطور قسطنطين، ومرحلة ثانية اكتسحت فيها المسيحية كل الأراضي العربية واجتاحت حتى المناطق ذات الكثافة السكانية العالية. وأبعد من ذلك، «المناطق التي سيطرت عليها القبائل العربية وانتشرت فيها كانت تحتوي عواصم ومراكز دينيّة عديدة منها: جرش، عمّان، مادابا، حسبان، وهي كلها بمنطقة البلقاء، درعة (درعا)، صنمين، نوى، بُصرى، سويداء، قنوات، شهبة، سكّة، أم الجمل، بوراق، مسميّة، عزرا، حرّان، كرك، ربّة، الرّصافة، تدمر»[2]. هل بقي جزء من العالم العربي لم تكتسحه المسيحية؟ هل بقيت مدينة كبرى أو تجمّع سكاني أو قبيلة نائية لم يَشملها الدين المسيحي؟ حسب أقوالها هي نفسها فإن الشرق كله ومراكزه الكبرى تلوّن باللون المسيحي وانتشر في جميع مفاصله، لكن السيدة سلوى بالحاج، لا تستنتج ما ينبغي استنتاجه من هذه الظاهرة التاريخية، لأنها لو ذهبت بها إلى مداها الأقصى لتخلّت عن فكرة أن المسيحية لم تبرز ولم تترسّخ إلا في القرنين الرابع والخامس الميلادي. إنه أمر يدعو للتعجب حقّاً، كيف أنها نسيت أطروحتها المركزية، وأخذت تنقضها بنفسها، وتورد الشواهد على أن المسيحية تغلغلت في

---

(١) ن. م، ص٣٠ ـ ٣١.

(٢) ن. م، ص٣١.

الشرق منذ وقت بعيد: «إلى جانب إشعاع هذه المراكز على السكان العرب، كان لظاهرة أخرى شديدة الأثر على تنصّر القبائل العربية، وتتمثل هذه الظاهرة في الرّهبانية والنسّاك المُنعزلين. وبهذا الصدد يقول دوشاسن: «كانت صحراء سوريا من لبنان إلى جبال أرمينية تزخر بالنسّاك المنعزلين»»[١].

ماهي النتيجة التي يمكن أن نستخلصها من خلال هذه المعطيات التاريخية؟ أن المسيحية توطّنت في الشرق منذ البداية واكتسحته وجرت في شرايينه، ووصلت إلى الصحاري والمناطق النائية. ورغم تقادم التمسيح فإن استنتاجها مستقر على أن المسيحية هي بِنْت القرنين الرابع والخامس فقط، يعني قرنين من الزمن، وهو وقت قصير لنشر وتمتين دين ما[٢]. وهذه بالفعل هي «الحقيقة» الأساسية التي خرجت بها المؤرخة التونسية «فيما يتعلق بتاريخ تنصّر عرب الشام هو ظهور أسقفية عربية منذ النصف الثاني من **القرن الرابع**، وبالتالي يمكن الحديث عن مسيحية عربية منظّمة منذ هذه الفترة لكن لا يصحّ تعميمها على كل عرب الشام»[٣].

أما العراق فهي تعترف بأنها «من البلدان التي عاشت التجربة المسيحية منذ القرون **الميلادية الأولى**» وأنها شهدت «وُفود فِرَق مسيحية مختلفة تنافست من أجل كسب أكبر عدد ممكن من الأتباع. ومن المؤكد

---

(١) ن. م، ن. ص.

(٢) بعد أن استعرضت معطيات شتى من هنا وهناك، ذهبت مباشرة إلى النتائج، ولكن الفكرة مستقرّة، المسيحية نشأت وترعرعت في القرنين الرابع والخامس: «استعرضنا ببعض التفاصيل»

(٣) ن. م، ص٣٢.

أن حركة التبشير المسيحي أثّرت على سكان العراق بمن فيهم العرب»[1]، وهكذا نسفت مقولتها التزويرية التي تشبثت بها في كامل كتابها، من أن المسيحية دخلت بلاد العرب في القرن الرابع ـ الخامس. لكنها تستفيق من حين لآخر، وتعود إلى نفس الثابتة الإيديولوجية التي اخترقت عملها، ففي رأيها رغم أن العراق شهد تمسيحاً عاماً وشاملاً منذ القرون الأولى، بقي العرب منزوين في جيوب نائية، جامدين ومُبعَدين عن هذه الموجة، حتى القرن الرابع ـ الخامس، بل أحياناً القرن السادس: «إن **أقدم الشواهد الثابتة** على تنصّر العرب في العراق تعود إلى **القرن الرابع**»[2] وأن نشأة المسيحية بين عرب جنوب العراق حدثت «منذ **القرن الرابع**»[3]؛ الحيرة تطوّرت إلى مركز مسيحي «منذ أوائل **القرن الخامس**»؛ عَرفت المسيحية العربية في العراق تطورات هامة «منذ **منتصف القرن الخامس**»[4]. الاستنتاج المبدئي الثابت عن مسيحية العراق لا يخرج عن النموذج المستخدم في سوريا: «نشأت المسيحية العربية في العراق **منذ القرن الرابع** في شكلها الأرثوذكسي، وأصبحت الحيرة منذ أوائل **القرن الخامس** مركزاً مسيحياً هاماً»[5].

ولم ينج حتى اليمن من هذا التزوير، والعمليّة ثابتة ومُساوية لنفسها: في البداية تطرح مقدمة عامة تهدم بها أطروحتها المركزية، وبعد ذلك تضيّق عليها الخناق لكي تَمحيها من الوجود وفي النهاية

---

(١) ن. م، ص٥٠.
(٢) ن. م، ص٥٤.
(٣) ن. م، ن. ص.
(٤) ن. م، ن. ص.
(٥) ن. م، ص٦٥.

تخرج باستنتاج يتنافى مع ما قالته من قبل. الأطروحة العامة فيما يخص اليمن، وشبه الجزيرة العربية عموماً هي هذه: «تمكّنت المسيحية إلى النفاذ إلى شبه جزيرة العرب، وقد اعتنقت جماعات من سكانها هذا الدين، وتُردِّد مصادر التاريخ الكنسي دخول المسيحية إلى هذه البلاد **إلى أيام الرسل المبشرين الأوائل**»[1]. هذه الأطروحة العامة، التي كما قلنا تتناقض مع فكرتها الثابتة، والأدهى أنها تزيد في تمتينها وفي اضفائها مشروعية تاريخية: «ومن الاشارات الدالة على ذلك تأكيد عمرو بن متّى على دور القدّيس ماري أحد السبعين الذي يُنسب إليه تنصير بلاد بابل والعراقين والأهواز واليمن وبلاد العرب وسكّان الخيم ونجران وجزائر بحر اليمن وبحر الهند»[2]. هل من أدلة نصّية على هذه الأطروحة؟ طبعاً، هناك مؤرخون كنسيّون أوْرَدوا هذه الأخبار، لا تريد أن تنقلها لأنها يطول بها المقام «ولو شئنا لطال بنا ذكر أقوال جميع المؤرخين المشرقيّين السّريان والغربيّين واليونان واللاتين، وغيرهم ممّن يرجعون انتشار هذه الديانة في بلاد العرب إلى فجر ظهورها».

لكن هذه الأطروحة الأولية التي تجعل تمسيح جزيرة العرب بالكامل منذ الأيام الأولى للمسيحية، والتي دعّمتها هي نفسها بأقوال عمر بن متى وبأقوال المؤرخين اليونان، مهما حازت من مصداقية ومهما كثرت الشواهد التاريخية، فهي لا تستطيع أن تأخذ بها، لأنها تملك بديهيات أخرى غير قابلة للنقاش: «**من البديهي أننا لا نستطيع موافقة المؤرخين على ما ذكروا ما لم تدعم حججهم شواهد تاريخية جدّية**». لسائل أن

---

(١) ن. م، ص٦٧.

(٢) ن. م. ن. ص.

يسأل: لماذا **من البديهي لا تستطيع الموافقة؟** ما المانع من أن تأخذ بأقوال طيف المؤرخين الذين أثبتوا حضور المسيحية في بلاد العرب منذ وقت مبكّر؟ هل المسألة التاريخية تتلخص في رأي شخصي أو تنحصر بين موافقة ومعارضة؟ السبب الوحيد الذي بحوزتنا هو انتقائية عملها وتحيّزه إلى فكرة واحدة، وهي أن المسيحية كانت متأخرة جدّاً في تاريخ العالم العربي، وأنها مجرد فاصل زمني قصير، لم يُكتب لها الدوام والبقاء نظراً لهشاشتها، وانقرضت من ذاتها، وأن الإسلام لم ينتشر على حساب المسيحية ولم يمسسها بسوء.

إنها لصدمة كبرى، بل هرسلة متواصلة للقارئ في ثنايا الكتاب كله أن تُعيد وتكررّ دون هوادة نفس التاريخ، وتَسحبه على البلدان العربية بأسرها من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب: أول عمليات التبشير في اليمن «تعود إلى **القرن الرابع**»[1]؛ المسيحية الآريوسية دخلت إلى اليمن «في **القرن الرابع الميلادي**»؛ نجران عرفت المسيحية «منذ **بداية القرن الخامس**... ومنذ **القرن السادس** انطلقت الحملات التبشيرية المونيفيزية في اليمن»؛ البحرين هي بدورها وصلها التبشير المسيحي «في **أواخر القرن الرابع** الميلادي»[2]؛ أما داخل البحرين «فإن أقدم معلوماتنا عن انتشار المسيحية فيها تعود إلى **النصف الثاني من القرن السادس**»[3]؛ عُمَان كانت لها أسقفية منذ «الرّبع الأول من **القرن**

---

(١) ن. م، ص٦٨.
(٢) ن. م، ص٧٧.
(٣) ن. م، ص٧٨.
(٤) ن. م، ص٧٩.

الخامس»[١]؛ المسيحية النسطورية انتشرت «خلال القرنين الخامس والسادس بين أهل عُمان»[٢]. مَن الشاهد على هذه المعطيات؟ الطبري، رواية أوردها الطبري «بإسناد أبي طفيل»[٣]. ومع ذلك ورغم أن المؤرخين العرب، قليل ما يعتمد عليهم لأن تواريخهم في فترة ما قبل الإسلام غائمة ضعيفة خيالية تعج بالأخطاء، أقول على الرغم من ذلك فهي متيقنة: «بات من الثابت أن المناطق الشرقية للبلاد العربية عاشت التجربة المسيحية **منذ القرن الخامس**»[٤].

الجزيرة العربية، مَهد الإسلام، يجب الحذر في التعامل معها، يجب دحر المسيحية بعيداً عنها، وتجنّب ادخالها في حرمها كي لا تُضفى أيّة مشروعية على تواجدها التاريخي هناك، وتفادي الدخول في مماحكات مع المسيحيين حول المسؤولِ عن انقراضها. الحل الوحيد هو نكران وجودها بالكامل، وتجميع شواهد متفرّقة، أغلبها مُستقاة من مؤرخين عرب، لإثبات ذلك. لم تنجح كل محاولات تمسيح العرب لبعضهم البعض: «**يبدو أن مجهود العرب في تنصير بني جنسهم بقي منقوصاً ولم يكتمل عند مجيء الإسلام إذ لم نلاحظ أي تنظيم كنسي بين عرب نَجْد واليمامة**»[٥]. أما في الحجاز فالمسألة لا تحتاج أي بحث أو تمحيص، فهي بيّنة بذاتها وقد حسمت منذ زمان، ومن حسن الحظ أن الذي حسمها هو مؤرخ غربي، فرنسي واسمه دوشان (Duchesne)،

---

(١) ن. م، ص٧٩ ـ ٨٠.
(٢) ن. م، ص٨٠.
(٣) ن. م، ص٨١.
(٤) ن. م، ص٨٤.

فزادت حماستها وصعدت إلى أقصى حد: «**كتب دوشاسن** [هكذا] مُبدياً رأيه في هذا الموضوع فقال: «وصلت الحملات التبشيرية إلى نجد، لكن في فترة متأخرة **ليست قبل القرن السادس. أما الحجاز فلم تصلها تلك الحملات أبدا**»»[1]. رأي فقط لدوشان، أصبح دليل كاف، ولكن الدليل الإضافي، وربما الأقوى يأتي من جانب مستشرق شرس في عدائه للإسلام، أعني لامّنس (Lammens) الذي ذهب في «بحثه المسهب»، حسب قولها، إلى أن «العدد الكبير للمسيحيين فيها ليسوا سوى أجانب. أما **المسيحيون** من أهالي البلاد **فهم حالات نادرة جدّاً**»[2]. النتيجة، لا بل الحقيقة الثابتة جدّاً، كما تقول الكاتبة نفسها «**الحقيقة التي تبرز**»، هي أن المسيحية «**لم تكن مُمثّلة في تلك المنطقة تمثيلاً هاماً لا من حيث العدد ولا من حيث التنظيم. فلا أثر فيها لنظام ديني ولا لأسقفات**»[3]. هذه هي الحقيقة الثابتة، أما محاولة لويس شيخو لإثبات دخول المسيحية لبلاد العرب منذ القرن الأول[4]، فهي محاولة خاطئة وفاشلة.

---

(١) ن. م، ص٨٥.

(٢) ن. م، ن. ص.

(٣) ن. م، ن. ص.

(٤) ن. م، ص٨٦.

١٥ ـ من التاريخ المزوّر إلى اللاهوت الجدالي

بعد أن استقرّ لها تزوير تاريخ تمسيح العرب والتأكيد المهووس على اعتناقها المتأخر من طرف بعض القبائل العربية، بقي التجريح في المسيحية واظهار عيوبها (من وجهة نظر إسلامية)، والتركيز على تخبّطها اللاهوتي وتشتتها وتناحرها، وفي هذا المضمار فقد أدت الباحثة التونسية هذه المهمّة على أحسن وجه. كيف هي المسيحية العربية؟ ما هي خاصّيتها المميزة عبر التاريخ؟ دون أن تتردّ، أو تفكّر مرّتين المسيحية العربية تتميّز «**بانقسامها المذهبي. فإن المذاهب المتكوّنة منها كانت في صراع مع بعضها البعض، بل إن الصراع كان يشقّ أحياناً المذهب الواحد (انقسام المونيفيزية إلى يعقوبية ويوليانية و..)**»[١]. لا يكفي أن المسيحية جاءت متأخرة جدّاً، وتأخّرها هو عامل ضعف وهشاشة، ولكن انضاف إليها عامل الصراع الداخلي الذي ساهم في «**اضعاف المسيحية العربية وعدم تماسكها**»[٢]. ثم تضيف ملاحظة تبدو وكأنها بريئة ولكن تحمل في طياتها شيئاً من الضغينة والتشفّي في المسيحية كدين وعقيدة: «وقد كان الانقسام المذهبي في صلب المسيحية العربية يمثل في الواقع امتداداً للانقسامات القائمة في **صلب**

---

(١) ن. م، ص٩٩.

(٢) ن. م، ن. ص.

الديانة المسيحية»[1]. وهكذا فإن المسيحية، في ذاتها ولذاتها، حسب منطق هذه المؤرخة، وبحكم تركيبتها اللاهوتية ديانة الشقاق والانقسام والتعدد الطائفي العقائدي بامتياز. وبخلاف الإسلام الذي تلاقح مع القومية العربية فإن الديانة المسيحية، كانت غريبة عن القومية العربية، وبعيدة عن عقليّته التوحيدية. وهذه الاستيهامات العنصرية، المنحدرة مباشرة من جعيّط، تَعرضها علينا بكل أريحية ودون وخزة ضمير. المسيحية، في رأيها «**لم تتطوّر إلى مستوى الديانة القومية عند العرب قبل الإسلام**، أي **لم تتحوّل إلى ديانة عربية متأصلة في العرب، في كيانهم العقائدي وفي حياتهم اليومية، في عاداتهم وتقاليدهم**»[2]. كيف عرفت هذه المعطيات؟ من أين استقتها؟ كيف استطاعت أن تكشف هذا الغياب التام للمسيحية في عادات العرب وحياتهم اليومية؟ لم تُقدّم ولو وثيقة واحدة أو شهادة يُعتدّ بها، بشأن هذه الأقوال الخطيرة ولم تورد أي دليل عيني مقنع. لكن الأكيد أنها تعلّمت درس أستاذها جعيّط الذي ذهب هذا المذهب وسحق ذاكرة المسيحيين العرب، وغيّب وجودهم التاريخي بتعلّة أن المسيحية غير أصيلة، ولا تملك أي جذور في الذهنية العربية. ومن ألطاف الله أن بناء مسيحية عربية قحّة لم يتحقق، فقد حاول الغساسنة «الذين تميّزوا بحماستهم لعقيدتهم اليعقوبية» فعل ذلك، لكن الكنيسة اليعقوبية تصدّت لمشروعهم. وهكذا ضرب المسيحيون المسيحيين، وخرج المسلمون سالمين، وفشلت محاولتهم، ولم يتحقق مشروعهم القومي المسيحي، حتى جاء الإسلام وحطّمهم جميعاً.

---

(١) ن. م، ن. ص.

(٢) ن. م، ن. ص.

١٦ ـ التزوير بالفعل:
موقف القرآن من المسيحيين

القرآن، حسب المؤرخة، هو المصدر الرئيسي «لمعرفة موقف الإسلام، وبالتالي المسلمين من الديانة المسيحية ومن معتنقيها»[١]. وإذا جمعنا الآيات التي تُذكر فيها المسيحية والمسيحيون صراحة مع تلك التي تصفهم بالضالين والكافرين والأحزاب «وهي صفات تشمل في أكثر من موضع المسيحيين أو النصارى، فإن عدد تلك الآيات يتجاوز المائتي آية»[٢]، دون أن تتفكر في ما تقوله، فهي تورد الكلمتين الجارحتين «الضالّين» و«الكافرين» وتمرّ عليهما مرّ الكرام.

ما موقف القرآن من المسيحية؟ إن الجواب الأول الذي يتبادر للذهن هو موقف عدائي تشويهي تهجّمي محرّض على القتل، تتخلله من حين لآخر، كلمة انفتاح محتشمة، وقصص خيالية من أسفار مسيحية قد رفضتها الكنيسة، مثل حكاية المسيح الذي يتكلم في المهد، أو المسيح الذي يصنع طيوراً من الطين وما إلى ذلك من الخرافات المستمدّة كلها من الأناجيل المنحولة.

---

(١) ن. م، ص١٠٣.

(٢) ن. م، ن. ص.

موقف القرآن من المسيح فيه تناقضات، فهو من جهة يقول إنه روح من الله وكلمته، ومن جهة أخرى يقول إنه عبد الله ورسوله، ثم يقول إنه ولد من عذراء، لكنه يُعبّر عن هذه الولادة بطريقة غريبة: الله نفخ في فرج مريم، وهي عبارة غير لائقة (إله ينفخ في فَرَج امرأة)، يقول إن الله سأل المسيح «أأنت قلت للناس اتّخذوني وأمي إلهين؟» وفي موضع آخر، يقول كلمة جارحة في حق المسيح وأمه: «ومن يملك من الله من شيء إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه»، وهذه كلمات لها صدى جارح على آذان أي مسيحي يقدس المسيح ومريم العذراء. بالنسبة لهذه المؤرخة، المسألة واضحة وبسيطة: القرآن يؤكد أن «عيسى هو المسيح»[1]، يعني «موسى الحاج»، «الحاج موسى»، معلومة تافهة لا تفيد علما بالمسيح ولا تزيدنا معرفة تفوق ما هو موجود في كتب المسيحيين. لكن ما هو غير موجود في المسيحية، وما يَشذّ عن عقيدتهم هو ما تقوله هذه الكتابة عن المسيح: «**فالمسيح نبيّ الله ورسوله، اصطفاه من بين عباده ورفعه عنهم وخصّه بالمعجزات وألهمه الوحي وبعثه رسولاً داعياً إلى التوحيد**»[2]. وهكذا فإن عيسى خرج من قلم هذه المؤرخة (ومن القرآن أيضا)، مسلماً موحّداً وهابياً، ليس له من مهنة إلاّ الدعوة إلى مذهب التوحيد.

ويذكر القرآن أن الله عَلّم ابن مريم التوراة والإنجيل، والباحثة تقول، بشيء من الخَبل، إن هناك قائمة من الكتب التي تعلّمها المسيح: «كما جاء ضمن **قائمة الكتب** التي تعلّمها عيسى: «**وإذ علّمك الكتاب**

(١) ن. م، ١٠٤.
(٢) ن. م، ص١٠٥.

والحكمة والتوراة والإنجيل»[1]. وهكذا نبيّ كبير، أو إله حسب معتقد المسيحية، تعلّم ثلاثة كتب: «كتاباً مجهولاً لا ندري عنوانه ولا محتواه (**الكتاب**)، وكتاب اليهود وهو التوراة (العهد القديم) والإنجيل (العهد الجديد)». إن أي دارس بسيط لتاريخ الأديان لا يتمالك من التعجّب أمام هذا الاستهتار بعقائد الأديان الأخرى وبمبادئها الأبسط. الكل يعلم أن الإنجيل لم يَنزل من السماء على المسيح ولم يَتعلّمه قطّ، وإنما هو رواية لحياته وتعاليمه، وقد كُتب بعد سنين من موته، هذا إن وجد المسيح تاريخياً، وإن كان كُتّاب الأناجيل هم فعلاً كُتّابه الأصليّين. المسألة ليست هنا، بل في الكيفية التي تَعرض بها هذه الكاتبة آيات القرآن المتعلقة بالمسيحية وتسردها وكأنها حجج ضد المسيحية، في الوقت الذي من المفروض عليها كمؤرخة أن تتخذ موقفاً محايداً، وأن تتفادى الوقوع في التحيّز لدين ضد آخر.

لكن الكتابة، متشبّعة من الموروث الديني الإسلامي، ترى أن «**الإنجيل بهذا المعنى يختلف عن الإنجيل الذي يذكره المسيحيون. فهو كتاب منزّل من الله مثله مثل التوراة والقرآن. وهو ما يختلف مع نسبته إلى عيسى في التقليد المسيحي. وما دام الإنجيل كذلك فهو إذاً غير الأناجيل التي يروّج لها المسيحيون والتي هي من وضع «أصحاب عيسى». وهكذا فإنجيل القرآن هو الإنجيل الصحيح الرباني، غير المتداول بين المسيحيين»**[2]. الإنجيل محرّف، هذا معتقد المسلمين جميعهم، ولا ندري (للوهلة الأولى) هل أن المؤرخة تبسط الآراء

---

(١) ن. م، ص١٠٦.

(٢) ن. م، ص١٠٦.

والمواقف بموضوعية أم تتبنّاها. لكن يبدو أنها لا تَتَنصّل منها، بل تُماهي بين مواقفها ومواقف القرآن، فهي ترمي بالأحكام القيمية الإسلامية، دون أن تتفكّرها أو تناقشها بجدّية. والفصل الذي عقدته حول هذه المسألة، يتطابق مع كل كتابات الإسلاميين المعادين للأديان عموماً، وللدين المسيحي خصوصاً، بحيث إننا إذا قرأناه فكأنما نقرأ محمد عمارة أو يوسف القرضاوي أو الشيخ الشعراوي. فهي تسترسل في التجريح، ثم تتراجع قليلا، ثم تُعيد الكرّة وتهجم على المسيحية وتكرر حرفياً ما يقول به المسلمون منذ ألف وأربعمائة سنة. المسلمون جميعاً، متعلّمهم وجالهم، صغيرهم وكبيرهم، معشّشة في أدمغتهم فكرة أن كتاب المسيحيين محرّف. السيدة سلوى لا تخرج عن هذا الباراديغم، ولكن إمعانا منها في الاستهانة فهي تستمدّ فكرة التحريف من القرآن ذاته، يعني من سلطة مقدسة لا يمكن أن تشكّ فيها أو تنتقدها: «**القرآن يعتبر أن الإنجيل حُرّف ويتّهم عدّة أطراف بتحريفه**»[1]. لكنها تعود أدراجها وتُقرّ بأن عبارة «تحريف الإنجيل» لم تَرِد «بشكل صريح في القرآن ولكن أشير إلى التحريف بألفاظ أخرى مثل لفظ **التكذيب**... ولفظة **الإخفاء**... ولفظة **الباطل**»[2].

التحريف موجود وغير موجود، موجود بالمعنى وغير موجود بالحرف، لكن بالمعنى يأخذ صيغة أكثر تنكيلا، لأنه يُجمّع في ذاته أبشع الصفات التي يمكن أن تُطلَق على آدمي في العالم: «**التكذيب - الاخفاء - الباطل**». أقول صفات أبشع من كلمة «تحريف» لأنها البوّابة

(١) ن. م، ن. ص.
(٢) ن. م، ص١٠٧.

التي شجّعت المسلمين على احتقار المسيحيين وجعلتهم يتطاولون على كتبهم المقدسة وعقيدتهم وأشخاصهم. وهذا لا يعفي المؤرخة من مسؤوليتها، لأنها لا تعرض الأفكار بموضوعية، لا تقف على الحياد، وإنما تتبنّي مقولات الإسلام، وعن اقتناع: «في الحقيقة، فإن المفسرين هم الذين أعطوا هذه الألفاظ دلالتها على التحريف **بناء على أسباب نزول آيات التي وردت فيها ومقاصدها**»(١). السلطات المعتمدة هم مفسرو القرآن المسلمون الذين شَحنوا تفاسيرهم بكل الشناعات والنفايات والهوس الذي يمكن أن نتخيّله: «عُني بالتحريف حسب المفسرين: أولاً: يصرفون كتاب الله ويكتبون بأيديهم كتبا ويقولون هذه من عند الله. ثانياً: تبديل كتاب الله. ثالثاً: ادّعاء الأباطيل على الله. رابعاً: جحود النصارى وكتمانهم ما في الإنجيل من نعت محمد أو وصفه، وتغيير ما أمرهم به ذلك الكتاب في بعث محمد وفي أمر الإسلام والقبلة. خامساً: تأويل النصارى الإنجيل على غير تأويله أو ذكر وجوه فاسدة في تأويل الآيات الدالة على مبعث محمد وحملها على محامل باطلة»(٢). انظروا إلى هذه الكمية الهائلة من التجريح والشتائم والسباب الاتهامات التي تُلقَى على كاهل المسيحيين، وكيف تَعْرضها بصورة باهتة وكأنها حقائق ثابتة لا جدال فيها، في الوقت الذي هي مجموعة من الأباطيل المُهينة.

إنه أمر جدّ محيّر أن تتوسع الباحثة، على عكس ما هو منتظر منها كمؤرخة وأكاديمية، في هذه النقطة: «**الجدير بالملاحظة أن معاني**

---

(١) ن. م، ص١٠٨.

(٢) ن. م، ص١٠٨.

التحريف هذه تمحورت في الأساس حول ما يتعلّق بأمر بعث محمد وصِفَته ورسالته. فالكتمان والجحود وتأويل الإنجيل وحمله على محامل باطلة وتحريف كتاب الله وتبديله، كلها ألفاظ وعبارات أوردها المفسرون في سياق ردّ القرآن على النصارى الذين أنكر معظمهم رسالة محمد ونبوّته رغم التبشير بهما في الإنجيل، بالإضافة إلى أن تلك الألفاظ والعبارات تعلّقت أيضاً في بعض وجوهها بتحريف أحكام الإنجيل (القبلة)»[1].

إذا كان المسيحيون، «رهباناً وأتباعاً»، كلهم على خطأ، كلّهم حرّفوا إنجيلهم وأضاعوا ذاكرة نبيّهم ودينهم، «فما هو دين عيسى الحق من زاوية القرآن؟»، تتساءل الكاتبة. المسيحية الحقة هي الإسلام، ولا دين للمسيحيين غير الإسلام، هذه المفارقة هي التي عششت في أذهان المسلمين، فحوّروا من أجلها التاريخ، وشوّهوا كرونولوجيا تجلّي الجنون الديني لأن الأديان كلها جنون، وجنون بجنون نحصل على جنون مضاعف. جواب الكاتبة متوقّع جدّاً وهو موجود في كل كتابات الإسلاميين: عيسى هو محمد، نبيّ مصدق بالأنبياء السابقين ومجدّد للدين القديم الذي ما أن يذهب النبي السابق حتى تعود البشرية إلى وضعيّتها الطبيعية الأولى أي إلى الوثنية وتعدد الآلهة، وهذه مفارقة أخرى يسبح فيها المسلمون، تتنافى مع فكرة العناية الإلهية. الأمر الجديد مع المسلمين هو الادعاء القاهر بأن يسوع بشّر بمحمد كنبيّ يأتي من بعده، يعني أن عيسى خذل أتباعه وأسقط مهمّته كلها في الماء، معتبراً نفسه مجرّد نقطة زائلة أو جسر ظرفي لعبور الدين الجديد؛ مهمّته

---

(١) ن. م، ص١٠٩.

انتهت في بضع سنين، ولكن المبَشَّر به اختفى لمدة ستة مائة سنة، لكي يطلّ على البشرية من مكان لا ينتظره فيه أحد، أي من جزيرة العرب. الكاتبة لا تتفطن إلى هذا الخور اللاهوتي وإنما تسترسل في ايراد استيهامات المسلمين وبسط مفارقاتهم: «**عيسى من «ملة إبراهيم»، جاء مصدّقاً به، وبكل النبيّين وبموسى وبتوراته، مواصلا مِنهاجهم القائم على الدعوة إلى التوحيد، مبشّراً بمحمد وبرسالته، فدين عيسى حسب القرآن هو «الإسلام» ولا شيء غير الإسلام، فلا ذكر لدين اسمه «المسيحية» أو «النصرانية»**»[1]. لن تجدوا هذه الاستيهامات العنيفة، وهذه التزويرات المُشينة إلاّ في كتب الوهابيّين، الحاقدين حتى الموت على المسيحية، وعلى الغرب الصليبي، ولكنهم في نفس الوقت يستدعون جيوش هذا الغرب المسيحي لكي تقتل المسلمين في العراق وسوريا.

ولا يمكن أن تخفى هنا فكرة خَتْم النبوة التي هي حصان طروادة عند كل الوهابيين، فالله بعد أن بعث جيشاً من الأنبياء، وأنزل عليهم كُتبه، وأغدق على البشرية نِعَمه بسببهم، فكّر في لحظة ما أن يقطع هذه السلسلة مع نبي الإسلام وترك البشرية تختار هذا الدين أو تموت في كفرها وبكفرها: «**فمحمد جاء تحقيقاً لما بشّر به عيسى في الإنجيل ولما بشّر به موسى من قبله في التوراة. فربّ عيسى ربّ محمد، والذي أرسل عيسى وجميع** الأنبياء، هو نفسه الذي أرسل محمدا. ومحمد شأنه شأن عيسى ينتمي إلى ملة إبراهيم، فهو تواصل إليه. ورسالة محمد تتموضع في منهاج عيسى نفسه، أي الدعوة إلى التوحيد، وعلى هذا الأساس تُمثل رسالة محمد امتداداً لرسالة عيسى وغيره من الأنبياء

---

(١) ن. م، ص١٠٩.

والرسل وبالخصوص إبراهيم. **لكن خاصة أنه جاء لينزع عن كلمة الله ما علِق بها من تحريف وتشويه ويختم سلسلة الأنبياء والرسل ويُجمّع الناس، جميع الناس، حول دين الله الحق أي الإسلام بأحكامه وشرائعه الصحيحة التي وردت في القرآن»**[١].

لماذا نعيب إذن على محمد عمارة الذي تهجّم في احدى تخريجاته الأخيرة على المسيحية وقال إنها ديانة فاشلة؟ كل الكتّاب المسلمين، القدماء منهم أو المحدثين وصولاً إلى الوهابيين، يعتقدون نفس الفكرة، ويُجَرِّحون المسيحيين ويهينونهم مستخدمين نفس الأسلوب، لكن أن تخرج هذه العبارات الجارحة من دكتورة باحثة مؤرخة فهذا أمر محبط حقّاً. ولم تكتف بهذا بل إنها لا تُغيّب عنصر الترهيب والترغيب، وكأنها واعظة تقوم بحملة دعوة إخراج المسيحيين من ظلمات دينهم وإدخالهم في نور الإسلام. فعلاً، بعد هدم معتقدات المسيحيين «**يصبح من واجب أهل الكتاب بمن فيهم أتباع عيسى التصديق بصاحب الرسالة الجديدة والأخيرة وبالقرآن الذي يحتوي «الحقيقة الربّانية» دون تحريف أو تزييف، ويمثل «المعيار» في الحكم على صحّة أو خطأ ما يُروّج في شأن مضامين الرسالات والنبوات السابقة**». مِن أين استمدت كل هذه التداعيات الاخوانية؟ من القرآن، وبالتحديد من جملة قصيرة جدّاً: «نجد تأكيداً لذلك في سورة آل عمران: «**إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلاّ الله وإن الله لهو العزيز الحكيم**»». من هذه الجملة الوجيزة الغائمة، عملياً لا يمكن أن نستمد أي شيء، لكن الكاتبة ركّبت عليها

---

(١) ن. م، ن. ص.

كل اعتقاداتها الوهابية المقدسة وسَكَبَت من خلالها كل أحقادها اللاعقلانية على الديانة المسيحية.

ضربٌ عشوائي كاسح للمسيحية ككل، ليس المسيحية العربية فقط، مع بَعْثٍ لرسالة للقراء، مسيحيين أو مسلمين، مفادها أنه يجب عليهم أن يَعوا بالحقيقة التالية، وهي في الواقع حقيقتها الإسلامية الخاصة بها، حتى وإن وردت من جهتها في قالب ملاحظة: «وتجدر الملاحظة أن القرآن ركّز على أن الإنجيل احتوى **دعوة للمسيحيين كي يصدّقوا بمحمد الذي بشّر به نبيهم**، إذ ورد في سورة الصفّ ٦١/٦ : «**ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**». كما ورد في سورة الأعراف ٧/ ١٧٧ : «**الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر**»».

هذه هي الكارثة التي حلّت بالمسيحيين على مر التاريخ، وتطبيقها الممنهج نراه الآن بالصوت والصورة تقوم به داعش وكل المجموعات الإسلامية، التي تَربّت على القرآن والحديث وفتاوى ابن تيمية، ونَهلتْ من كتب البنّا وقطب القرضاوي والشعراوي.

وها هي المؤرخة التونسية البعيدة روحيا وجسديا عن المسيحية، لأن الغزاة العرب أبادوها ومسحوها من شمال افريقيا تماماً، تنضمّ إلى الإسلاميين وتنفث سمومها الطائفية. فهي لا تفوّت الفرصة لضرب العقيدة المسيحية واستعادة التهجمات التي وردت في القرآن، وهي تهجمات كلها تلمودية، ومنحدرة من اليهودية المتأخرة. المسيحية مدانة، حسب منطق هذه المؤرخة، لأنها مسّت بمبدأ التوحيد وسقطت في الشرك لأنها تعتقد في التثليث. إن القرآن، تقول الدارسة، «إذ **يدحض** عقيدة التثليث بشكل عام يهدف إلى **دحض** العلاقة التي يُقيمها

النصارى بين عيسى والألوهية: «عيسى بن الله» أو «ولد الله» و«المسيح هو الله» و«روح الله» و«كلمة الله» فضلاً عن **دحض** الصيغة اللاهوتية التي يعطونها أيضاً للروح القدس ومريم بالنسبة لبعض الفرق»[1]. هل القرآن كتاب دين أم كتاب دحض؟ كيف دحض القرآن العقيدة المسيحية وبأي آليات حجاجيّة؟ لقد تخلّت هذه الدارسة عن مهمّة كتابة تاريخ موضوعي ودخلت في مماحكة جدالية مع الديانة المسيحية، سَارِدَة تهجمات القرآن على المسيحية وكأنها حقائق علمية ثابتة، وكأن القرآن وكيل على المسيحية، أو أن كاتب القرآن يعرفها أكثر من أهلها.

إنها تُنازِع المفسّرين حول عبارة «**كلمة**» التي وردت في القرآن وهي في الحقيقة صدى لمصطلح لوغوس اليوناني، ومعناه أن المسيح هو روح الله أو عقله. فكرة منحدرة من الفلسفة اليونانية ومن الرواقية المتأخرة، اندمجت في الديانة المسيحية، ومن قبلها في اليهودية المتأخرة مع فيلون الإسكندراني. لا يَعنينا مدلولها الأصلي الجينيالوجي بقدر ما تَعنينا هنا القضية المبدئية التي مفادها أن المؤرخ الموضوعي من المفروض ألاّ يتحمس لأي دين وأن لا يُلقى أحكاماً قيمية جارحة ضد عقائد الآخرين وأن يعامل كل الأديان على نفس المستوى. فإذا أردنا تقييم المسيحية على مستوى عقلاني، فهي ككل الأديان ركام من الأساطير المذلة للعقل، وكذلك اليهودية والإسلام، لا يختلفان عنها بل يفوقانها من حيث الكم والكيف إضافة إلى العنف الساري فيهما؛ لا واحدة من هذه الديانات تصمد أمام العقل وأمام المبادئ الأولى للأخلاق.

---

(١) ن. م، ص١١١.

لكن أن يأتي مؤرخ ويَغرق في إظهار عيوب المسيحية بالمقارنة مع صفاء ديانته، ويدّعي في نفس الوقت الموضوعية، فهذا ما لا يمكن قبوله البتة.

إذا تناولنا عبارات «كلمة الله»، «روح من الله»، «نفخة من الله» في سياق لاهوتي فهي تبدو تأليها للمسيح وليس أنسنة له، لأن كلمة الله من المفروض أن تكون قديمة متماهية مع الإله ذاته، لا بداية لها ولا نهاية، ومع ذلك فإن المؤرخة لا تتفطّن إلى هذه المعضلة، وتؤكد أن السياق القرآني «مؤسس على التوحيد»، في إيعاز واضح إلى أن المسيحية مؤسسة على الشرك والاعتقاد في تعدد الآلهة. القرآن في رأيها يرفض فكرة «أن يكون الله والداً أو أن يشترك أيّ مخلوق له في صفاته»[1]. والحُجَج التي قدّمتها هي حجج المسلمين الواهية، والتي غايتها الأساسية هي الطّعن في المسيحية وتفادى الاقرار بألوهية المسيح من النص القرآني ذاته الذي يصفه بأنه روح من الله وكلمته، وهي عبارات تأليهيّة خالصة[2].

قد يعترض القارئ بأنه ربما المؤرخة، في فصل بعنوان «ردّ القرآن على عقيدة الصلب والبعث المسيحية» لم تفعل أكثر من أنها سردت بكل تجرّد موقف القرآن من مُكوّنات العقيدة المسيحية، دون أن تطلق حكم قيمة، أو تُفاضل بين دين وآخر. والدليل على ذلك أنها أمام عدم تطابق ما يعتقده القرآن في الثالوث وما هو مُصرّح به في الديانة المسيحية، تقول: «نجد أنفسنا مدفوعين إلى التساؤل إن لم يكن القرآن

---

(١) ن. م، ص١١٢.

(٢) انظر الصفحات، ١١٢ ـ ١١٦.

قد تعرّض في نصّه إلى الردّ على بعض المعتقدات المسيحية التي واجهت بها بعض الفرق المتواجدة في الجزيرة العربية الرسالة المحمدية وليس على العقيدة المسيحية عامة بشكل منهجي؟».

لكن في الحقيقة هذا مجرد تساؤل عابر، لأن الأصل هو الأحكام القيميّة والدليل على ذلك أنها بخصوص الصّلب تشيد بالموقف القرآني وتقول إنه موقف عقلاني أفضل من موقف المسيحيين، مُتخلّية مرة أخرى عن حيادها المنهجي وعن مهمة المؤرخ ومُلتحقة بزمرة المنافحين عن الإسلام ومُلقّحة فكرها بعناصر وهابية واضحة. تقول: «**يبدو هذا الموقف القرآني** [من الصّلب] **أكثر تجريدا** من الموقف العقائدي المسيحي الذي وإن أعطى تلك الموتة الشنيعة التي تعرّض لها المسيح وفقاً للرواية الكنسية، مغزى خاصاً، جعل منها عملاً إرادياً، هدفه الفداء، كان بالإمكان أن لا يحدث لو أراد الله أو نبيّه ذلك، بل لو لم تكن في نيّتها تحقيق ذلك المغزى، فإنه أقرّ بها، بل أقرّ لمرتكبيها بقدرتهم على فعلها وهو ما يشكّل ذريعة لهم لاعتبار أن عيسى لا هو بالمسيح ولا هو بنبيّ، الأمر الذي تصدّى له النص القرآني فدَحَضه، جاعلاً قدرة الربّ وإرادته فوق إرادة البشر حتى أن ما ظنّوه من صَلبِ لعيسى لم يكن سوى من باب ما شبّه لهم وهو ما يحرم «القتلة» من التمتّع بـ«لذة» جريمتهم لما فيها من تحدّ»[1].

ألسنا هنا إزاء حُكم قيمي مسبق؟ أليست هذه الأقوال تحزّبا للدين الإسلامي وطعنا في معتقدات المسيحيين؟ إن كلامها لا يوري إلا عن

---

(١) ن. م، ص١١٦.

تشفّ مقنع، وعن بَهبرة كاذبة لأنه مونولوج شخصي يرفع راية النصر ضد عدوّ غائب: «**وبِنَفْي القرآن مسألة صلب المسيح وقَتله يكون قد نفى كل ما ترتّب عن هذه العقيدة لدى المسيحيّين سواء ما تعلّق بقضيّة الفداء أو الصليب أو موت عيسى وقيامه بعد ثلاثة أيام**»[١].

إن هذه المؤرخة تُصوّر لنا، على شكل بطولي، انتصار محمد على المسيح، وتسعد كيف أن القرآن، الذي أثبت المستشرقون أنه مِن تدوين محمد، مُستوحيا عناصره من التلمود والأناجيل المنحولة، حطّم المسيحية وقضى على ركائزها العقائدية، وهدَمَ طقوسها وعباداتها بالكامل. وهذه بالفعل هي قناعتها الشخصية، لأنني لا أعتقد أنها تَكفر بالقرآن أو تكذّب محمداً، فهي مؤمنة وتَتبنّى كل ما جاء في القرآن بشأن المسيحية. وبالتالي فإن كل استنتاجاتها تنبع بالطبيعية من أرضيتها العقائدية وثابتة في قَنَاعاتها الدينية الإسلامية. وكيف لا يكون كذلك وهي تقول إن القرآن لم يتعرّض إلى العقائد المسيحية فحسب «**ولكنه يحتوي على إشارات تتّصل بالطقوس والعبادات والسّلوكات عند النصارى لينتقدها أو يدحضها ويدعو متتبّعيها إلى التخلّي عنها والمسلمين إلى عدم تقليدها**»[٢].

اليهود والمسيحون لا خير فيهم وديانة أحدهما أبشع من الأخرى، ولكن هناك مفاضلة (براغماتية ظرفية) بينهما، وهذه المفاضلة، كما رأينا جعيط يقول بها في بداية كتابه «أوروبا والإسلام»، جعلت منها حقيقة تاريخية، هكذا أصبحت سرديات القرآن حقيقة تاريخية «تبرّر مثل تلك

---

(١) ن. م، ص١١٦.

(٢) ن. م، ن. ص.

المُفاضلة»[1]. المسألة كلها هي انتهازية سياسية وطبائع مختلفة: اليهود خائنون غادرون بالطبيعة والمسيحيون ليّنون مَرِنون، وهكذا فإن الإله والنبوة والوحي والقرآن، انسحبوا من اللعبة تماماً ولم تبق إلا الحسابات الجيوسياسية، بحيث يتفرّد بالأوّلين ريثما ينتهي منهم ثم يتفرّغ للثّانيين: «لقد كانت المواجهة السياسية ـ العقائدية مع اليهود في فترة بناء الإسلام، أشد ضراوة مقارنة بما كان عليه الحال من النصارى الذين لم يشكّلوا في ذلك العهد خطراً سياسياً على الديانة الجديد الناشئة والتي تسعى إلى تركيز نفسها. إلاّ أن العقيدةِ المسيحية ورغم خطورتها الظاهرة لما فيها من مظاهر الشرك وفقاً للنص القرآني فإن أتباعها اتّسموا باللّين والمرونة على مستوى المعاملات». ولا يكفي أن القرآن كفّر المسيحيين، بل لتصعيد التنكيل، فهي تجمع بين الشتيمة والسّخرية، حيث تقول «**إن موقف القرآن من النصارى لا يقف في حدود هذا الموقف العام إذ إنه قسّمهم إلى طائفتين: مؤمنة وكافرة، مخصصاً لكل منهما خطاباً**»[2].

يا سلام! المؤمنون من النصارى هم مبدئياً كفّار، والكافرون هم كفّار مضروب في اثنين، هكذا وصل الاستهتار إلى هذا الحد: خِطَابان للمسيحيين رغم أنه يكفّرهم جميعاً ويهدّدهم ويتوعّدهم دون استثناء ويقول لهم كفّوا عن الاعتقاد في الثالوث وفي صلب المسيح، ويستعمل حتى لهجة عامّية «انتهوا خير لكم»، وإذا بمُؤرّختنا تُحيطنا علما بأن الخطاب الموجّه للمسيحيين، ينقسم إلى قسمين، واحد قاس وآخر

---

(١) ن. م، ص٢٤.

(٢) ن. م، ص١٢١.

رحيم. ورغم هذا التزوير الفاقع فهي تعترف، بعظمة لسانها، أن خطاب القرآن ضد المسيحيين «**هو في الأساس خطاب إدانة وتشهير وتحذير، علما بأن هذه الطائفة تشكّل الأغلبية بين النصارى... وهو يتّهمها بتحريف دين عيسى وتشويهه فيما ابتدعته من عقائد مثل التثليث وتأليه عيسى، وما روته من أباطيل عن الإنجيل، وفي تنكّرها لما بشّر به من نبوّة محمد الذي لم تصدّق به، وعلى هذا الأساس اتّهم القرآن النصارى بالزيغ والاصرار عليه في عدّة مواضع**»[١].

وفي النهاية إذا استخرجنا من القرآن موقفا من المسيحيين فإن الموازنة ستكون سلبية تماماً، مشحونة عنفاً وكرهاً وتهجّماً وتحريضاً، وهي كلها مؤشرات تنبئ بتاريخ مظلم من الاضطهاد والظلم والإبادات وَجَدَت في داعش والنصرة استكمالها الأخير[٢].

---

(١) ن. م، ص١٢٣.

(٢) وإليك جرد الاستنتاجات التي لخّصتها في تسع نقاط، تخلت بموجبها عن مهمتها العلمية لكي تصبح بوق تحريض على الكراهية: «أولاً: يصدر القرآن حكما قطعيا على المسيحية من الناحية العقائدية، فهي تحريف وتزوير لرسالة عيسى ولكتاب الله المنزّل. الإنجيل، باعتبارها أشركت بالله فيما روّجه أتباعها من عقيدة التثليث والتجسد وادعت ما ليس حقّاً حول صلب عيسى وأنكرت ما هو حق حول تبشير عيسى وكتاب الإنجيل بمحمد وبنبوّته وبرسالته. ومن هذا المنطلق ميّز القرآن بين المسيح والمسيحيين، فنزّهه من «تحريفاتهم» وفصله عنهم ليردّه إلى المكانة الحقيقية التي خصّه الله بها. ثانياً: يعتبر القرآن أن رسالة عيسى رسالة توحيدية تندرج ضمن خط إبراهيم الذي أرسله الله بغاية نشر مبادئ هذه الرسالة، وقفّى على آثاره بموسى وعيسى ومحمد للغرض عينه. فالدين عند الله الإسلام الذي تجمع مبادئه كل الأنبياء والرسل وبالتالي لا مكان لديانة اسمها المسيحية من هذه الزاوية. ثالثاً: يُعتبر القرآن المعيار في الحكم على صحة أو خطأ ما يروّجه النصارى حول عيسى ورسالته وحول مريم، فهو الحامل لـ«القصص الحق»، لذلك يجب الارتكاز عليه للوقوف على=

=مواطن التحريف والتزوير فيما يُروّج، من وجهة نظر الإسلام، وبالتالي تعتبر المسيحية وعقائدها باطلة بعد أن صدر في شأنها حكم القرآن وأوضح «الخطأ والصواب». رابعاً: انطلاقاً من هذا الموقف اعتبر القرآن أن أتباع عيسى الحقيقيين هم أولئك الذين يصدقون برسالة محمد التي بشّر بها عيسى والإنجيل ويعتنقون الإسلام دينا. ومن هذا الموقع قسّم القرآن المسيحيين إلى قسمين: قسم «مؤمن» ويمثل الأقلية وقسم «ضالّ» ويمثل الأغلبية». بعد هذه الشحنة من التجريح والتهجّم والشتم والسّحل، فهي تملك الجرأة لكي تقول في البند الخامس إن القرآن عامل المسيحيين معاملة حسنة: « خامساً: رغم تشدّد القرآن العقائدي مع المسيحية فإنه اتّسم بالمرونة في الموقف العملي من المسيحيين وقدّم نظرة إيجابية للسلوك الأخلاقي للنصارى وهو عكس الموقف من اليهود. فلئن لم يتهجّم القرآن عليهم كثيراً من الناحية العقائدية، فإنه كان متشددا معهم من الناحية السياسية والعملية. إلاّ أن القرآن اعتبر المسيحيين كما اليهود من أهل الكتاب وفي ذلك تفضيل لهم عن غيرهم من أتباع الوثنية والشرك. سادساً: ورد الحكم على المسيحية العربية وعلى النصارى العرب في نطاق الموقف العام من المسيحية ومن أتباعها. فالنص القرآني لئن انطلق في أغلب الأحيان من مخاطبة النصارى العرب، نصارى نجران خصوصاً، فإنه توجّه عامة إلى المسيحيين (النصارى)». أما البند السابع، فهو عين التناقض والخور والحقد، فهي، تحاول أن تردّ على اعتراض من يقول إن انتقادات القرآن للمعتقدات المسيحية يخص صنفا ضيّقا من المسيحية الشرقية، وبالتالي لا يعمّ تعاليم المسيحية كلها، جوابها هو أنه رغم تخصيص النقد القرآني لصنف معيّن فهو يقصد المسيحية عموماً لأنها هي والشرك شيء واحد. أكثر حقدا وتشويها من هذه الأقوال، لا يوجد: «سابعاً: يمكن أن نعتبر أن القرآن لم يردّ على المسيحية بشكل منهجي وشامل ولا حتى على كل عقائدها كما قررت في المجامع الكنسية السابقة للإسلام، بقدر ما ردّ على العقائد المسيحية بالشكل الذي راجت به في صفوف المسيحيين بالجزيرة العربية وأطرافها والتي كانت لها بعض الخصوصيات. لكن ذلك الردّ رغم خصوصيّته فإنه تضمّن رداً جوهرياً باعتباره استهدف كل ما هو شرك وكل ما هو مناف لعقيدة التوحيد المطلق بقطع النظر عن المظاهر الخصوصية التي انطلق منها». وانظروا إلى هذا التعامل الرحيم مع المسيحيين: «ثامناً: حدّد القرآن حدود التعامل مع المسيحيين باعتبارهم من أهل الكتاب على أن يدفعوا الجزية في حالة تمسّكهم بعقائدهم ويعيشوا في بلاد الإسلام.=

١٧ ـ كشف اللعبة

لماذا استماتَتْ هذه الكاتبة على تأخير زمن تمسيح العالم العربي؟ الجواب تجدونه في ثنايا كتابها، لمن صبر على قراءته: إنه تسويغ شرس لاضطهاد المسيحيين وانقراضهم المستمرّ من العالم العربي، مع تبرئة وقحة لساحة الإسلام من حملة الإبادة التي قام بها ضد المسيحية. ليس هناك تفسير آخر، وأدعو القارئ إلى وضع أقوالي هذه على محك النقد وأن يتثبّت منها مباشرة من النص الذي أنا بصدده. من خلال المصادر العربية التي لجأت إليها، وفقط من المصادر الإسلامية المتحيّزة، استنتجت ما يلي: «**يتجلّى بوضوح من هذه المعلومات أن عبد قيس التحقت بمن فيها من النصارى بالإسلام بين سنتي ٨ و١٠هـ**»،

=وفي ذلك تمييز لهم عن المشركين الوثنيّين الذين ليس أمامهم سوى خيارين، الإسلام أو القتال». وهذه هي مراحل ثمرة الشرّ قبل أن تنضج: «تاسعا: اتّسم الخطاب القرآني تجاه المسيحيّين بالتطوّر من أسلوب الدعوة إلى الإسلام عن طريق الحجّة والمجادلة والترغيب (الدعوة الهادئة) إلى أسلوب التحذير والتهديد، وفي آخر المطاف القتال في حالة رفض هؤلاء دفع الجزية». وفي الأخير تكرّمت على المسيحيين بأن القتل لا ينسخ خيار الحوار: «ولكن الأسلوب الثاني ليس ناسخا للأول»، يعني أن المسلمين يمكن أن يتعاملوا مع المسيحيين حسب مذاقهم: داعش تقتلهم (خيار صحيح ومشروع)، السعودية ترسل المبشرين وتدعوهم للإسلام (صحيح ومشروع).

النتيجة؟ تَشَفٍّ وشماتة وابتهاج بانقراض المسيحية، وسقوط معاقلها الواحدة تلو الأخرى وبصورة ممنهجة ومقصودة: «**وبهذه الصورة يمكن اعتبار أن المسيحية العربية انقرضت في البحرين منذ فترة النبوية بالتحاق هذه القبيلة بالإسلام**»[1]. المسيحية بين غير العرب من سكان البحرين شهدت نفس المصير، استمرّ وجودها فقط «إلى أواخر القرن السابع الميلادي»؛ كنيسة قطر شهدت هي أيضاً مصيراً تعيساً، الجاثليق جرجس الأول عيّن عليها مطرافوليطا سنة ٦٧٦، لكن هذا المطران كان هو «**الأوّل والأخير**»[2].

فاصل كوميدي من تاريخ هذه الباحثة: الرسول لا يُمثل الإسلام، لأنه فرض أشياء منافية لنص القرآن أو غير موجودة فيه. قالت إن «الرسول فَرَض الجزية على المسيحيات العربيّات في حين أن **القرآن** لم يُجبها إلاّ على من كان أهل القتال»[3].

هذا الخليط من التهجم والتزوير والتشفّي والسّخرية استقته كله من القرآن ومن كتابات المسلمين الأسطورية: «وقد أوردت الروايات الإسلامية هذا الخبر [نصارى نجران وعلاقتهم بمحمد، حيث خيّرهم بين الجزية أو الحرب] بكثير من التفاصيل وبأسانيد مختلفة وألفاظ تزيد وتنقص، وربَطَته بنزول سورة آل عمران. ومن أهم هذه الروايات ما أورده ابن سعد في طبقاته وابن هشام في السيرة النبوية والطبري في تفسيره والأصفهاني في كتاب الأغاني. كما ورد هذا الخبر في كتب

---

(١) ن. م، ص١٣٢.

(٢) ن. م، ن. ص.

(٣) ن. م، ص١٣٣.

الفتوح والخراج»[1]. ورغم أنها تقول، حسب اجماع الروايات الإسلامية كلها، إن نبيّ الإسلام «خصّ أساقفة نجران برسالة يدعوهم فيها إلى الإسلام أو دفع الجزية، وإن أَبَوا هذا وذاك فالحرب»[2]. هكذا بكل بساطة وبكل أريحية: فلوس أو قتل. ومع ذلك، ورغم هذا الابتزاز والعنف فهي تواصل في إيراد أسطورة أن محمد سمح لوفد نجران أن يصلّوا في مسجده، وفقط على أساس هذه الرواية المشكوك في صحّتها، تقول إنها «**علامة على التسامح**»[3]. وهب أن الأمر كان كذلك، فهل الترخيص لهم بتأدية طقوسهم في مسجده يُعَدّ دليل على التسامح؟ لماذا يُهدّدهم ويطلب منهم الأموال إذن؟ لماذا لم يُبْد هذا التسامح مسبقا؟ المؤرخة تخبّطت وتناقضت، ولا تدري أين تتّجه، لأن روايات المسلمين الأسطورية بلبلت عليها، وخصوصاً لأن عملها هو عمل جدالي تبريري. فهي نفسها غالباً ما تعمل على نقض نفسها بنفسها، فبعد أن ادّعت أن عمل محمد علامة على التسامح، تعرّي نوايا هذا العمل، وهي تحويلهم عن دينهم، وليس عملاً محايداً في ذاته: «**وقد تكون في هذه المرونة أيضاً، دعوة ضمنية لنصارى نجران من العرب قصد اعتناق الإسلام**»[4].

وتضيف دون أن تتفطن إلى المفارقة التي هَوت فيها: «**خلال المقابلة أنكر عليهم الرسول تأليههم لعيسى والادعاء بأن لله ولدا وعبادتهم**

---

(١) ن. م، ص١٣٤.
(٢) ن. م، ص١٣٣ ـ ١٣٤.
(٣) ن. م، ص١٣٥.
(٤) ن. م، ن. ص.

الصليب وأكلهم الخنزير ثم دعاهم إلى الإسلام». أنا أسألها: أين هي علامة التسامح؟ أين الانفتاح؟ أين «**لكم دينكم ولي دين**» أين «**من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**»؟ الحقيقة أن هذه الكاتبة متناقضة والأخطر من ذلك متحيّزة، بل لا تُخفي تعصّبها لدينها، وازدرائها للمسيحية. وأنا أبرهن على ذلك من خلال صريح كلامها. في معرض حديثها عن المباهلة بين نصارى نجران ونبي الإسلام، أوردت روايتان على رفضهم الخضوع إلى هذه الطريقة البدائية لفض المشاكل العقائدية، تقول إن رفض نصارى نجران الاحتكام عن طريق المباهلة قد يعود إلى أحد أمرين. الأوّل: «**خشيتهم «لعنة الله» إذا تبيّن أن الحق إلى جانب محمد**»، الثاني: «**لقناعتهم بعقيدتهم وعدم الاستعداد للحسم فيها بهذه الطريقة**»[(١)]، ودون أن تتردّد فهي تتباهى بأنها تُرجّح الأوّل «**وإن كنّا من جانبنا نُرجّح الاحتمال الأوّل**»[(٢)]، ترجّح الاحتمال الأول، يعني أن مسيحيي نجران غير واثقين من دينهم و«تبيّن لهم أن الحق مع محمد»، على أي أساس تاريخي تقول هذا؟ لِصَالح من يَصبّ الاحتمال الأول؟ إن لم يكن هذا تحيزاً ما قبلياً فلا أدري ما مَغزاه بالتحديد. إن هذه المؤرخة خرّيجة جعيط، مندمجة جسداً وروحاً في صُلب عقيدتها الإسلامية، التي لا تعيش إلاّ بالدّوس على الأديان الأخرى، وخصوصاً وبالدرجة الأولى المسيحية، وأنا لا أدري كيف أن كتابا من هذا القبيل

---

(١) وهذا نص الكاتبة كما ورد في الصفحة ١٣٥: «أما رفض نصارى نجران الاحتكام عن طريق المباهلة قد يعود إلى أحد أمرين: إما خشيتهم «لعنة الله» إذا تبيّن أن الحق إلى جانب محمد وهو ما تذهب إليه بعض الروايات الإسلامية، ذاكرة أن نصارى نجران استشاروا العاقب وحذرهم من ملاعنة الأنبياء ونصحهم بمواعد الرسول، وإما لقناعتهم بعقيدتهم وعدم الاستعداد للحسم فيها بهذه الطريقة».

(٢) ن. م، ص١٣٥.

يَقطر حقدا وضغينة، يحوز على طبعتين في دار نشر لبنانية، يعني في بلد يعيش فيه جنباً إلى جنب مسيحيون ومسلمون.

بكل أريحية ودون وخزة ضمير، تتكلم عن أناس مسالمين يتمّ تجريدهم من أملاكهم والاستحواذ على أتعابهم، وعن نبيّ أهانهم وجعل منهم أجَراء يشتغلون عنده، وذَنبُهم الوحيد هو تَمسّكهم بدينهم. إنها تروي، بتشفٍّ وبكلّ قسوة، الطريقة المهينة التي استخدمها المسلمون لسَلب هؤلاء الناس قُوت يومهم وعرق جبينهم، دون أن تتفكّر في التدمير الاقتصادي الذي يلحق بهؤلاء الناس، الذين لن يبق لهم من فائض مالي لكي يواصلوا أعمالهم وتحسين وسائل انتاجهم، والتمتّع بمرابيح صناعتهم. فالنصارى في النهاية رغم بُعدهم عن محمد ورغم أنهم لم يَعتدوا عليه، ولا كانت لديهم النية في المساس به، هم الذين أبْدَوا لِينَة وإنسانية وانفتاحاً، حتى وإن كلّفهم ذلك تحمّل عبء امتصاص جزء كبير من عرق جبينهم، من طرف أناس لا يشتغلون وإنما يأكلون أموال الشغالين. بعد أن هُرسلوا في دينهم وسمعوا التأنيب والتهديد، انصاعوا للأمر الواقع وطلبوا **«في نهاية المطاف المصالحة من الرسول واستجابوا لحكمه عليهم المتمثّل في فرض ضريبة عامّة جماعيّة قدّرت بالمنسوجات (الحِلل) والمعادن الثمينة (الفضّة) يدفعونها في كل سنة على قسطين: ألف حلّة في كل رجب، وألف حلّة في كل صفر، وكل حلّة قيمتها أوقية من الفضّة، وبهذا الشكل يكون المقدار الجملي لـ«ضريبة» ثمانين ألف درهم سنوياً، وهو مبلغ على غاية من الأهمية بالنسبة لذلك العصر»**[١]. تصوّروا، ثمانين ألف درهم، مَبلغاً مَهولاً في

(١) ن. م، ص١٣٥ ـ ١٣٦.

تلك الفترة، أموالاً طائلة تنزف من جيوبهم إلى المسلمين، وكل هذا الابتزاز وأكل أموال الناس لأجل أنهم مسيحيّون يَشتغلون ومَيسورون، تقول إن أهل نجران قبلوا به «**لأحوالهم الميسورة**»[1].

إنها تَقْبَل بالروايات الإسلامية الأكثر تنكيلا والأكثر إهانة، لا تفحصها ولا تجريها على النقد، أو تتشكك في صدقها، بل تتبنّاها كأنها حقائق تاريخية موثقة وثابتة. تقول، وهذا الكلام مأخوذ من سيرة ابن هشام الأسطورية، إن الرسول «**عاهد بني تغلب على ألاّ يُنصّروا وليدا**»[2]. هل هذا معقول؟ هل وصلت البشاعة إلى هذا الحد؟ وهل المسيحي هو بهذه السلبية أمام رجل جاء بدين جديد مازال في طور النشوء؟ هل يمكن أن نصدّق هذا الانتحار الجماعي؟ لماذا لم تتفكّر طرفة عين في هذه المسألة، وتتساءل عن مدى جدية أن يقبل عربي بأن يتدخل شخص في حياة أولاده، وفي اختيار عقيدته؟ أهكذا يتساهل العرب المسيحيون مع عقيدتهم وينصاعوا إلى أوامر لاعقلانية تقودهم حتماً إلى الانقراض والفناء في غضون جيل واحد؟ ومرة أخرى، فاصل فكاهي: الرسول لا يُمثل الإسلام، ولا يتصرّف بحسب منطوق القرآن: «**الأغرب أن المرجع الوحيد الذي كان الرسول محمد يرجع إليه في سياسته ـ ألا وهو القرآن ـ لم يذكر مثل هذه الحلول مع أهل الكتاب**»[3]. ولِكُل قارئ أن يستخلص بمفرده النتائج المترتبة عن هذه الأقوال. تَتَنَرْفَز وتقول، بشيء من الاستياء، لماذا «**سنّ الرسول إذن هذا**

---

(١) ن. م، ص١٣٦.

(٢) ن. م، ص١٣٧.

(٣) ن. م، ن. ص.

الحكم؟»، وكأنها تريد المزيد من الاضطهاد والتشدد في المعاملة؛ «**لماذا لم يتخذ محمد القرار ذاته مع نصارى نجران؟**». لقد استشكل عليها الأمر، ودخلت في حالة بلبلة، حينا، بسبب روايات المسلمين الأسطورية المتناقضة، وأحياناً لأنها مُلتحمة بدينها، وكانت تتمنى لو أن المسيحيين جميعاً أسلموا، وحُلت قضية تواجدهم في غضون السنوات الأولى من الإسلام. الجواب الوحيد على سؤالها أعلاه، هو مكيافلية محمد، كما صوّره جعيّط أيضاً في ثلاثيّته عن السيرة: حروب ونهب وسبي ثم تقاسم الغنائم بحسب الولاء. فعلاً، محمد تقول الكاتبة، فضّل حلاً سلمياً، لكن ظرفياً «**لفترة زمنية محدودة**»[1]، وهذا عين المكيافلية، لأن السلم يجب أن يكون مبدأ مستمراً وراسخاً، لا يتغيّر بتغيّر الأهواء، وغير مرتبط بنيّة مسبقة لنَقضه في فترة لاحقة. وهي لا تنكر ذلك، أعني لا تنكر الايهام بالصّلح أو الهُدنة المُخادِعَة إن كانت ستؤدي إلى نجاحات وانتصارات، ولا تنكر أن محمداً استعمل العنف ضد المسيحيين (تسمّيهم الجماعات المسيحية العربية) وأن تلك الجماعات «**لم تلتحق تلقائياً بالإسلام**»[2]، وأن محمداً ـ أَسْردُ قَوْلها ـ استعمل ضدهم أسلوبين «**تارة حمَل عسكرياً على بعض تلك الجماعات**» (لكي لا تقول غزاهم وقتلهم، تختار كلمة محايدة (حمل عسكرياً)، وكأنهم محاربون أعداء)؛ «في بعض الحالات كانت الأسلمة تابعة لقتال عسكري»[3].

(١) ن. م، ص١٣٨.
(٢) ن. م، ص١٣٨.
(٣) ن. م، ص١٣٩.

وكما أن مسيحية قَطَر انقرضت بالكامل لحداثة عهدها وهشاشتها وسطحيتها، وهي العوامل التي ركزت عليها الكاتبة لكي تجد مخرجاً للإسلام، كذلك كان الحال أيضاً بالنسبة لقبيلة كلب التي كانت مسيحيّتها «**سطحية وضعيفة التنظيم وحديثة عهد (القرن السادس الميلادي)** كما سبق أن ذكرنا في القسم الأول، وهو ما **يجعلها هشة في وجه الديانة الجديدة الفتية والصاعدة**»[1]. إذن الاستنتاج الذي توجّسنا منه، والغرض الذي نبّهنا عليه سابقاً، من أن تأخيرها لزمن تمسيح العرب، الهدف منه هو تبرير انقراضها وإبعاد شبح الاضطهاد الإسلامي، تبرز بصورة فاضحة من خلال استنتاجاتها التالي: «إن سرعة أسلمة المسيحيين العرب ارتبطت بدرجة عمق وتنظيم مسيحيّتهم. **فلم يقدر من كانت مسيحيته قريبة عهد من ظهور الإسلام وسطحية وغير منظّمة على مقاومة الديانة الجديدة**»[2]. مسيحية حديثة عهد، مسيحية هشة، سطحية مشتتة، إسلام فتيّ، النتيجة القاهرة هي أن المسيحية ماتت موتة رحيمة، انقرضت من تلقاء نفسها.

---

(١) ن. م، ص١٣٩.

(٢) ن. م، ن. ص.

١٨ ـ تقويم التزوير

إن القارئ العربي الذي لم يطّلع على كتب التاريخ ولا عِلمَ له بالمراجع التي أوردتها الكاتبة، يبقى في عتمة، ويستشكل عليه الأمر كثيراً. فالطريقة التي تناولت بها هذه المسألة التاريخية الشائكة، متحيّزة جدّاً إن لم أقل ذات قصدية تزويريّة واضحة. فعلاً، أمام مسألة محوريّة ذات انعكاسات خطيرة على مستقبل التعايش السلمي في العالم العربي، وأمام أناس مازالت جراحهم لم تلتئم وذاكرتهم تنزف ألما بسبب علميات الابتزاز والتهجير والقتل، والتي تستدعي منا وقفة تأمل، كي لا تتكرّر في المستقبل، وإذا بنا نجد مثقفة، تونسية، بعيدة آلاف الأميال عن الشرق متعدّد الأديان، تزوّر لنا تاريخ المسيحية العربية، وتعطي مشروعية لإجرام المسلمين في حقها. بعد أن دمّر حياتهم وتهجّم على دينهم وكفّرهم فإن هذه المؤرخة تملك الجرأة لكي تقول إن محمداً «**سلك معهم [المسيحيين] سياسة تتسم بالتسامح الديني، وهي المعاملة التي يأمر بها القرآن**»[1]. أكثر تزويراً من هذا، لا يوجد. أين نضع «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر من أهل الكتاب»؟ أين نضع الأحاديث التي تمنع المسلم من إلقاء التّحية على المسيحي؟ أين تحذير

---

(١) ن. م، ص١٤٠.

القرآن من اتخاذ اليهود والمسيحيين (النصارى) أولياء؟ أين الدوس على التثليث وعلى صلب المسيح؟

لن أخوض في أقوالها حول اختفاء المسيحية في عهد الخلافة، وكيفيّة تشَفّيها في انقراضها من جزيرة العرب، وفي التهجير الجماعي لمسيحيي نجران، وعملية استئصالهم الممنهجة المقصودة، والثابتة عن طريق الحديث الذي تستشهد به علانية: «**اخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب**». وهذا الحديث العنيف بقي صداه متواتراً إلى اليوم وهو السبب الرئيسي الذي جرّ على المسيحيين كل الوبال الذي نراه يحدث لهم في وقتنا الحاضر. ولن أسرد خورها في تأويل مجزرة خالد بن الوليد لمسيحيي العراق (انظر خاتمة كتابي هذا) وكيف وصفت من يدافع عن نفسه وعن ماله وعرضه بأنه طائفي: «لا نكون مبالغين إذا رأينا في تحرك مسيحيّي بكر بن وائل وعرب الضاحية من أهل الحيرة ضد المسلمين **تكتّلاً طائفياً** يهدف إلى الدفاع عن الذات الدينية والروحية»[1]، ولا كيف أنها تتّهم مَن فرّ من تقتيل المسلمين بأنه مُتصلّب في دينه «أهل إياد كانوا **متصلّبين في موقفهم الديني**»[2]. وقد جابههم القادة المسلمون بغلظة لم يروا لها مثيلا. خالد قام بمجزرة مروعة، تقول الباحثة بكل أريحية: أمر خالد «**بضرب أعناق كل الأسرى**»، يعني أفناهم على بكرة أبيهم، لكن صاحبتنا تكرّمت عليهم بالحياة وقالت، رغم العدد الكبير من القتلى «فإنه لا يعني أنهم أُفنُوا جميعاً لأننا سوف نجد مسيحيين من بني عجل البكريين بعد انتهاء فتح

---

(١) ن. م، ص١٥١.

(٢) ن. م، ص١٥٢.

العراق»[١]. ومن قَبْله عمر، اتّبع نموذج محمد في تعامله مع ما تبقّى من المسيحيين، يعني القضاء عليهم خلال جيل واحد، وهكذا تعترف هي نفسها، «**رغبة عمر في القضاء على المسيحية العربية بين بني تغلب، وتتجلّى رغبته هذه أيضاً في إصراره على ألا يُنصّروا وليداً لمّا أسقط عنهم الجزية**»[٢]. وفي فاصل هزلي آخر: عمر لا يمثل الإسلام وأحكامه مخالفة لكلام الله ولتعاليم نبيّه، وأعماله عنصرية، وذلك باعتباره المسيحيين العرب «**من غير أهل الكتاب**». وقد فكّرت وقدّرت وقالت إن هذا العمل يبدو للوهلة الأولى «**أمر يفاجئنا**»، لماذا؟ «لأن هذا الحكم لا يمكن أن يُسند إلى **القرآن** أو إلى **السنّة**.. والتي تؤكد أن **القرآن** لم يستثن المسيحيين العرب من أهل الكتاب وأن الرسول عاملهم على هذا الأساس»[٣]. لكن لا تخافوا، ما أقدَم عليه عمر هو عمل مشروع ويتماشى مع روح الإسلام، وأي روح هي؟ روح الابتزاز، والترهيب بغية اضطرارهم على الدخول في الدين الجديد والتخلي عن دين آبائهم. وهذه هي الأسباب التي برّرت بها الباحثة أعمال عمر وأرجعتها إلى حضيرتها الإسلامية القحّة. قالت: «إذا تأملنا في الأمر بعمق نجد ارتباطاً وثيقاً بين هذا الحكم **وسعي عمر إلى إلحاق المسيحيين العرب بالإسلام**. إذ من الممكن حقّاً أن يكون عمر قد أراد **ممارسة ضغط معنوي عليهم بتهميشهم دينياً فيضطرون إلى التخلّص من هذه الوضعية باعتناق الإسلام**»[٤].

---

(١) ن. م، ص١٥١.
(٢) ن. م، ص١٥٤.
(٣) ن. م، ن. ص.
(٤) ن. م، ص١٥٤.

هذا هو الإسلام، هذه هي الصورة الحقيقية الناصعة التي مَهما فعلت (هي وجعيّط) لكي تُخفيها، فهي تبرز للعراء عنوة عنها: أضْطَهِدُكَ وأهمّشُك وأضيّقُ عليك الخناق وأثقلُ كاهلكَ بالضّرائب لكي أرغمَك على الدخول في الإسلام، وبعده الفراغ التام، اللاشيء. وهكذا فإن هذه المؤرخة تَختم كلامها بالإشادة بالخداع، بالضغوط النفسية القاهرة، بالترهيب والابتزاز لكي يدخل المسيحيون العرب في الإسلام. والأدهى أن هذه الفكرة ثابتة في كتابها بحيث إنها قرنت عمر بالعنصرية التامة، بالإقصاء الديني الطائفي في أبشع معانيه. عمر استقدم العرب من بلاد الروم على شرط دخولهم في الإسلام، وهذا الشرط العنصري أوحى إلى هذه الكاتبة بالاستنتاج التالي: «ما من شك في أن ذلك يعكس **رغبة عمر في أسلمة جميع المسيحيين العرب لقناعته بأن العربي أولى به أن يكون مسلما**». هذا هو إرث جعيّط الذي مرّره إلى أتباعه، فقد استقرّ هو نفسه على هذه الفكرة وجعل منها ركيزة من ركائز قناعاته القوموية الثابتة، حتى غَدت مصادرة رياضية: **عربي = مسلم**. وعلى نفس خُطاه فإن الباحثة تردد هذه الفكرة التي أصبحت عندها هي أيضاً مصادرة غير قابلة للنقد، فهي تزعم الاندماج في مشاعر أناس عاشوا منذ ألف وأربعمائة سنة، وتقول إن المسلمين يَتضايقون «**أن يروا فردا من العرب يُسمَح له بأن يظلّ مُخلصاً للمسيحية. وكان همّهم الاسراع بإلحاق كل مسيحي عربي بالإسلام. كان هذا موقف الرسول منذ شروعه في دعوة مسيحيي الجزيرة إلى الإسلام. لكن تميّز به أكثر عمر بن الخطاب**»[١].

كيف تريدون أن تبقى المسيحية قائمة؟ هل من سبيل إلى التنفس في

---

(١) ن. م، ص١٦٤.

جوّ خنقه المسلمون بهذا النوع من الاضطهاد والتهميش؟ إن بقاء المسيحية إلى اليوم في العالم العربي، لهو حقّاً من أغرب الأشياء في التاريخ، أكاد أقول معجزة، لولا أنني لا أومن بالمعجزات ولا بالعناية الالهية، لأن الله غير موجود. إذا قرأنا كتاب هذه الباحثة فإننا نقف بالفعل على قمة المفارقة، ذلك أننا لا نرى أمامنا إلاّ تقتيلاً وسَبْياً واضطهاداً وإرغاماً وابتزازاً، بحيث يتملّكنا العجب كيف أن مجموعة بشرية استطاعت أن تتحمل مثل هذه النكاية وتبقى في الوجود.

المسيحيون العراقيون شهدوا مصيراً تعيساً، مصيراً لا يختلف عما يرونه اليوم في بلدهم خصوصاً بعد أن صوّت البرلمان العراقي (٢٧ أكتوبر) على قانون إجرامي سُمّي «قانون البطاقة الوطنية» الذي ينص في مادته ٢٦ على أن «**يتبع الأولاد القاصرون في الدين من اعتنق الدين الإسلامي من الأبوين**»[١]، وهذا امتداد لقانون عُمر بن الخطاب الذي منع المسيحيين العرب من تنصير ابنائهم. أمر يدعو لليأس حقّاً، مع كل الشناعات التي اقترفها المسلمون في حق المسيحيين عبر تاريخهم، فهم ما زالوا مُصرّين على القضاء عليهم ومَحوهم من كامل الشرق؛ لم يَشفوا غليلهم بعد ولم يرتووا من دمائهم، وهم يواصلون حثيثاً في نفس النهج الذي رسمه نبيّهم وخلفاؤه. ومع ذلك، ورغم أن الأشياء بيّنة أمام أعيننا فإن هذه المؤرخة لا تَكلّ عن التحدث عن تسامح الإسلام ونبيّ الإسلام وانفتاح القرآن على المسيحيين، ولكن على أرض الواقع، يعني على أرض النصوص فهي تقول أشياء منافية لها تماماً. اسمعوا ماذا

---

(١) البطاقة العراقية الموحدة: تراجع عن مبدأ التعددية واحترام المواثيق الدولية، ٢٠١٥/١١/٣ [http: //www.abouna.org/]

حدث للمسيحيين في العراق: «تتمثل أبرز ملامح التحوّل [تحول المسيحية العربية] **في نجاح المسلمين في إزالة المسيحية العربية من جنوب العراق وذلك عن طريق التصفية الجسدية التي قام بها خالد بن الوليد سنة ١٢هـ مع مسيحيي بكر وعرب الضاحية**». التصفية الجسدية إذن، وماذا تفعل داعش الآن في العراق؟ ماذا فعلت «النّصرة» في سوريا؟ وماذا فعل الاخوان المسلمون في مصر؟ تصوّروا الطريقة المُنكّلة التي تتحدث بها بكل أريحية عن تصفية جسدية، عن إزالة، يعني هولوكوست، يعني إبادة جماعية مثل إبادة اليهود من طرف النازيّين الألمان أو إبادة الهنود الحمر على يد الإسبان والإنجليز. لم يبق من المسيحية شيئاً إلاّ بعض التجمعات في أحياء متفرّقة حول المدن: «**لم تبق المسيحية حية إلا في مدينة الحيرة... كما بقيت بشكل مهمّش في مجموعات صغيرة مشتتة قبلياً وجغرافياً**»[١]. ورغم الابادة الجماعية التي قام بها خالد ابن الوليد، والتي يستحق عليها حِساباً عسيراً، فإن هذه المؤرخة سليلة مدرسة جعيّط، تجرؤ على القول بأن السفّاح خالد بن الوليد «**ضرب المثل الرائع في إعالة العجّز**»[٢]، بعد أن قتل الشباب وأبادهم، وبعد أن سبى الفتيات، لم يبق أمامه إلاّ الشيوخ، فترَكَهم وأعال العُجّز. رحيم جدّاً، أليس كذلك؟ تصوّروا إلى أي حدّ وصلت المهزلة، وبأي طريقة تسخر منّا ومن عقولنا، فعلاً تسخر من عقولنا، بحمل القضية والنقيض في نفس السياق وفي نفس الجملة تقريبا. فهي تكتب بأن عمل خالد يدلّ على «مدى تسامحه مع المسيحيين العرب

---

(١) ن. م، ص١٥٤.

(٢) ن. م، ص١٥٥.

وتمكينهم من الحرية الدينية»، وبعد هذه «الجملة ـ الافتراء» مباشرة، تقول بالحرف: «**لكنهم مُنعوا من احداث كنائس جديدة والتشبّه بالمسلمين في لباسهم**»[١]، وكأن مَنع السكان الأصليين من حرية بناء دُور عِبادة وارغامهم على ارتداء لباس عنصري، هي دليل تسامح وانفتاح.

إن ما يدور الآن في العراق وسوريا وما يتعرض له المسيحيون في بلاد الشرق عموماً، موجود في كتاب هذه المؤرخة، بشكل بيّن وصريح، وهي تَعرضه في عرائه وكأنها تتلذذ، كما يتلذذ جعيط بقتل غير المسلمين: إن رفض مسيحيي بني ناجية دفع الجزية التي أفْقَرتهم وامتصّت رؤوس أموالهم، هذا الرفض تسميه إرادة «**الانسلاخ من الدولة الإسلامية**»[٢]، فماذا فعل المسلمون؟ متوقّع جدّاً، من طرف أناس يحبّون المال ويعشقون الأكل والنساء: «**من البديهي أن يكون رد فعل المسلمين سياسيين وقادة عنيفا إزاء هذا الموقف**»[٣]. نحن هنا أمام كتاب رياضيات لا كتاب تاريخ؛ أمام بديهيات ومعادلات رياضية، وليس أمام وقائع وأحداث «تاريخية» يمكن مناقشتها أو الشك فيها، أو التريّث في الحكم عليها. فالكاتبة تُسقط مشاعرها على التاريخ وتصوّر بديهيّاتها وكأنها مُسلَّم بها من طرف كل العقول، في الوقت الذي هي مجرد تخمينات، ومُيولات شخصية. المسيحيون الذين امتنعوا عن إعطاء الأموال (الجزية) مقابل اللاشيء، تكفّل بهم هذه المرة علي بن ابي طالب، وقد كلّف هو بدوره قائده مَعقل بن قيس بالتعامل معهم، ماذا

---

(١) ن. م، ص١٥٥.
(٢) ن. م، ص١٦١.
(٣) ن. م، ص١٦١

فعل بهم؟ إليكم الرواية كما تسردها الكاتبة بكل تَشفّ: «**أمَرَ المرتدّين من بني ناجية بالعودة إلى الإسلام، فأبوا فقتل المقاتلة وسبى الذراري. لكن رواية أبي مخنف توضح أنهم رجعوا إلى الإسلام غير رجل واحد قتله معقل**».

روايتان، ليس لدينا أي وثيقة تُثبتُ صحّة أيّة واحدة منهما، ومن المرجّح أن كليهما خيالي، الأولى على كل حال فظيعة تقول إنه قتل الجميع وسبى الأطفال، والثانية أقل حدة تقول إنه قتل شخصاً واحداً، لكن الكاتبة، ترجّح الفظاعة وتبدي تشفّيا مرعبا في المَقْتُولين، لأنه استقر في ذهنها أن علي ابن أبي طالب هو دراكولا، لا يختلف عن السفّاح خالد، وكلاهما مصاصي دماء وآكلي لحوم البشر. تقول جازمة: «**ونحن نميل إلى تصديق الرواية الأولى لأنها أكثر تناسبا مع موقف علي بن أبي طالب من المرتدّين**. وما فعله معقل ليس إلاّ **تنفيذا لحكم علي**، وهو ما قصده الخريت متخوّفا عندما خاطب مرتدي قبيلته: «**ويحكم! أتدرون حكم عليّ فيمن أسلم من النصارى، ثم رجع إلى نصرانيته؟ لا والله ما يَسمَع لهم قولا، ولا يرى لهم عذرا، ولا يقبل منهم توبة ولا يدعوهم إليها، وإن حكمه فيهم لضرب العنق ساعة يستمكن منهم**»». لا نِقاش ولا حوار، ولا شفقة، بل ضرب الأعناق والسبي، هذا هو منطق المسلمين مع المسيحيين. فعلاً، «المسيحيون الذميون **سباهم عقابا لهم** «حتى يكونوا نكالا لمن بعدهم من أهل الذمة لكيلا يمنعوا الجزية ولكيلا يجترؤوا على قتال أهل القبلة، وهم أهل الصغار والذل». ذلك ما صرّح به معقل بن قيس في رسالته إلى علي بن أبي طالب»[1]. أين

---

(١) ن. م، ص١٦١.

هي الأخلاق الحميدة؟ أين الدين والروحانيات؟ لماذا سَبْي الأطفال والنساء؟ السّبي هو أمر مشروع، بالنسبة لهذه المؤرخة، وهي تُفسّره بأنه إجراءً اتخذته السلطة الإسلامية «**لأجل استعادة الأموال التي تراكمت بذمة بني ناجية عندما انقطعوا عن دفع الجزية أثناء الفتنة**»[1]. وهذه الأعمال البشعة لم تكن فلتة عابرة أو عملاً فردياً قام به أحد الإجراميين المنعزلين، وإنما سُنّة ثابتة، وهي نفسها تعترف بذلك: «**ويبدو أن هذا الأمر ليس غريبا فيما يتعلق بالسلطة الإسلامية لأن هذا الأمر نفسه حدث مع بربر لوَاتة في برقة عندما غزاهم عمرو بن العاص**»[2]. قارنوا ما تفعله داعش اليوم بما فعله المسلمون الأوائل بالمسيحيين، وحاولوا أن تجدوا نقطة اختلاف واحدة.

الخلافة الإسلامية أضافت إلى شناعات الإسلام الأوّل شناعات أخرى ذهبت ضحيّتها دائماً المسيحية، والكاتبة تعطينا جردا من هذه الأعمال «البطولية»، ببرودة دم تُحسد عليها: «**فترة الخلافة الراشدة تميّزت بزوال المسيحية بين صفوف العرب بالجزيرة وضعف الحضور المسيحي العربي وتلاشيه وتقلّصه جغرافياً وبشرياً في كل الشام والعراق**»[3]. في البداية الخليفة الأول، واصل ما فعله محمد: «**تميزت فترته [أبي بكر] بالانتصار على المتمردين المسيحيين العرب في الأطراف الشمالية للجزيرة العربية وإخضاع أهم المراكز المسيحية العربية فيها واضعاف الحضور المسيحي بين عرب الضاحية واستحواذ المسلمين على الحيرة**»[4].

---

(١) ن. م، ص١٦١.

(٢) ن. م، ص١٦١ ـ ١٦٢.

(٣) ن. م، ص١٦٢.

(٤) ن. م، ص١٦٢.

نحن الآن في المرحلة التالية، بعد مرحلة محمد، ولم تَنته المُهمّة عند هذا الحد لأن الشناعة يجب أن تكتمل على أفظع وجه، وقد تكفل بهذه المهمة عمر بن الخطاب: «**تُعتبر فترة خلافة عمر نقطة تحول أساسية في تاريخ المسيحية العربية**... إجلاء مسيحيي نجران وتوطينهم في جنوب العراق وارتحال جماعات من المسيحيين العرب من البلاد المفتوحة إلى بلاد الروم، والتحاق قسم هام من السميحيين العرب بأرضهم، واخضاع المجموعات المسيحية العربية التي رفضت الإسلام دينا للجزية». ثم جاء عثمان، ومُهمته كانت مركزة على مكان واحد «**زوال المسيحية العربية من عُمان**»[1]. وأخيراً جاء عليّ بن أبي طالب المعروف بعنفه المصعّد، وتحققت في خلافته مكاسب كبرى: القضاء على تمرد مسيحيي بني ناجية «وإرجاعهم إلى حضيرة الإسلام»[2] وهذه بالنسبة للمؤرخة هي «المرحلة الختامية في تاريخ المسيحية العربية في عهد الخلافة الراشدة»[3].

(١) ن. م، ص١٦٢.
(٢) ن. م، ن. ص.
(٣) ن. م، ن. ص.

١٩ ـ المسيحية صامدة

أنا لست مسيحياً ولا مُتديّناً بالمرّة، أنا مِلكٌ لنفسي وعقلي ولا يملكني أي دين، لأن عقلي يُعلمني بأن الأديان كلها فاسدة، وبأن ضررها أكثر من نَفعها، وأنها مصدر الشرور للبشر كلهم. لكن أن ترى المسلمين يحرقون عشرين كنيسة في يوم واحد في مصر، أن تراهم يُحطّموا الصلبان ويعيثوا في كنائس سوريا والعراق دوساً وحرقاً وتفجيراً، أن يذبحوا المسيحيين على الشاشة، فهذا ما لا يمكن قبوله إنسانياً وأخلاقياً. ليست هناك منطقة رمادية يحتمي بها المثقف، أمام هذه الشناعات، مهما كانت درجة إيمان المثقف أو كفره، يجب عليه أن يتضامن علنا ودون مواربة مع المسيحيّين وأن يَشجب المعتدين المسلمين. ليس هناك حياد في هذه المسألة المصيرية، يجب الدفاع عن المسيحيين، يجب فضح المسلمين الإرهابيين، يجب إدانتهم وإدانة الحامل الإيديولوجي الذي مكّنهم من فعل ذلك.

لكن أكثرها نكالاً بالمسيحيين أن يأتي مثقف حديث ويتعمّد تزوير تاريخ المسيحية في البلاد العربية وإيراد مسوغات تاريخية ملفقة لتبرير اضطهادهم وتطهير البلدان منهم. هذه الباحثة تركّز على التوحيد الإسلامي وتشاطر القرآن اتّهام المسيحيين بأنهم كفار ومشركون، وبأنهم قالوا إن الله هو ثالث ثلاثة أو إنه تزوّج امرأة وأنجب ولدا. اللاهوت

المسيحي لم يقل شيئاً من هذا القبيل على الإطلاق، فتّشوا في مؤلفات علماء الكلام المسيحيين من القرن الأول حتى القرن الواحد والعشرين فلن تجدوا مقولة أن الله تزوج امرأة وأنجب منها ولدا. ولكن هذه المؤرخة نَسيت أن القرآن يقول إن الله اتخذ إبراهيم صديقاً (خليلاً)؛ المسيحيون ذاهلون أمام تهمة عبادة ثلاثة آلهة، لأن الثالوث الإلهي هو من ميزات الغنوصية، ولم يكن من جوهر المسيحية، ولذلك انجروا عنوة للدخول في هذه المماحكة وكتبوا الكتب وحقّقوا ووضّحوا للمسلمين أن علاقة الله بيسوع ومريم ليست علاقة بنوّة جسدية كما هي الحال عند البشر، وإنما علاقة روحية تتجاوز البعد المادّي الزّمني. لكن مهما فعلوا، ومهما بيّنوا وفسّروا فإن أتعابهم ذاهبة سدى، لأن قَضْدِيّة الطّعن سابقة، وكاتب القرآن مُصِرّ على هذه التهمة، ومؤمنوه ورثوها على علاّتها دون أي امكانية لوضعها موضع شك. وهذا ما ولّد حالة من الاستياء والغبن لدى المسيحيين، لرؤيتهم كيف أن جحافل الأعراب، الذين لا يعرفون أي شيء عن جليل اللاهوت المسيحي ودقيقه، يُنازعونهم عقيدتهم ويُرَدّدون بوحشيّة اتهامات القرآن عن ظهر قلب.

لكن المسيحيين تحوّلوا، في فترة تالية، من حالة التقبّل السلبي إلى المقاومة، ثم الهجوم. وقد عبّر اللاهوتي، عبد المسيح بن اسحاق الكندي (القرن التاسع ميلادي) عن ردّة الفعل هذه وقال ما معناه: لقد اضطهدتمونا في ديننا وتَمادَيتم في اضطهادنا، وصبرنا على ظلمكم حتى وصل إلى حدّ لا يُطاق. لن نسكت بعد اليوم «**فإنّا لا نَدَع الاستقصاء وبلوغ الغاية القصوى في اللبس عن حقّنا ودَحض حجّة مَن أراد إبطال حجّتنا وأمرِنا، وحاول ظلمنا**»[1]. قالوا إن كاتب القرآن، عوض أن

---

(١) رسالة الكندي مع تعليقات ويليام موير، [Muhammadanism.org] ٢٠٠٦، ص٤٤.

يتهجّم على تصوّر الإله في الأديان الأخرى، كان عليه أن يُمحّص ما قاله هو عن الله، ولو فعل ذلك لظهرت عيوبه وانكشفت سقطاته. فعلاً، كيف لا يكون الأمر كذلك وهو الذي «**ألزمه أنّ له خليلا، وله حبيبا، وله صفيا**»، ومن يَصِف الإله على هذه الشاكلة «**فهو الذي شنّع عليه وألزمه أن له صاحبة، وأنه اتّخذ ولدا وكان له أكفاء**». أما نحن المسيحيّون، يقول الكندي «**فلا نقول إن الله كانت له صاحبة ولا إنه اتّخذ ولدا ولا إنه كان له كفؤٌ أحدا؛ ولا نَصِف الله بمثل هذه الرذائل والخسائس من صفات التشبيه [..] فأنتَ تعلم إذا كنتَ ذا علم بالكُتب أن ليس في كتُبنا المنزّلة لهذا ذِكرٌ فتَقبله عقولنا أو نتكلّم به**». إنّ لم تكن في كتبهم فمن أين جاءت هذه الاتهامات؟ الكندي ليس لديه من شكّ في أن منبعها الأصلي هو قرآن محمد: «إنما هو كتابك الذي أكثر التشنيع علينا وادّعى على المسيح سيّدنا ومُحيي البشر الدّعاوى التي لم يقلها قطّ [...] فأمّا نحن فلم نقل قطّ ولا نقول أبداً إن الله اتّخذ صاحبة، وولد ولداً، وليس قولنا إن لله ابنا، وهو الكلمة الخالقة، قول من قال إنه اتّخذ ولداً»[١].

وقبل الكندي بـ ٧٠٠ سنة ردّ اللاهوتي ترتليانس (Tertullien 160-220) على المَرقيونيّة التي تعتقد في إلهين اثنين بأقوال وحجج تبدو لنا في قمّة التوحيد والتنزيه. قال: «إن الخلاف الأساسي والأكبر [بيننا وبين المانوي مرقيون] يدور حول العدد... الحقيقة المسيحية صرّحت بكل وضوح: الله إذا لم يكن واحداً فهو ليس [الله] (Deus si non unus est,

---

(١) رسالة الكندي، ن. ص.

(non est)»[1]. لاحظوا تركيز المتكلّم المسيحي ترتليانس على مبدأ التوحيد وكيف يربط رباطاً تلازمياً بين الوحدة والألوهية. الأجدر به، يقول ترتليانس، أن لا يُوجد قطّ، عوض أن يكون موجوداً في صورة لا تليق به. إن الطبيعة الإنسانية الصافية المجبولة على الحقيقة إذا استُقصِيَت بمفردها، تدفعنا للاعتراف بأنه لن يكون إلاّ واحدا؛ بأن الله هو الأكبر (esse magnum)، لم يُولَد (innatum)، لم يُخلق، لا أوّل له ولا آخر، له القدرة من ذاته. أن تكون لديك فكرة أخرى عن الله، يعني عدم فهمه، يعني إنكاره بتجريده من صفته المُمَيِّزه. وكيف يكون هو الأكبر إن كان له كفء؟ إن كائنين أكبرين لا يمكن أن يوجدا في نفس الوقت، لأن جوهر الموجود الأكبر أَنْ لا يكون له كفء على الاطلاق؛ وصلوحية أن لا يكون له كفء لا تليق إلاّ بموجود واحد. إن الكائن الأكبر يَنفِي، يَمحُو بالضرورة كل كائن، كل مزاحم تزعمون تشبيهه به... الله إذن هو واحد بالذات، وإن لم يكن واحداً، لن يكون أبداً (si non unus, non est)، هكذا تُعرّفه العقيدة المسيحية وهذا هو مبدأها الأول.

أقول: أمازال للمسلمين من تعلّة للزّعم بأن المسيحيين يؤمنون بثلاثة آلهة؟ إن ترتليانس يتحدّث عن الله وكأنه آخر موحّد في العالم، ويستعمل عبارات استعملها محمد في القرآن بعده بأربعة قرون (الله أكبر، لم يُولد، لم يكن له كفء)، ومصطلحات أخرى ذات نفح فلسفي (لا بداية له ولا نهاية «sine initio, sine fine»).

---

(1) TERTULLIANI, *Adversus Marcionem*, in ID, *Opera Omnia*, PL, Parisiis, 1844, col. 249.

التّهمة الأخرى للمسيحيين (ولليهود) هي أنهم «**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**». أين الدليل؟ مَن من المسيحيين يؤلّه أحباره ورهبانه؟ لقد ردّ القديس جيروم (Jérôme) على تهمة مماثلة قبل أن ينزل القرآن بمآت السنين. اللاهوتي فيجيلانس (Vigilance) اتّهم المسيحيين بأنهم يُعظمون بقايا القديسين ويتبرّكون بعظامٍ لا تنفع ولا تضرّ، فما كان من جيروم إلاّ أن أجابه والإنجيل بيده: «مَن ذا الذي يَعبد الشهداء؟ (Quis enim aliquando martyres adoravit?)» من ذا الذي يَخلط بين الإنسان والله؟ (Quis hominem putavit Deum?). هل هما بولس وبرنابا، اللذان أخذهما الليقؤونيين على أنهما جوبيتير ومركور، فأرادوا أن يقدموا لهما القرابين، ألم يمزقا ثيابهما ويَصرخا أنهما بشر؟ إن هذين القديسين لم يريدا، من خلال خطأ وثني، أن تُقدَّم لهما تكريمات هي خاصة فقط بالله. وبطرس، ألم يأخذ بيد كورنيليوس الذي همّ بالرّكوع إليه، قائلاً له «**أنا أيضاً إنسان** (أعمال الرسل ١٠، ٢٦)». لا! المسيحيون لا يعبدون الأموات. اقرأ الإنجيل، يقول جيروم، «إله إبراهيم وإله اسحاق وإله يعقوب ليس إله أموات بل أحياء»[١].

المسيحيون لا يَقبلون برسالة أخرى بعد يسوع، وهم غير مستعدّين للانضواء تحت نبوّة جديدة بعد أن نزلت عليهم البشارة العظمى التي لن خلّفت وراءها كل البشائر السابقة. وقد أنبأهم يسوع نفسه، مُستبقاً الأحداث، أن لا نبيّ بعده. يقول عبد المسيح الكندي: كيف نقبل بنبيّ «وسيّدي المسيح قد قال في محكم إنجيله المقدّس ما معناه أن جميع

(1) SAINT JÉRÔME, *Livre contre Vigilance*, in *Œuvres complètes de Saint Jérôme*, t. 3, Paris, Louis Vivès, 1878, p. 5.

الأنبياء إنّما تنبّأت إلى وقت مجيئي وعند ظهوري زالت النبوّات بأجمعها، فلا نبيّ بعدي، فمن جاء بعدي مُدّعيا نبوّة فهو لص خاطف لا تقبلوه»[1]. لا يمكن للمسيحي أن يقبل برسالة تريد منه أن يتخلّى عن عقيدته الراسخة، ولا يمكنه أن يُذعن للتهديدات أو يَغترّ بالدّنيويّات التي يطرحها عليه الدين الجديد دون أن يأتيه بآيات مُقنعة: «**هل ترى لي أن أعدل عن وصيّة المسيح، مخلّص العالم، وأقبل غرورك وخدعك وأمانيك وتشويقاتك بالدنيويات الزائلة، بغير دليل ولا حجّة؟**»، ولقد صدّقوا في الماضي الأنبياء، يقول الكندي، وقبلوا أقوالهم فقط «**عندما جاؤوا بشروط النبوّة ودلائل الرسالة وأعلام الوحي، لا بالغَلَبَة والقهر ولا بالحميّة والعصبيّة ولا بالشرف في الحسب والنسب.. لا بتسهيل السنن والشرائع ولا بإعطاء الجسد شهواته**».

لم تكتف المؤرخة التونسية بتقزيم اللاهوت المسيحي والتعتيم على اعتراضاته، وذلك بالاعتماد فقط على تهجّمات القرآن وتفاسير المسلمين، بل إنها، كما أكدتُ مابقا، مَسحت كل الشواهد والنصوص التي تثبت أن المسيحية هي والعالم العربي شيء واحد، وأن انتشارها لم يكن اكتساحاً خارجياً وإنما تطوّر داخلي طبيعي متلازم مع التواجد العربي العريق في تلك المنطقة من العالم. إن المسيح ذاته، إن لم يكن عربياً، فقد قضى حياته بينهم وترعرع في واقع تاريخي يعجّ بهم: في الجليل، يكتب تريمينغهام، كان يَراهم في كل مكان، وقد مارس رُسله الأوائل الوَعظَ في الشام والأردن ولبنان. الأناجيل الأولى تتحدث عن جمع من الناس عبَروا البحر مع يسوع، كلهم عرب: «**وَتَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ**

---

(١) رسالة الكندي مع تعليقات ويليام موير، muhamedanism.org، ٢٠٠٦، ص٦٨.

مِنَ الْجَلِيلِ وَمِنَ الْيَهُودِيَّةِ، مِنْ أُورُشَلِيمَ وَمِنْ أَدُومِيَّةَ وَمِن عَبْرِ الأُرْدُنِّ. وَالَّذِينَ حَوْلَ صُور وَصَيْدَاءَ، جَمْعٌ كَثِيرٌ، إِذْ سَمِعُوا كَمْ صَنَعَ أَتَوْا إِلَيْهِ (مرقس ٣: ٧ ـ ٨)». إن رسله العابرين، رغم أن عملهم التبشيري يضم قطاعات كبرى من الشام، كان مُركّزاً في المناطق العربية، في البقاع، وفي المدن العشر (عمان، دمشق، بيت راس، بيسان.. الخ) وهي مدن عربية قحّة، وليس في المدن الهلينيّة. إن أوّل المسيحيين الذين سمعنا بهم خارج المجموعة المصغرة للأتباع الأولين كانوا متمركزين في دمشق[١]، وهي قلب العروبة منذ القديم، لا نَجْد والحِجاز التي لم يذكرها أي مؤرخ قديم. إن سكان الجليل كانوا خليطاً من الأعراق، وحينما احتُلت من طرف هيركانوس، كانت تحت حكم عرب البقاع، وحتى في وقت المسيح، فإن المؤرخ اليوناني استرابون، لا ينظر إلى فلسطين وما جاورها على أنها أرض يهودية، رغم وجود متساكنات يهودية وتجمّعات مغلقة يقطنها العديد من المتشدّدين. إن تبشير يسوع بين العرب وبين وثنيين آخرين ـ (ما زلت استشهد بعمل تريمينغهام: «المسيحية بين العرب») هو الصيغة الوحيدة التي نستطيع بها أن نفسّر وجود أتباع ليَسُوع المسيح في دمشق، وفي حوران، المنطقة العربية التي لجأ إليها الرسول بولس[٢]. وأن تكون «عربية» بولس تُحيل على نبط حوران، وهم من العرب الأقحاح، فهذا الأمر يجد له تأييداً مما جاء في حوار طريفون لجوستين الشهيد، الذي كتب في سنة ١٥٢

---

(1) J.S. TRIMINGHAM, *Christianity Among the Arabs in Pre - Islamic Times*, Longman London and New York, Librairie du Liban, Beirut 1979, p. 41.

(2) Ibid, p. 42.

ميلادية، بخصوص الرواية التي تقول «إن بعض المجوس جاؤوا من العربية (من بلاد العرب)» وزاروا المولود يسوع. يقول انها مسألة تخص دمشق، إذ أنها في عصره تتموقع في ولاية سوريا ـ فينيقيا (يعني بلاد الشام الكبرى)، لكن كل واحد يعلم، يضيف جوستين، أن دمشق كانت ولازالت أرضاً عربية. تاريخياً، منذ ٣٧ ق. م، كاليغولا ولّى على دمشق الحارث (الرابع)، ملك نباطيا أو النبط (٩ق.م. حتى ٤٠ب.م).

إضافة إلى ذلك فإن تحوّل بولس الرسول، الذي حرره من إرثه الديني السابق وقاده إلى الوعي بالرسالة الكونية ليسوع، حصل فوق أرض عربية (on Arab soil)، يقول ترمنجهام[١]. ففي رسالته لأهل غلاطية (١ : ١٥ ـ ١٧)، بولس يروي كيف أن بعد تحوله للمسيح: «الله... دعاني بنعمته أن يُعلن ابنه فيّ لأبشّر به بين الأمم، وفي الحال لم أستشر أي آدميّ ولا صعدتُ إلى أورشليم لأقابل الذين كانوا رسلاً من قبلي، بل انطلقتُ إلى **بلاد العرب** (εἰς Ἀραβίαν)، وبعد ذلك رجعتُ إلى **دمشق** (εἰς Δαμασκόν)». والأمر المثير، يواصل تريمينغهام، أن وجود أتباع للمسيح في بلاد العرب فقط سنتين أو ثلاث بعد موت المسيح هو السبب الوحيد لتفسير بقاء بولس هناك بعد تحوّله، وبسبب الانتشار السريع للإنجيل بعد أن استحوذ الرومان على الدولة النبطية.

أن تكون الديانة المسيحية متغلغلة في بلاد العرب منذ القرن الأول فإن إضافة إلى هذه المعطيات التي قدمها تريمينغهام، يمكن إضافة أحداث أخرى حصلت في القرن الثاني الميلادي، وهي أحداث موثقة،

---

(1) Ibidem.

هذا إذا تذرّع أحدهم بأنه لا يعتقد في أقوال بولس. لقد ذكر أوزابيوس القيصري، في كتابه التاريخ الكنسي، أن برعل (Βήρυλλος) أسقف **بُصرى العرب** (Βόστρων τῆς Ἀραβίας)، الذي ابتعد عن قوانين العقيدة وأدخل بدعة «غريبة عن الإيمان... إلخ»[١]، وقد عاش هذا الأسقف العربي في القرن الثاني وبداية القرن الثالث، في مدينة بصرى الشام العربية. وفي نفس هذه المدينة العريقة المتمسّحة منذ القرن الأول، حصلت بعض المجادلات اللاهوتية أدت إلى الهرطقة، فاضطر الأساقفة إلى استدعاء مجمع لمناقشة أصحاب هذه الآراء الهرطقية، وقد حضر أوريجينس لتصحيح معتقدات الهراطقة وهدايتهم إلى الدين القويم[٢]. هذه الواقعة يمكن التأريخ لها بدقة، لقد حدثت بين عامي ٢٣٨ و٢٤٤ ميلادي. وهذا نص أوزيبيوس وجوهر المسألة المتنازع عنها: «كان هناك أناس آخرون، في **بلاد العرب** (τῆς Ἀραβίας)، برزت في تلك الفترة عقيدة غريبة عن الحقيقة: يقولون إن النفس البشرية، في هذا الوقت الذي نحن فيه، تفنى مع الجسد في ساعة الموت؛ لكن في يوم ما، يوم البعث، ستحيى مرة أخرى. وفي هذه الحالة أقيم مجمع هام، ومجدّداً تمّ استدعاء أوريجين [استُدعي المرة الأولى بشأن الأسقف برعيل]؛ وأخذ يقوم بمواعظ في المجمع حول الموضوع المثار، وقد كان متحمساً لدرجة أنه غيّر أفكار الذين كانوا قد

(1) EUSÈBE, *Histoire ecclésiastique*, traduction française par Émile Grapin, Paris, Alphonse Picard et fils Éditeurs, 1911, VI, 33, 1, p. 239.

(2) Cfr., ORIGÈNE, *Entretien d'Origène avec Héraclide*, introduction, texte, traduction et note de Jean Scherer, Paris, Cerf, 1960.

وقعوا فيها»[1]. السؤال: كَم وقتا ينبغي أن يمرّ قبل أن تبرز الهرطقات في مجموعة دينية ما؟ وكم وقتاً يجب أن يُسمّى فيه القسيسون والأساقفة؟ لو أن المسيحية دخلت بلاد العرب فقط منذ القرن الرابع، كما تزعم هذه المؤرخة، لما سمعنا عن مجامع تُعقد ولما علمنا بهذه الصراعات اللاهوتية التي حدثت في القرن الثاني.

أنا أصدّق ما كتبه المسيحيون القدامى، ولا أصدّق أي كلمة مما كتبه المؤرخون المسلمون (في ما يخص المسيحيين)، وأكثر منه لا أحترم ما يُردّده المثقفون العرب خِرّيجو مدرسة جعيّط التزويرية. أوزابيوس القيصري، عقد فصلاً في كتابه «التاريخ الكنيسي»، بعنوان: «كيف انتشرت تعاليم المسيح في وقت قصير في العالم أجمع»، أختم به هذا الفصل، لكي أطهّر ذهن القارئ من الأدران التي علقت به سابقا. قال أوزيبيوس: «بفضل تدخّل القوة الإلهية، تعاليم المُخلّص، مثل شعاع ضوء، أنارت بشكل مفاجئ الأرض بأسرها. مباشرة كما تنبّأتْ به الكتب المقدسة، صوت الإنجيليّين الإلهيّين والرسل «تمدد في الكون كله وكلمتهم وصلت إلى حدود العالم». في كل مدينة، في كل بلدة، ارتفعت كنائس، امتلأت بالمؤمنين. أولئك الذين كبحهم تراث أجدادهم وكبّلهم الخطأ القديم في المرض العظال لخرافة وثنية، وجدوا، سواء بفضل قدرة يسوع، أو وعظ ومعجزات حوارييه، الخلاص من الطغاة القساة ومن الأغلال الثقيلة التي تكبّلهم. لقد لفظوا الشرك الشيطاني واعترفوا بأنه لا يوجد إلاّ إله واحد خالق للموجودات كلها. الآن

(1) EUSÈBE, *Histoire ecclésiastique*, VI, 33, 2, p. 245-246.

يقدّسونه بطقوس تقوى صادقة، وبممارسات الديانة الإلهية الناصعة التي علمها ربنا إلى الجنس البشري. إن رحمة الله انتشرت فعلاً على بقية الأمم، وفي قيصرية فلسطين، كرنيليوس تقبّل هو الأول مع بيته كلها الإيمان بالمسيح، عن طريق وحي سماوي وبمعمل بطرس. عدد كبير من اليونانيين أنطاكيا آمنوا بالمثل عندما سمعوا كلمات أولئك الذين فرّقتهم اضطهادات ايتيان. كنيسة أنطاكيا أصبحت فجأة مزدهرة ومعمّرة؛ عدد كبير من أنبياء أورشليم تواجدوا فيها، مع بولس وبرنابا وجمع غفير من الإخوة. من هناك أشع مثل نبع رائع ووفير اسم المسيح»[١].

(1) Eusèbe, *Histoire ecclésiastique*, traduction française par Émile Grapin, Paris, Alphonse Picard et fils, Éditeurs, 1905, p.129-130.

٢٠ ـ آثار جعيّط العابرة: الدمار الشامل

لقد قلتُ سابقاً إن انتقادات هشام جعيّط للاستشراق وتهجّماته على المستشرقين متطابقة في الروح والمنحى مع تلك التي يعتمدها الإسلاميون في كتيّباتهم التشهيرية. وليس من المستغرب أن يلجأ الإسلاميون إلى مفكّرين عرب يُحسبون على العقلانية والتنوير لكي يَستمدّوا منهم معلومات ومواقف لضرب المستشرقين، وفي هذا الصدد فإن مؤلفات جعيّط توفّر لهم كل ما يحتاجونه للقيام بالمُهمّة. وهذه هي حال الكاتب السّلفي محمد أبو ليلة، أستاذ في جامعة الأزهر، في كتابه «**محمد بين الحقيقة والافتراء. في الردّ على الكاتب اليهودي الفرنسي مكسيم رودنسون**». لقد استغلّ أطروحات هشام جعيّط للتشهير بالمستشرقين عموماً وبماكسيم رودنسون على وجه الخصوص، وتَبنّى آراءه في كل ما يمسّ قضية المفكرين الفرنسيّين ومواقفهم من الإسلام[1]. لكن المُضحك المُبكي أن هذا المفكر الإسلامي الذي خاض معركة حامية ضد الاستشراق لا يعرف مَن هو **هشام جعيّط** ولا يعرف حتى كيفيّة كتابة اسمه، وهذا يُعطينا صورة حيّة عن ثقافة

---

(١) محمد أبو ليلة، محمد بين الحقيقة والافتراء. في الردّ على الكاتب اليهودي الفرنسي مكسيم رودنسون، دار النشر للجامعات ـ مصر ١٩٩٩.

الإسلاميين الهزيلة الضّحلة وكَسَلهم الذهني وبُعدهم عن شروط الاستقصاء الجدّي والفحص المُعمّق في المسائل الفكرية. لقد نَقل صفحات مُطوّلة من كتاب هشام جعيّط: **أوروبا والإسلام**، من الإنجليزية رغم أن هذا الكتاب مُترجم إلى العربية منذ سنة ١٩٩٥، أي منذ أربع سنوات قبل أن يصدر هو كتابه، ونُشر بدار الطليعة في لبنان ثم أعيد طبعه سنة ٢٠٠١. هشام جعيّط بالنسبة إليه هو مفكّر فرنسي واسمه **هيتشم دجيت**: «وإذا ما نظرنا مع الكاتب الفرنسي هيتشم دجيت (Djait Hichem) إلى عصر التنوير..[١].».

ماذا استقى أبو ليلة من جعيّط؟ ـ التهجّم على المستشرقين الفرنسيين عموماً وعلى صنف المثقف الفرنسي خصوصاً، واعتباره صاحب عقلية مغرورة، بالمقارنة مع تواضع المفكر الألماني. المفارقة هي أن أبي ليلة يشنّ حملة على المفكرين الفرنسيين من فم مفكر فرنسي هو «**هيتشم دجيت**»، يعني هشام جعيّط، وكل الوسائل صالحة لبلوغ الهدف، حسب المبدأ الإسلامي: الضرورات تبيح المحظورات. المُثقف الفرنسي، حسب أبو ليلة «اصطبغ عقله بالاعتقاد بتفوّقه العقلي والروحي على غيره، ولكنه في الوقت نفسه كانت تعوزه وسائل التعمق الفكري الذي تميّزت به العقلية الألمانية»[٢]. وهذه المعلومة (مَغلوطة ومُغرضِة) استقاها من جعيّط، ومن جعيّط أيضاً استمد العداء لفولتير دون الرّجوع إلى أي مَرجع أو تَصفُّح أي كتاب من كتُبه، حتى وإن زعَمَ عكس ذلك، ناسباً إلى نفسه أقوال جعيّط «ومِن دراستنا نلاحظ...»، وهو في

---

(١) محمد بين الحقيقة والافتراء، ص٣٧.

(٢) محمد بين الحقيقة والافتراء، ص٣٧.

الحقيقة لم يدرس شيئاً ولم يقرأ أي كتاب من كتب فولتير، كما هي حال جعيّط، وإنما ردّد ما قرأه إجمالاً في كتاب **أوروبا والإسلام**، الفصل بعنوان «المثقفون الفرنسيون والإسلام» وتصرّف فيه بحسب مذاقه: «ومِن دراستنا نلاحظ أن كل ما كان يفهمه فولتير للأسف عن الإسلام واتّخذه من ثم أساساً في الحكم عليه، هو أنه ربط خطأ بين العنف وبين الإسلام بل إنه أرجع تاريخ العنف في الإسلام إلى النبيّ، فمحمد كان في نظر فولتير إرهابياً بالمعنى الحديث [...] إنه جعل الإسلام رمزاً للتعصّب والكراهية للإنسانية وعلامة على مدى التعطّش للوصول إلى القوّة»(١).

الإسلامي أبو ليلة يتفق مع جعيّط في أحكامه ضد فولتير ويتبنّاها كما لو أنها الحقيقة المطلقة، لكن يستنتج منها ما لم يستنتجه جعيّط: «وهذا على أية الحال **يُدعّم من جهة أخرى وجهة نظر هيئشم** [يعني هشام] في أن المطاعن التي وجهها فولتير في البداية ضد الإسلام **قد فتحت الطريق أمام الغربيين لكي يتعرّفوا أكثر على هذا الدين، وأن يكونوا أكثر عقلانية في تناولهم له**»(٢).

---

(١) ن. ص. ثم أضاف في نفس الصفحة، محوصلا أقوال جعيّط وضاحا فيها كمّا من الخطابة الإسلاموية: «والعجيب أن فولتير وهو يمثل عصراً كاملاً للحركة الفكرية يزعم بالإضافة إلى ما سبق أن الإسلام كان قد انتشر بسبب الإباحية الجنسيّة التي اتّسم بها نظامه. ومع هذا فإن رسول الله ظل بالنسبة لفولتير رجلا انتهازيّاً توقّف نجاحه على استغلال سذاجة أتباعه وفرض دعوته على الناس بالقوّة الغاشمة، وأنه كان كذابا وذا نزعة عدوانية وشرّيرة، وقد عقد فولتير مقارنة ظالمة بين النبي محمد وبين نبي الله عيسى عليهما السلام، الغرض منها التقليل من شأن النبي محمد».

(٢) ن. م، ص٣٩.

أما الضّبط والدقّة في الاحالات فلا تسألوا عليها، فكتابه، مثل كتب الإسلاميين جميعهم دون استثناء، هو خزان من الأخطاء الفادحة، والجهل باللغات، والحشو المسترسل، من قبيل: «وهنا لا بد أن نشير إلى كتابات بولينفيللرز (Boulainvilliers) وعنوانها (The *Essai Sur les mœurs*)». في الحقيقة «محاولة في الأخلاق» هو كتاب واحد وليس كتابات، وهو ليس لبولانفيلييه وإنما لفولتير، وهذه السّقطة وأمثالها التي لا يقترفها حتى طالب مبتدئ في الآداب الفرنسية، عادة مستفحلة في كتابات الإسلاميين عموماً وليست غريبة عنهم، لأنهم غير صادقين بالطّبع، ويستهينون بقرّائهم ولا يحترمون مقوّمات البحث العلمي النزيه. وقد نقل أبو ليلة حرفياً هذه الجملة عن الترجمة الإنجليزية لكتاب جعيّط فاختلطت عليه الأسماء والتبس عليه سياق الجملة ومعناها الذي يرغب في تمريره جعيّط. الجملة الإنجليزية جاءت على النحو التالي:

(This appraisal underwent some notable alterations under the influence of the writing of Boulainvilliers. The *Essai sur les moeurs* attempts to analyze the constitutive features of Islam within the framework of the history of religion)[1].

ما ترجمته بالعربية: «**هذا التّقييم عَرف تعديلات ملحوظة بتأثير كتاب بولانفيليه. إن كتاب *دراسة عن الأخلاق*، يحاول أن يحلّل العناصر التي تَدخل في تركيب الإسلام، وذلك من منظور تاريخ الأديان**»[٢]. لو أن الرجل تثبّت من النص الذي بين يديه وقرأه بتمعّن،

(1) H. DJAIT, *Europe and Islam*, translated by Peter Heinegg, University of California Press, California 1985, p. 22.

(٢) هشام جعيّط، أوروبا والإسلام، م. س، ص١٩.

دون التلهّف على التهجّم على المستشرقين، لتفطّن إلى أن في نفس الصفحة نسب جعيّط كتاب «دراسة عن الأخلاق» إلى فولتير وهو بالفعل لفولتير. لكن لا يجب أن نطلب من إنسان مؤمن متشبّث بأساطير دينه ومعتقداته اللاعقلانية أن يتحلّى بالموضوعية وأن يتّبع منهجية علمية صارمة.

فالرجل لا يكلّف نفسه التثبّت من عناوين الكتب، لا الفحص في المصادر؛ يستشهد بجعيّط ولا يعلم أن جعيّط هو بدوره ينقل من كتاب آخرين؛ يُخطئ حتى في كتابة أسماء الأعلام مثل الأديب شاتوبريان (Chateaubriand) الذي أصبح بينْ يديه «تشاتو برايند chateau briand»، ولامارتين (Lamartine) أصبح «لمرتين (lamertine)»؛ لا يُفرّق بين المؤنث والمذكر في أسماء العلم، مانويلا سيميداي (Manuela Semidei) كاتبة أمريكية أصبحت عنده رجلاً مجهولاً صاحب كتاب لا ندري عنوانه: «وفي عمل علمي له أهميّته نشره مانويلا سميدي (Manuela Simidei) حول الاستعمار في الكتب المدرسية خلال المرحلة الاستعمارية (١٩١٩ ـ ١٩٦٦) انتهى المؤلف إلى أن الإسلام «دين مسخ ابتكره محمد الذي ادعى أنه نبيّ»»[١].

مُسَلّماته الفكرية ومُرتكزاته الأولى إسلاموية رجعيّة كارهة للبشر، وهو يحاول مجابهة رجل ماركسي ملحد، مثل رودنسون، بترسانة أساطير دينه ومعتقداته الخرافية. وقد سوّد مائة صفحة كمقدّمة لكي يتهجّم عليه بصلافة ويحقد عليه لأنه يهودي رغم أن رودنسون كان مُلحداً مُعلَناً. التأكيد المهووس، مثل كل الإسلاميين، بما في ذلك

---

(١) محمد أبو ليلة، محمد بين الحقيقة والافتراء، ص٥٢.

جعيّط، على وهم أن القرآن عقلاني لا يناقض العلم: «لا يوجد في القرآن ما يعارضه العلم الصحيح البتّة، فالحقائق العلمية لا تتصادم قط مع الحقائق القرآنية لأن الله تعالى هو الذي ألهم العلماء معرفتها، والوقوف على أسرارها ومنافعها، كما أنه هو الذي أوحى بالقرآن إلى رسول الله وعرّفه بأسراره ومنافعه، كما أمره ببثه بين الأبيض والأحمر»[1].

لا تغيب الهموم الجنسية، التي تطفو على السطح باستمرار، وهذا هو الموضوع المُفضّل عند الإسلاميين حتى وإن كان سياق النقاش لا علاقة له بهذا الأمر بتاتاً. وقد كشف عن كَبْتِه الجنسي من خلال الحديث عن التحولات التي طرأت على الوعي المعاصر ووصفها بأنها عواصف أخلاقية تسبّبت في نشوء «فكرة النوع أي المساواة الكاملة بين الرجال والنساء بحيث لا يكون الرجل رجلاً ولا المرأة امرأة، كما يسعى إليه أصحاب نظرية النوع (Gender) وأصحاب نظرية الدّيكونستراكشن (*Deconstruction*) وتعني هذه النظرية هدم كل قديم وإقامة بناء جديد مكانه. ونظرية الأسرة الصناعية والإباحية الجنسية، ومحاولة التوصّل إليها عن طريق إزالة الحياء الجنسي، ولو بالأقراص»[2].

حاضرة بكثافة أسطورة الانحطاط الأخلاقي الجنسي للغرب، وتصوير الغربيين على شكل مجموعة من الدواب تمارس الجنس في العراء: «إن كل مشكلة عند هؤلاء الغربيين المادّيين مردّها إلى الجنس،

---

(١) محمد بين الحقيقة والافتراء، ص٢٧.

(٢) ن. م، ص٢٩.

وكل عقدة عندهم لا تُحلّ إلاّ عن طريق ممارسة الجنس، والانطلاق والحرية والفوضوية... إن الغرب بشكل عام يعاني من الكبت والعُقد النفسية والشذوذ الجنسي بأنواعه المختلفة أكثر من غيره من الشعوب الأخرى»[1].

العقلية الإرهابية التي كان قد تحدّث عنها رودنسون نَلمسها بجلاء في كلام هذا الرجل حيث يحاول إرهاب رودنسون وابتزازه الفكري بالعدد والقداسة: «لم يتورع [رودنسون] عن إضافة أو نقل أخطاء كثيرة ومغالطات شنيعة ضد دين تَعتنقه قلوب أكثر من مليار مسلم في العالم، وضدّ نبيّ تُصلّي عليه أمّته وتُسلّم بعدد أنفاسها كلّ يوم. ولولاه لما صحّت العقيدة، ولما صُحّحت تلك الأخطاء التي عشّشت في عقول البشر، ولَمَا عمّ نور الله وشعّ نور الضمير في أرجاء المعمورة، ولَما قام للدين دولة في قلوب العالمين إلى يوم الدين»[2]. ولا يتورّع من سبّه كما سبّه جعيّط ووصْفه بأقذع النعوت لأن رودنسون حسب زعمه «بدون حياء أخضع حياة أطهر الخلق وأجلّ الناس لتحليلات سيجموند فرويد النفساني اليهودي المادّي المُلحد، الذي جعل الحياة، كل الحياة، مجرّد لذة وشهوة، وجعل الجنس هو الغاية العليا وراء الخلق»[3].

بين الجملة والجملة، يُعيد ويُكرّر نفس التوصيف لنبيّ الإسلام، ويُبالغ في الثناء عليه وعلى دينه بشكل هستيري: «من المغامرة غير العلمية أن يُحقق رودنسون هذا الهدف على حساب أعظم رجل في

---

(١) ن. م، ص٧٤.
(٢) ن. م، ص٣٣.
(٣) ن. م، ص٨٤.

تاريخ الإنسانية، رجل جاء بالحق وبه نادى، وجاء بالحقيقة من عند الله وإليها دعا، ووضع على أساسها قواعد أعظم أمة وحضارة في التاريخ»[١]؛ وهذا التوصيف في الحقيقة لا يختلف كثيراً عمّا يعتقده جعيّط في نبيّ الإسلام، وقد عبّر عنه في ومضات متفرّقة من كتبه، وأجمله في خاتمة كتابه عن محمد في المدينة وانتصار الإسلام، لكن الإخواني أبا ليلة يُصرّ على هذه النقطة، ويُصرّح بمعتقده عن اقتناع تام ودون خجل أو مواربة. محمّد هو «أعظم شخصية عرفها التاريخ الإنساني منذ بداية التاريخ حتى نهايته. إن محمداً هو أول نبيّ وأول قائد يبني أمة عظيمة، ويُرسي قواعد إيمانه وعلميّة لحضارة مزدهرة ومُثمرة تتجدّد مع الزمان، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها... لقد أعلن الفيلسوف الإنجليزي توماس كارلايل أن محمداً هو بطل التاريخ الإنساني كلّه، وصرّح برنارد شو في بني قومه بأنه لو كان محمد بيننا اليوم لاستطاع أن يحلّ جميع مشكلات العالم بينما يشرب فنجانا من القهوة»[٢].

إضافة إلى هذه الأكاذيب والمبالغات المضحكة فإن هذا الرجل لا يتوانى من تزوير التاريخ وإعادة تلميع صورة الإسلام رغم كل المجازر التي اقترفها في حق الشعوب التي اجتاحها وأذعنها بحدّ السيف: «إن الإسلام لم يُكره أحداً على الدخول فيه، ولو أن سياسة الإسلام كانت تقوم على الإكراه لَمَا قَبل المسلمون أساساً مبدأ الجزية ولأجبروا الجميع على الدخول فيه، ولسَخّرهم لصالح المجتمع الجديد، إلا أن ذلك لم يحدث قطّ..[٣]».

---

(١) ن. م، ص٣٣.
(٢) ن. م، ص٧٣.
(٣) ن. م، ص٥٤.

دون الإطالة، أقول إن السيد أبو ليلة يُحقق بالكامل ما تمنّاه جعيّط طوال حياته، أي أن تَبرز مجموعة من الدارسين العرب المُسلمين الأقحاح، المُسلّحين بإرادة المعرفة وبالمِهَنية العالية، يُزِيحون الاستشراق الغربي من الصدارة ويفتكّون منه زمام المبادرة التي دامت قروناً ويقومون ببحوث راقية تزاحم بحوثهم وتتجاوزها في الكم والكيف. النتيجة لم تتأخر عن الظهور، وتجلّت في شطحات الإخواني أبو ليلة، الذي استغل إرث جعيّط وسار على هديه، محققاً أمنيته على أحسن وجه.

وأختم بهذا المقطع من كتاب أبو ليلة - لا يبعد كثيراً في لهجته ومحتواه عما كتبه جعيط ودوّنه أركون وهاشم صالح - يبرهن برهانا ساطعا على المستوى المتدني وعلى الجهل المطبق الذي وصل إليه المسلمون: «كلام الله لا يشبه كلام البشر، لا علماءهم ولا عوامّهم بالخبرة والاحتكاك، القرآن كما هو واضح هو النور الذي انبثق من عين الوجود الالهي وسار مسار النور الطبيعي إلى قلب المصطفى، فهو كنور الشمس ونور القمر والنجوم لا فضل لأحدٍ في انشائها وتسييرها، وكالروح لا يدري أحد كيف تدبّ في الأجساد وتسري في الأنحاء، ولكنه يرى آثارها شاهدة ومشهودة في الخلق والسيرة»[1].

(١) ن. م، ص٧٢.

٢١ ـ خاتمة

معاداة الاستشراق وصناعة «داعش»

حسن البنا، سيد قطب، سعيد حوّى، فتحي يكن، محمد عمارة يوسف القرضاوي هم الذين جلبوا لنا داعش والنّصرة، وهم الذين وفّروا الأرضية الفكرية والإيديولوجية لنشوء وتمتين كل الحركات الإسلامية الوحشية، وهم المسؤولون عن الإرهاب الإسلامي بجميع أصنافه. والمفكرون العلمانيون، من أمثال هشام جعيط، محمد أركون، هاشم صالح، يوسف الصديق، محمد الطالبي، عبد المجيد الشرفي، ماذا فعلوا للتصدّي لهذا الفكر المتوحّش؟ لم يفعلوا شيئاً أو فعلوا القليل، وربما قد ساهموا، بوعي أو بغير وعي منهم، في تعميق الأزمة.

في الوقت الذي كان فيه أجير المخابرات الإنجليزية، برنارد لويس، يُدافع عن الإسلام ويقترح على الغرب تدعيم الإسلاميين ضد الشيوعية، كان المؤرخ التونسي هشام جعيّط يُنظّر إلى الخلافة الإسلامية، ويقول إن الإسلام ليس روحانيات فقط وإنما هو دين ودولة. كان يُنادي بضرورة إعادة إرساء خلافة على منهاج النبوة، قبل أن تُحققها داعش بالفعل في أيامنا هذه. لقد استبق هذا الكيان القروسطي المَسْخ منذ خمسين سنة، حيث قال بصريح العبارة: «**أنا أدعو إلى تكوين سلطة**

إسلامية روحية، يكون لها القول الفصل في الأمور الدينية، يكون **على رأسها خليفة ديني** منتخب وحوله عناصر دينية مختصة في سياسة المجتمع الديني، لها رسالة روحية تهدف إلى **إنقاذ روح الإنسان بالفعالية الدينية** ويكرس هؤلاء حياتهم لمَثلٍ أعلى ديني. ومن الحَسَن أن تكون هذه العناصر مشبّعة بروح العلم الديني واللاديني جميعاً بحيث يكون **الخليفة وأعضاده رعاة الإسلام العالمي** لا مسؤولين لشريعة أزلية قديمة»[1].

ها قد تحققت اليوم أمنيته التي تمنّاها في الستينات من القرن الماضي بفضل طائرات الناتو والمخابرات الأمريكية الإسرائيلية والإرهابيين المرتزقة. وأصبح لدينا الآن خليفة منتخب من أعيان الأمة المصغّرة، مُحاط بمجلس شورى مضيّق، همّهم هو إعلاء كلمة الله، وغزو بقاع الأرض التي لم تدخل الإسلام بعد. لا يجب أن تصدّقوا كلمة واحدة مما يقوله عن أن هذا الخليفة يعتني بالجانب الديني فقط، لأن الدين والسياسة عند جعيط لا ينفصلان، والإسلام يجب أن يبقى دين الدولة ولو كره العلمانيّون.

كما أن الخليفة الحديث جدّاً، أبو بكر البغدادي المتواجد في مكان ما من العراق أو سوريا، وجنرالاته هم مجموعة من المرتزقة المجرمين فإن الخليفة الأصيل أبو بكر الصديق له أيضاً جنرالاته الدمويين: أبو عبيدة الجراح وخالد ابن الوليد والمُثنى الخ. لا تظنوا أني أبالغ أو أمزح، اقرؤوا كتاب هشام جعيط «**الكوفة**» فسترون كيف يروي بصورة

---

(١) هشام جعيّط، موقفي من الطقوس الدينية، حوار في مجلة «الإذاعة» تونس، عدد ١٦٧ ـ ١٩٦٦/٠٢/٢١ ـ ص٣٤.

خطّية ممنهجة، وربما بتلذّذ أعمال القتل والنهب والحرق التي قام بها خالد ابن الوليد في نفس مسرح القتال الذي تدور فيه الحرب الآن بين المجموعات الإرهابية والجيش السوري ـ العراقي. قال: «دُعي خالد، في المرحلة الأخيرة، لنجدة الجيوش في الشام فسار إلى أعلى الفرات ودخل الجزيرة فقمَع القبائل العربية بحدود الشام»[1]. استولى خالد والمثنى على عدة حصون على نهر الفرات، ثم التفتا إلى القبائل العربية فقتّلوهم تقتيلا، يقول جعيّط، بدم بارد: «**انتهت القضيّة بتقتيل حقيقي لهؤلاء العرب** والاستيلاء على أمغاشيا»[2]. وماذا يفعل الآن أمير المؤمنين الجديد، وجنوده المرتزقة، في العراق وسوريا؟ تصوّروا أمام هذه الابادة الجماعية المروّعة التي لم تثر فيه أي تساؤل ولم يرفّ له جفن طفق يتفلسف عن المكان الذي حدثت فيه المجزرة فدوّن ملاحظة في أسفل الصفحة كتب فيها: «**أثبتت الحفريّات التي تمّت في بابل عام ١٨٨٣، وجود** (Ummischigedia)**، ولعلّها تكون هي بذاتها أمغاشيا**: Wellhausen, Prolegomena, 41». أما السّكان الذين أبيدوا على بكرة أبيهم، فلم يتفوّه بكلمة واحدة في حقهم، لم يستنكر، لم يدن، فالرجل من كثرة حرصه على الدقة الطوبولوجيّة، يلتجئ إلى الحفريات لتحديد مكان المجزرة، وتتوقف الدقة هنا.

لكن هذا المؤرخ الحاذق، الساهر على ذكر التفاصيل، نسي أو تناسى أن يورد الخبر بدقة، ويصف ما فعله خالد في مدينة ألّيس حيث أقسم بأن يقوم بمجزرة لو تمكّن من هزم الجيوش العربية والفارسية. في

---

(١) هشام جعيّط، الكوفة. نشأة المدنية العربية الإسلامية، جماعة الدراسات العربية في التاريخ والمجتمع، الكويت ١٩٨٦، ص٣٣.

(٢) ن. م، ن. ص.

الحقيقة خالد قايض ربّه، إن نصره فسيُسيل دماء العرب أنهارا. كتَب الطبري: «وقال خالد: «اللهمّ إن لك عَليّ إن مَنَحتَنا أكتافهم ألاّ أستبقيَ منهم أحداً قَدرْنا عليه حتى أُجرِيَ نهْرَهُم بدمائهم»»[1]، فسمع ربّه لندائه وحقق أمنيته، فما كان من خالد إلاّ أن وفى بوعده وأقام وليمة التقتيل وإسالة الدماء أنهاراً: أمَر بأسر المهزومين وتجميعهم في كتلة واحدة، وأن يَمتنعوا عن قتلهم مُتفرّقين، إلاّ من قاومهم، ثم أمَر بتَصفيفهم كلهم على حافة النهر، بعد أن سدّ المنافذ ومَنعَ تدفّق المياه، وذبحهم كي تَسيل دماؤهم في مجرى النهر وهكذا يَبرّ يمينه. ولقد رأينا بالصورة مشهداً مماثلاً عندما أسالت داعش دماء الأسرى المصريين الأقباط وأجرت دمهم في البحر. إن أكثر من اطّلع على تاريخ الإسلام في أدق تفاصيله هم الإرهابيون المسلمون، ومن الأكيد أنهم اتخذوا هذه الفعلة لخالد كنموذج للقيام بأعمالهم الإرهابية. وإليك تتمّة القصة كما يرويها الطبري: «أمر خالد مُناديه، فنادى في الناس: الأسرَ الأسرَ! لا تقتلوا إلاّ مَن امتنع؛ فأقبلت الخيول بهم أفواجاً مُستأسَرين يُسَاقون سَوْقاً، وقد وكّل بهم خالد رجالا يَضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم يوما وليلة، وطلبوهم الغد وبعد الغد؛ حتى انتهوا إلى النّهرين، ومقدار ذلك من كلّ جوانب ألّيس. فضرب أعناقهم»[2]. أربعة أيام تواصلت وليمة التقتيل الفظيعة ولم يَجر الدم كما وعد ربّه لأن هذا القاتل يجهل كل المعارف البديهية إلاّ القتل، فهو لا يعلم ما يعلمه كل إنسان بالتجربة،

---

(١) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج. ٣، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٢، ص٣٥٦.

(٢) ن. م، ص٣٥٦ ـ ٣٥٧.

أن الدم حين يَمرق من الجسد يفقد لُزُوجَته ويتخثّر بعد دقائق، وهذا ما يعلمه مساعدوه الذين سئموا من التقتيل فقالوا له: «لو أنك قتلتَ أهلَ الأرض لم تجر دماؤهم؛ إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق منذ نُهيت عن السّيلان، ونُهيت الأرض عن نَشف الدماء، فأرسِلْ عليها الماء تَبرَّ يمينك، وقد كان صدّ الماء عن النهر، فأعاده فجرى دما عبيطا، فسمّي نهر الدم لذلك الشأن إلى اليوم»[1].

لم تنته سخرية هشام جعيّط بالقارئ، ولم ينته حَفل التقتيل. لقد كرّر خالد نفس عملية الإبادة الجماعية مع أهل الحيرة، وقال مؤرخنا، وكأنه يصف نزهة في بستان «تمّ الاستيلاء على الحيرة **بنفس العنف**»[2]، يعني بالتقتيل الجماعي؛ أما حصار الحيرة المروّع ثم اقتحام حصونها الذي أسال فيه خالد أنهاراً من الدماء وقتل المسيحيين على بكرة أبيهم، مثلما يحدث الآن وتقريبا في نفس المكان من العراق، فإن جعيّط يروي لنا الحوادث بكل أريحية «نشبت المعركة ودخل الجيش البيوت والأديرة، **وبدأ التقتيل**». فعلاً، بدأ التقتيل وأصبح لعبة تسلية في أيدي المخدَّرين المسلمين «**وتجدّد نفس المشهد تقريباً في كل مكان: الشروع في التقتيل** بالمدينة الملاصقة للقلعة، واستسلام المدافعين عن الحصن». لقد عاث هذا الجنرال في العراق خرابا، مثلما يحدث الآن وبالتدقيق على أيدي الإسلاميين مرتزقة الموساد «كانت عبارة عن **هجمات عنيفة طلباً للغنيمة والتخويف، وقد ذهب ضحيّتها عرب الضاحية**»[3]. ومَن هم ضحايا

---

(١) ن. م، ص٣٥٧.

(٢) هشام جعيّط، الكوفة. نشأة المدنية العربية الإسلامية، م. س، ص٣٤.

(٣) ن. م، ص٣٥.

داعش الآن؟ من هم إن لم يكنوا العرب العراقيين والسوريين؟ «فقُتّلت النّمر وتغلب وأياد في عين التمر داخل الحصن [وهي قبائل عربية]»[1]. وهنا تتنزّل مجزرة سبايكر التي حدثت منذ أشهر في العراق، نفس التقنية ونفس الطريقة، والصحفي هشام جعيط ينقل لنا الخبر بكل موضوعية وتجرّد: «**وقع تقتيل الأسرى العرب**»، هكذا بكل برودة دم، ويجب التذكير أن هؤلاء السفّاحين هم، في نظر جعيّط، أناس ذوي قضيّة، خرجوا لنشر دين الرحمة.

إن من أراد أن يشاهد فلم رعب، ومن يَقوى على رؤية أنهار من الدماء، أطراف مقطّعة ورؤوس مُتدلّية وأسرى مصلوبين فعليه بهذا الكتاب الذي كتبه جعيّط بالفرنسية ونال به شهادة الدكتوراه. ولكن إذا فتحنا كتاب آخر، دائماً في مادة التاريخ، فسنقرأ بالمثل أشياء مرعبة، مجازر لا تنتهي وهذه المرة حدثت في تونس. لقد استوقفني التركيز المكثف في كتاب جعيّط على البعد المادي الحربي من الدعوة المحمدية، وكيفية وصفه للمسلمين الأوائل على أن فضائلهم الأخلاقية هي الشدّة والغلاظة، وهمومهم الوحيدة هي بطونهم وفروجهم. انظر مثلاً كيف يصوّر وحشية الفاتحين الأوائل الذين وصلوا إفريقية في كتاب «تأسيس الغرب الإسلامي» حيث يتوسّع طوال صفحات عديدة في وصف معارك وغزوات ونهب وسلب: «بعد انتصارهم لم يتوان العرب عن القيام بعمليات النهب، إذ كنست فصائلهم بلاد مزاق (Byzacène) وطالت حدود واحات الجريد الثرية. وتَوجّب أخيراً على القادة

---

(١) ن. م، ن. ص.

البيزنطيين أن يقدّموا ثمنا لخروج الغازي العربي تَمثل في غرامة حربية ثقيلة قدّرت بـ ٢٥٠٠٠٠٠ دينار أي ٣٠٠ قنطار من الذهب»[١]. وفي موضع آخر يواصل وكأني به يتلذذ بالعنف، ويثني على هذه الأعمال الشنيعة وعلى من قام بها، زاعما أن الإنسان الحربي له رؤية واضحة للأشياء: «ولهذا أشار الإخباريون العرب والبيزنطيون معا إلى **المذابح** التي أُحدثت في صلب المسيحيين ـ وخاصة دون شك في صلب الأفارقة ـ وذكر لنا أن البربر، من شدّة ما أصابهم من **الرعب** اعتنق أغلبهم الدين الجديد. كان كل شيء، يدل إذن على أن قدوم عُقبة تزامن مع نوع من التشدّد في الأساليب العربية التي يفسّرها بسهولة عنف الرجل **ووضوح الرؤية التي كانت لديه عن مهمّته ودوره**»[٢].

وماذا يفعل الآن أشبال عقبة ابن نافع التونسيون الذين يعيثون في الأرض فساداً، يقتلون الجنود ويُمثلون بهم، ويجزّون رؤوس الرعاة في القرى المجاورة للجبال؟ إنهم يكرّرون ما فعله أجدادهم الأوائل حرفياً، وقد سمّوا كتيبتهم الإرهابيّة باسمه، إحياء لذكراه وتَيمّنا به. على أية حال: النهب والسلب والمجازر متواصلة على كامل طريق الفاتحين العرب القدامى، إلى درجة أن السكّان العزّل سلّموا أمرهم لله وتركوهم يعيثون في بلادهم تخريباً وتدميراً. وهذا المؤرخ التونسي يوضّح لنا الإشكالية ويدقق في الأحداث، لكنه في النهاية يناصر الإرهابيين المسلمين ويتعاطف معهم: «لتوضيح مشكل المقاومة، لا بد من ملاحظة أن العرب **ما داموا ينحصرون في غزوهم على النهب** وعلى

---

(١) هشام جعيط، تأسيس الغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٤، ص١٦.

(٢) ن. م، ص١٩.

إخماد الفتن بمنطقة طرابلس وإفريقية بحصر المعنى، **لم تكن توجد تقريباً قلاقل من الجانب البربري. فقبائل الجنوب كلواتة وهوّارة ونفوسة، لم تحرّك ساكنا بالرغم من نهب بلاد الجريد، ورغم فرض جباية ثقيلة على لواتة**»[١]. حسب جعيط، القائد عقبة ابن نافع شنّ «**معارك عنيفة** أمام أذنة، المدينة البربرية الموجودة في الزاب، دون أن ينجح في اقتحامها، **فقام فيها بعدة مجازر وجمّع غنيمة عظيمة من الخيول**...ثم اتجه في مرحلة أخيرة إلى السّوس الأقصى وهو بلد قبائل معهودة التي **أسر منها عدداً كبيراً من النساء**»[٢].

غزوات، نهب، مجازر، سبي، عبودية هذه هي الصورة التي رسمها لنا جعيّط عن المسلمين الأوائل، وهي الخصال التي لفتت انتباهه لأنها الوحيدة الموجودة في كتب التاريخ ولا نملك غيرها، لا غرابة إذن في كونه يتبنّاها بقضّها وقضيضها ويُمعن في تكرارها بصيغة تكاد تكون شبقية. النتيجة هي هذه: مجموعة من الجيوش العرمرم مكوّنة من لصوص وقطاع طرق هدفهم الأوحد هو إشباع نهمهم المادي والجنسي، انقضّوا على أناس مسالمين في عقر دارهم وساموهم سوء العذاب. فكما لو أن الدين الجديد لم يَبثّ فيهم أي إحساس بالرحمة ولا ولّد فيهم أي تعاطف مع الخلق، بل هي الحرب وسفك الدماء.

كل تاريخ الإسلام مسطّر بالدماء، دون هوادة أو انقطاع ومنذ الوهلة الأولى، كما ركّز على ذلك جعيط وكما برهنتُ من خلال صريح نصوصه. وعلى أساس هذه النظرة الحربية لنشأة الإسلام فإن الرجل

---

(١) ن. م، ن. ص. (التشديد من عندي)
(٢) ن. م، ص٢٣.

صوّر مشروع أبي بكر ومشروع عمر ابن الخطّاب على نفس الشاكلة، بل في فترة ما ألقى مسؤولية الفتح على الله، طبقاً لتصوّر المسلمين، جاعلاً منه أول محارب: «والفتح ذاته لم يحصل باسم الدولة، بل في سبيل الإسلام والمسلمين. التعالي كان متعلقاً بالله وحده، وليس بالدولة، **وكان الله هو الذي يهب للمسلمين فتوحاتهم وأراضيهم**»(١).

عمر بن الخطاب واصل لصوصيّة أبي بكر: «**ماذا فعل عمر وماذا كان يقدر أن يفعل؟**» يتساءل جعيّط. كان بإمكانه أن يُشيّد مساكن للفقراء، ومدارس للتعليم وأن يَبني مستشفيات ويستقدم أطباء ومختصّين، أن يُعبّد الطرقات ويُقيم مجتمعاً ديمقراطياً عادلاً، رافعاً من مستواه الفكري والروحي. لكن هذه أبعد الخيارات على ذهن الخليفة الثاني، وأقصاها على مدارك جعيّط. الشيء الوحيد الذي كان بمقدور عمر أن يفعله، حسب رأيه، هو «**أن يتمادى على ما سنّه أبو بكر، ... بمعنى أن يسهر على اعداد آلة الحرب**»(٢). وفي الأثناء قام هذا الخليفة بعملية تهجير جماعي كما يفعل الإرهابيون في سوريا «لقد عمل عمر بهذا على تطابق الدين الإسلامي وشبه جزيرة العرب، فطرد من بلاد العرب كل من لم يكن إسلامياً»(٣). جعيّط لا يرى أيّ ضير في هذه التصرفات العنصرية ضد المسيحيين، ولا في اللصوصية الشاملة التي تَفتّقتْ مع الغزاة المسلمين، بل يوافق عليها ويُبرّرها: «الجوع والبحث عن الأراضي الجيّدة، واستياق القمح واللحم، **والرغبة في النساء**

(١) هشام جعيط، الفتنة، م. س، ص٧٢.
(٢) هشام جعيّط، الكوفة. نشأة المدنية العربية الإسلامية، م. س، ص٣٧.
(٣) ن. م، ص٤٥.

والأطفال.. كل هذا الذي نستشفه لدى الطبري... **يبدو مقبولا** إذا أرجعناه إلى الفترة المبكّرة حتى ولو دُوّنت الروايات في القرن الثاني من الهجرة»[1]. إنها لصوصية شاملة، كما قلت، لم تترك شيئاً إلاّ واستحوذت عليه وسلبته من أهله، بما في ذلك - والكلام لجعيّط - النساء والأطفال.

من مؤرّخ إسلاموي إلى خبير باستراتيجيا الحرب، وحبّذا لو كانت تلك الحرب رابحة، فهو في جميع كتبه التاريخية لا يفوّت الفرصة للتعريج على المعارك الطاحنة والاشادة بأيّام المسلمين المجيدة حيث كانت الفضيلة تساوي كم عدد من الرؤوس قطعت. في كتابه الأول الذي نال به الدكتوراه سنحت له الفرصة لكي يتوسّع في وصف المعارك وكأنه خبير استراتيجي «لنتعمّق في الأمور عن كثب. لقد دامت المعركة أربعة أيام وليلة: يوم أرماث، ويوم أغواث، ويوم عماس، وليلة الهرير، ويوم القادسية»[2]. يحيطنا علما بالسُّنن الإسلامية للحرب الفتّاكة التي تُغنمُ فيها ليس النساء والأطفال فقط وإنما الرجال أيضاً: «.. لأن عدداً كبيراً من الفلاحين فرّوا أمام تقدّم الجيش. وحسب السنن العربية للحرب فالأرض والرجال (وفي أسفل الصفحة كتب: روى الطبري أن نصيب كل مقاتل كان ثلاثة رجال) تُعتبر غنيمة يقتسمها المقاتلة». وهل خالفوا دينهم؟ هل عارضوا قرآنهم؟ هل خرجوا عن سنة نبيّهم؟ إطلاقاً، حسب جعيطّ، القرآن ينصّ «على أن كل ما أخذ عنوة يُعتبر غنيمة تُسلّم أربعة أخماسها إلى المقاتلة والخمس الباقي يسلّم إلى الله ورسوله يعني

(١) ن. م، ص٥١.
(٢) ن. م، ص٥٨.

الخليفة (وفي أسفل الصفحة، يحدّد كيفية تقاسم الأسلاب بأكثر دقة: «**لا يُميّز القرآن بين الأموال المنقولة والعقارية**، سورة الأنفال، الآية ٤١، بل عمر هو الذي ميّز بينها»)»[١].

تصوّروا هذا الخَور: **الله + الرسول = الخليفة**، يعني خالق الكون والمجرّات والنجوم ذات الأحجام المتوسطة والعملاقة والثقوب السوداء والكوازار والسوبرنوفا والنجوم النابضة (بولسار) والنّيازك ومليارات الكواكب، أقول هذا الإله العظيم يُوزَن بِوَزْن رجل عاش في مكان صحراوي لا نعلم عنه أي شيء، ما عدا أنه جَزّ رؤوس مُرتدّين عَرب في القرن السابع ميلادي. العقل الإسلامي هو عقل مريض حقّاً لا شفاء له إلاّ بالخروج من الدين، إلاّ بلفظه نهائياً، وعدم الالتفات إليه بتاتاً، والندم على ما فات من حياة تعيسة في كنفه.

لم يكتف مؤرّخنا بهذا بل، لكي يكون أكثر جدية وإحاطة بالموضوع، يُمعن في وصف الغنائم وتبريرها بنصّه المقدّس: «**ويحدّد القرآن الفيء كهِبة من الله** لم يكن من اللازم أن يحصل قتال من أجله ولذا فهو يعود كاملاً إلى الله ورسوله». يعني أن الله يُعطي ويأخذ في نفس الوقت، الله في صورة لصّ تعيس قاتل متعطّش للدماء. لم يخالفوا سيرة نبيّهم لأن الرسول فعل ذلك، حسب مؤرخنا: «**ومن المعلوم أن النبي استولى على أموال بني النظير لمساعدة المهاجرين المعوزين، إذ اعتبرها فيئا**»[٢].

ألم يفعل إرهابيو سوريا، والذين معظمهم من تونس، هذا العمل

(١) ن. م، ص٨٤.

(٢) ن. م، ن. ص.

اللّصوصي؟ ألم يُسفّر إسلاميو تونس وأئمة المساجد الوهابيين، الشبان التونسيين إلى سوريا؟ ألم يُثن عليهم جعيّط ويَمدح أميرهم راشد الغنوشي، الحاكم الفعلي لتونس، والمسؤول الأوّل عن الإرهاب؟ الشعوب العربية لا ينبغي عليها أن تهتمّ بتطوير العلوم والتكنولوجيا ولا بِتَبنّي العقلانية والتنوير، أو الالتزام بإرساء ديمقراطية علمانية، المهمّ والعاجل هو إعلاء كلمة الدين وتطبيق شرع الله. أما الصراع مع الصهيونية فهو مغالطة كبرى لأن الصهيونية، وهذا الكلام لم يجرئ على قوله، لا برنار لويس ولا مكسيم رودنسون الذي دوّن في «الموسوعة الكونية» الفرنسية مقالاً فظيعاً عن الصهيونية(١)، ولا حتى عميل الموساد عزمي بشارة، أقول لم يصل إليه أحد إلاّ الدواعش والنّصرة الذين يتلقّون العلاج داخل المستشفيات الإسرائيلية، والذين يقطعون رأس كل من يدعو إلى تحويل الحرب من سوريا إلى إسرائيل. جعيّط سبقهم منذ خمسين سنة: قال بكل أريحية ودون وخزة ضمير إن الصهيونية لها شيء من المشروعية التاريخية والأخلاقية، تصوّروا الصهيونية لها أخلاق، في الوقت الذي صنّفتها الأمم المتحدة كشكل من أشكال العنصرية المعادية للبشر.

أما الصراع العربي الإسرائيلي، فقد اقتفى منذ زمان نهج داعش: تغييبه بالكامل، حيث أن الرجل في عام ٧٤ اعتبر الكفاح المسلح مَضيعة للوقت، عمل لا يفض المشكلة من الأساس، وبالتالي يجب الترقّب إلى أجل غير مسمى، وترك الأمور تسير في سياقها الطبيعي.

---

(1) Cfr, M. RODINSON, *Peuple juif ou problème juif?*, Paris, La Découverte 1997[2], pp.135-151.

اقرؤوا كتاب «إدارة التوحّش» مانيفاستو السلفية الجهادية، (وهو في الحقيقة مكتوب من طرف المخابرات الأمريكية ـ الإسرائيلية بالاعتماد على كتابات المَودودي وقُطب)، واقرؤوا جعيّط فسترون التناغم، على الأقل على المستوى السردي، وكثافة التوافق والانسجام بين الطرفين.

في كتاب **الشخصية العربية** الذي نشره بالفرنسية عام ١٩٧٤ يكتب بالحرف الواحد: «**في حدّ ذاته، المشروع الصهيوني له بعض الصّلوحيّة الأخلاقية والتاريخية**». النص الفرنسي يسرد كالآتي: «*En lui - même, le projet sioniste à quelque validité morale et historique*». المترجم العربي حاول التّخفيف من حدّة هذه الجملة فحوّر القسم الثاني من الإيجاب إلى السّلب: «**إن المشروع الصهيوني في حدّ ذاته لا يَنتفي عنه نوع من الوجاهة الأخلاقية والتاريخية**»[١]. أتحدّث هنا عن ترجمة عام ٨٤ ثم عام ٩٠، التي قام بها الدكتور المنجي الصيّادي، والتي عمَل المؤلف نفسه على التدقيق في النص المترجم وتنقيحه. لكنه لم يلمس هذه الجملة، وأبقاها على حالها، أما المترجم فسواء أحَوَّرَ القسم الثاني من السلب إلى الايجاب أو تركه كما هو فإن هذه الجملة لا تفقد إطلاقاً من فظاعتها.

لم يراجع أفكاره ولم يُنقّح هذه الجملة أو يحذفها حتى من الطبعة الجديدة الصادرة عام ٢٠٠٨ عن دار الطليعة حيث جاء في الصفحة ١١١ «**إن المشروع الصهيوني في حدّ ذاته لا ينتفي عنه نوع من الوجاهة**

---

(١) هشام جعيط، الشخصية العربية الإسلامية، م. س، ص٩٧.
. H. DJAÏT, *La personnalité et le devenir arabo - islamique*, Paris, Seuil, 1974, p. 119.

الأخلاقية والتاريخية»[1]. أنا لا أصدّق أن مفكّراً عربياً، في تلك الفترة بالذات أي بعد مرور سنة على حرب أكتوبر، يستطيع أن يكتب شيئاً من هذا القبيل. إن هذه الخاطرة تبدو لنا، مِن أيّ جهة قلّبناها، صوان المغالطة والتزوير والكذب، ذلك لأن الجميع يعلم، عرب وغربيّين ويهود حتى، أن الصهيونية في حدّ ذاتها هي النفي التامّ والمُطلق للأخلاق والتاريخ[2]. لم يكتف بهذه الخاطرة المفزعة بل إن جعيط يُبدي تحرّزاً وعدم ثقة بالمقاومة المسلّحة التي يسمّيها «المذهب الفلسطيني (*le palestinisme*)»، وربما لا يتعاطف معها، بل ويُهاجمها حتى. فالمقاومة الفلسطينية يعني المذهب الفلسطيني في قاموس جعيّط، «الذي يريد أن يثوّر كل العالم العربي، ضمن الأفق الوحيد الخاص بحلّ القضية الفلسطينية، هو تهرّب وطوباوية (*une élision et une utopie*)»[3].

مؤرّخنا لم يخصّص للفلسطينيين فقط هذه الضّربات المُربكة بل تعدّاها إلى المشروع الثوري العربي برمّته (*le projet révolutionnaire arabe global*)، يعني مشروع جبهة المُمانعة والتّصدّي الذي «يريد حلّ قضية إسرائيل إثر ذلك بواسطة الحرب الشعبية كأداته». هذا المشروع

---

(١) هشام جعيّط، الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي، دار الطليعة، بيروت، (الطبعة الثالثة) ٢٠٠٨، ص١١١.

(٢) للتعمق في مواقف جعيّط السياسية، أحيل القارئ على كتابي: محمد المزوغي، منطق المؤرخ. هشام جعيط. الدولة المدنية والصحوة الإسلامية، منشورات الجمل، بيروت ٢٠١٤.

(٣) هشام جعيط، الشخصية العربية الإسلامية، الطبعة الثانية ١٩٩٠، ص٩٨، (مع تحوير بسيط. النص الفرنسي، ص١٢٠).

مستحيل، حتى وإن كان صالحاً في المطلق، مُتسعاً ومتماسكاً، ويبقى في العمق مشروعاً «طوباوياً» لأنه «صعب التحقيق ونتائجه غير ثابتة، وهو مؤلم ومتعسّف قطعاً»(١). المقاومة الشعبية متعسّفة! هذا الخطاب لم نسمعه إلاّ بعد معاهدات أوسلو المهينة، لكن جعيّط استبق بعشرات السنين خطاب الانهزاميين الذين يطالبون الفلسطينيين بإلقاء سلاحهم والتخلي عن المقاومة المسلحة والجلوس إلى طاولة المفاوضات العبثية، والنتيجة أمامنا الآن: ابتلاع فلسطين كلها في بطن الدولة الصهيونية. ولكن في مقابل المقاومة العلمانية الشيوعية فهو يتأسف على إعدام القضاء المصري لأخطر إرهابي في العالم، سيّط قطب، ويهاجم عبد الناصر من أجل هذه الفعلة، ويقسو على بورقيبة لأنه أخرج تونس من ظلمات الشريعة إلى نور الحداثة.

معلوم ومؤكد أن القوى الغربية تسعى الآن بكل مُكر إلى خلق حالة توتّر بين تونس والجزائر، تكون ذريعة للانقضاض على ذاك البلد كما فعلت مع ليبيا. البداية يجب أن تكون بتكثيف الدعاية الصحفيّة والاشاعات المغرضة وبالعمل على تذكية الحقد بين الشعبين واستثارة النعرات القومية والطائفية، عن طريق رسم صورة منحطة للجزائريين. وحتى في هذه النقطة الخطيرة جدّاً التي ستؤدي حتماً إلى خراب شمال إفريقيا كله، بما فيها بلده تونس، فإن جعيّط كان السبّاق. إن كتاب **الشخصية العربية الإسلامية**، هو الخزان الكبير الذي عبأ فيه جعيّط كل أحقاده واهاناته وأظهر فيه إسلامويته بصورة مكشوفة لا لبس فيها. بخصوص موضوعنا، نقرأ في الصفحات الأولى من الكتاب أن

(١) الشخصية العربية الإسلامية، ن. م، ص٩٨.

التونسيّين ابتعدوا عن التقاليد العربية الإسلامية وأن هذا الابتعاد ترافق «بتخلّق شبه تامّ **بنمط العيش الفرنسي**، أعظم بكثير في أوساط البرجوازية التي عُرفت بأنها متطوّرة في عهد الاستعمار»(١). ثم طفق يشرح هذه «الظاهرة» ويُشير بأصبع الاتهام للجزائريين، الذين فرّوا من نير الاستعمار واحتموا بتونس؛ يتّهمهم بإدخال «الفَرْنَسة» لتونس، وهكذا تفشّت العدوى في المجتمع التونسي. قال إن الأوساط التي تخلّقت بنمط العيش الفرنسي كانت «**من أصل جزائري بصورة عامّة**، بحيث يرجع تمثّلها للأنماط الغربية إلى عهد قديم إذ بدأ في الجزائر دون شكّ»(٢).

إن جعيّط لا يصف وضعاً سوسيولوجياً قائماً، أو حالة نفسية سارية ومعمّمة على أرض الواقع وإنما يختلق ضغائن وأحقاد تعتمل في ذهنه وعبّر عنها منذ الثمانينات من القرن الماضي. يتهكّم على الجزائريّين ويتهمهم بأنهم فقدوا شخصيتهم الإسلامية وذابوا كليا في «الفرنسة» حاملين معهم جرثومة ذوبانهم إلى تونس: «**ما هي القوة التي بلغها النسيان حتى يُحققوا في وطن غير وطنهم تماثلهم بالمُعتدي عليهم، لا سيّما أن بعضهم فرّوا من الاستلاب الذي فرضه الاستعمار على بلدهم؟**»(٣). إن خطاب جعيط على الجزائريين، في تلك الفترة، بعد حرب التحرير وبعد نيل الاستقلال، يختزن شحنة خطيرة من التعسّف والطائفية. فذاكرته المريضة جعلته يقول إن الجزائريين الذين دخلوا

---

(١) ن. م، ص١٨ ـ ١٩.
(٢) ن. م، ص١٩.
(٣) ن. م، ن. ص.

لتونس منهم مَن «فرّ من العسف الاقتصادي الاستعماري، **ورضي بالتطبيع بنمط العيش الفرنسي**. وكان آخرون أكثر حداثة وهم من المعلّمين المؤيدين للمثل العلمانية. **كانوا من المبشرين «بالرقيّ»** (*missionnaires du progrès*)، فانفصلوا عن القيم الأهلية. وقد أسهم وضعهم الرفيع الذي ماثلهم بالفرنسيين في تونس، **في الزيادة في ارتمائهم إلى جانب المستعمرين، فكانوا يسلكون سلوك المستعمر تجاه التونسيين»**[١].

الجزائريون يستعمرون التونسيين، قالها جعيط في الثمانينات، الجزائريون هم الذين قتلوا جنودنا في جبل الشّعانبي، هذا ما يقوله ويردّده الإسلاميون من ٢٠١١ إلى اليوم. وهذه الدعاية كلّها التي يبثها إعلام الإخوانجية هدفها هو خلق أجواء توتّر بين البلدين وبث حالة من التخوّف الشامل ومن الكره تجاه الجزائريّين، وهكذا يتسنّى لهم تهيئة الرأي العام لقبول التدخّل الأجنبي. لكن جعيّط سبقهم منذ نصف قرن إلى هذه اللعبة، فتخويف الشعب التونسي من الجزائريين موجود بالحرف في كتابه «الشخصية العربية الإسلامية»، والطائفية موجودة، والتعبئة ضد شقيقنا المتآمَر عليه موجودة أيضاً، وهاكم النص: «كان **خطراً على بقاء الشعب التونسي** (*dangereux pour la survie du peuple tunisien*) أن يَتحمّل هؤلاء وظائف قياديّة داخل الدولة، وفي مجال الدين والثقافة. فلم يَدْعُهم المستعمر... إلى تأطير المجتمع، بل إنهم اقتصروا على المِهَن الحرّة، فبَقوا أحراراً من كلّ علاقة، **وعاشوا على**

---

(١) ن. م، ن. ص.

هامش مجتمع كانوا يحتقرونه وكان يحتقرهم (*en marge d'une société qu'ils méprisaient et qui les méprisait*)»[1].

هذا الخليط من العنصرية والطائفية المفضوحة، ليس غريبا عن الإسلاميين، فهم جُعلوا لذلك، ومهمّتهم الأساسية هي تخريب الأمم ومَحو الحضارة. من يوم أن قدم الإسلاميون إلى تونس وافتكوا زمام الحكم، وهم ينشرون الحقد بين التونسيين والجزائريين، ففي كل مرّة قام إرهابيون بقتل جنود تونسيين، حتى تخرج الدعاية النهضوية وتقول إنهم أفراد من جنسية جزائرية، قدموا من الجزائر، وهناك تواطؤ بين الحكومة الجزائرية والإرهابيين. وهذه كلّها مقدمات ضرورية لإثارة النعرات القومية الشوفينيّة، وتصعيد مشاعر الكراهية، لتهيئة الرأي العام كي يقبل بتدخّل الناتو لحماية حدودنا، ومنها للهجوم على الجزائر.

الكل رأى بالصوت والصورة كيف أن وحوش داعش يَسبُون النساء العراقيات والسوريات ويبيعونهن في سوق النخاسة. لم يأتوا بجديدٍ، لقد شرّع لهم جعيّط منذ عشر سنوات تقريباً وبرّر لهم ضمنياً أفعالهم المشينة هذه. وهم في الواقع لم يفعلوا شيئاً آخر غير تطبيق ما وجدوه في السيرة والقرآن. ولقد عرّج المؤرخ التونسي على ظاهرة السّبي في كتابه *تاريخية الدعوة المحمدية في مكة*، وذكر تلك الشناعات التي قام بها المسلمون، دون أن تستفز مشاعره أو تَقتلع منه ولو ذرة استنكار، بل اكتفى بالقول: «إنما الغزوات التي أشعلها الإسلام، **استعادت ظاهرة السبي**»[2] التي لم تكن سائدة ومنتشرة في عهد الجاهلية، وهكذا اعترف

---

(١) ن. م، ن. ص.

(٢) هشام جعيّط، في السيرة النبوية ـ ٢. تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، دار الطليعة ـ بيروت ٢٠٠٧، ص٨٢.

هو شخصياً، رغم تعصّبه للإسلام، بأن الجاهلية كانت أكثر تحضراً وإنسانية وأقل همجيّة منه. ثم فسّر هذا العمل البربري الوحشي، بأنه «**إلغاء أية وضعية سابقة للمرأة من زواج وغيره، واستحلال جسمها من دون قانون ومن دون قيود. والمرأة تدخل فيما بعد في وضعية الإماء «ممّا ملكت أيمانكم»، كما يقول القرآن، و«نكاح بدون خطبة»**»[١].

هكذا يروي لنا هذا المؤرخ، الشرس في نقد المستشرقين والمُدافع حتى الموت عن الإسلام، أعمالاً همجية لاإنسانية، بكل أريحيّة ودون أن يرفّ له جفن أو تُستثار إنسانيته أو يتفكّر حتى في استتباعاتها الأخلاقية. إن جملة: «**إلغاء أية وضعية سابقة للمرأة من زواج وغيره**»، يمكن أن تصبح، عن جدارة، علامة مكتوبة على لافتة سوق النخاسة في المَوصل، مرفوقة بآية «**مما ملكت أيمانكم**». في كتابه الأخير «مَسيرة محمد في المدينة» الصادر هذه السنة عن دار الطليعة كتب بكل أريحية إنه بعد مجزرة بني قريظة: «إنما **بِيعت النساء والأطفال** لأهل المدينة، إما لقبائل نجد وإما في الشام. وسيجري استعمال مال البيع في شراء أسلحة وخيول، الأمر الذي سيُعزز وضع محمد العسكري». تصوّروا أنه كتب «**بِيعَت النساء والأطفال**» بالبند العريض وكأنه يتلذّذ بهذه اللاإنسانية، وكأنه يريد أن يؤكد للذين يخجلون من نبيّهم، ويريدون بكل الطرق إبعاده شبح الوحشية، يقول لهم لا تخجلوا فهي أعمال عادية بل ضرورية لتعزيز وضع محمد ودينه، فعلاً: «الأطفال الذين بقوا مع أمهاتهم **كعبيد** في المدينة، سوف يُوسَمون بمَيْسم الإسلام،

---

(١) في السيرة النبوية ـ ٢، ن. م، ص٨٢.

ويصبحون مسلمين»[1]. لا تهمّ الطريقة ولا الأسلوب، ولا تَهمّ حالة العبودية التي عانوها، ولا يهم قتل آباءهم وبيع أمّهاتهم، المهمّ والأساسي بالنسبة إليه هو الدخول في الإسلام ولو على جماجم آلاف الناس.

أنا لا أدري من أين جاء هذا الفيروس الذي ضربَ تونس وأهلها؛ هذا المرض العظال الذي نَخَر نسيجها الاجتماعي بالكامل، وتسرّب إلى مفاصل الثقافة والإعلام بحيث إننا نجد التكفيري السلفي جنباً إلى جنب مع المثقف الأكاديمي، وكلاهما يخوضان نفس المعركة بأسلحة مختلفة. هناك الإمام الذي يدعو الشباب للذهاب إلى سوريا والعراق، ويُحبّب لهم الشهادة ويَعِدهم بالحوريات الجميلات، ويقول لهم إن هذا الجهاد هو فرض عين على كل مسلم (في سوريا وليس في إسرائيل)؛ وهناك قيادات من الحزب الإخواني، حزب «النهضة»، وهو في الحقيقة حزب النّكبة بأتم ما لهذه الكلمة من معنى، عميل لبريطانيا وأمريكيا، يشترون الشبان بالدولار للقتال في سوريا، ويرسلون فتيات تونسيات لجهاد النكاح؛ مساجد تستقبل الدعاة الوهابيّين الخليجيين ومهمّتهم هي حشد أكبر عدد من التونسيين المرتزقة خرّيجي السجون لمقاتلة الجيش العربي السوري. وفي الجهة الموازية ترى فريقاً من المثقفين المشاهير، الذين من المفروض أن يكونوا منارة وقدوة للوعي الجمعي وأن يُجسّدوا أسمى معاني القيم الأخلاقية والعلمية، وإذا بهم يُحسّنون صورة الإرهاب، بل ويدعون إليه جهاراً مثل أبي يعرب المرزوقي الذي ملأ

---

(١) هشام جعيّط، مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام، دار الطليعة، بيروت ٢٠١٥، ص١٣٣.

الدنيا بمواعظه الإرهابية وساهم في ارسال مئات الشباب لتقتيل السوريين. وهذا هشام جعيّط يُثني صراحة على الإرهابيّين، ويقول إن بين الانتحاريين الذي يفجّرون أنفسهم في سوريا، وبين الشبان الذين يسافرون إلى أوروبا بطريقة غير شرعية هربا من الفقر، والذين قد ينتهي بهم الأمر إلى الغرق في البحر، هناك فرق كبير. وهذا الفرق يتمثّل في أن الانتحاريّين، يعانون من فراغ روحي، فيغامرون بأنفسهم « **من أجل البحث عن هدف أسمى**»[١]، والمهاجرون الفارّون من الفقر والحاجة هم مُغيّبون لأنهم يتوقّعون «أن الخلاص موجود في أوروبا التي يتصوّرونها جنّة، وهو واقع في وهم كبير». لا وجه للمقارنة إذن بين الإنسان المسالم الذي يبحث عن لقمة العيش وبين الانتحاري الذي يفجّر نفسه في سوق في حلب أو أمام روضة أطفال في البصرة: «هناك فرق بين من يلقون بأنفسهم طُعما لأسماك البحر وبين من لديهم فكرة يعملون على تحقيقها من خلال العنف والإرهاب»، والفرق هو أن الذي يلقي بنفسه يعيش في الوهم، والثاني لديه قضيّة، بل هو إنسان باحث عن هدف أسمى. إذا لم يكن هذا إجراماً، وتحريضاً على الإرهاب فلا أدري ما هو.

الهايدغاري التونسي فتحي المسكيني يزيد في تصعيد المفارقة من حيث إنه، على عكس جعيّط، يرفض أي فرق بينهما، أعني بين الإرهابي التفجيري وبين المهاجر الفقير. ورغم أن حركة «النّكبة» هي حركة إرهابية بأتم معنى الكلمة قامت وتقوم إلى اليوم بتسْفير آلاف الإرهابيين التونسيين للقتال في سوريا والعراق، فهو يقول إن الإسلاميين

(١) حوار هشام جعيط في العربي الجديد، م. س.

التونسيين «النهضويين» قد فهموا «**بأنهم أقرب إلى الليبراليين منهم إلى أي حزب ديني جهادي**». يُرجع التطرّف الإسلامي إلى الحداثة «**التطرّف جزء من ماهية الحداثة نفسها**»[1]، لا بل يُلصِقُه بالدولة، فعلاً، هو «**جزء من طبيعة العلاقة مع الدولة الحديثة وليس غريباً عنها**»، وإذا كان ذلك كذلك فإن تسفير الإرهابيين لسوريا الذي تقوم به حركة النكبة، يتمّ في رأي المسكيني «**لأسباب لا علاقة لها حصراً بالتطرّف الديني**»، في الوقت الذي كلنا يعلم أن هؤلاء القتَلة هم شرذمة من الإسلاميين المتطرّفين، المقتنعين بتَطرّفهم، وبأنهم في طريقهم إلى تحقيق مشروع الخلافة على منهاج النبوة، ويؤمنون بأن كل من قُتل منهم يصعد مباشرة إلى الجنة وتستقبله سبعين حورية.. إلخ. لكن الأكثر نكالا هو أن يزعم هذا الرجل أنه لا يَجِدُ «**فرقاً حقيقياً بين من «يحرق» إلى إيطاليا، ويموت غرقاً في البحر فيأكله سمك القرش، وبين من يهاجر للقتال في سوريا ويموت برصاص الحاكم الهووي للدولة الحديثة**». وهكذا فالمؤرّخ «يُتَحّي» والهايدغاري «يُزكّي»، كما يقول المثل التونسي، وكلاهما في نفس المستنقع، ولا واحد منهما شجب الإرهاب الإسلاموي صراحة أو انتقد الأشخاص والإيديولوجيات الحاملة للفكر الإرهابي.

الأكاديمية التونسية رجاء بن سلامة زادت هي بدورها في تصعيد الموقف وكتبت على صفحتها في فايسبوك إن بشار الأسد «قتل وشرّد ويقتل ويشرّد من السّوريّين أكثر ممّا تفعله داعش نفسها». مع كل المعاناة

---

(١) فتحي السكيني: دور الفيلسوف أن يصاحب الآلام الكبرى، لا أن يشرّع لها، حوار بمجلة «المجلة» السبت ١ مارس ٢٠١٤.

التي يعيشها الشعب السوري والشعب العراقي طوال خمس سنوات، مع كل الاعدامات بالجملة التي تقوم بها داعش والنصرة والكتائب الإسلامية الأخرى، مع كل السّبي والاغتصاب والذبح الجماعي والصلب في الساحة العامة والتهجير الجماعي للمسيحيين واليزيديين، فإن هذه المثقفة الأكاديمية تسمح لنفسها بتزوير أبسط الحقائق الملموسة التي يكفي نَقرة واحدة على موقع غوغل حتى نراها بالصوت والصورة.

أرأيتم المشهد المُزري والوضع البائس الذي نعيش فيه؟ أرأيتم كيف أن مثقفين مرموقين، من المفروض أن يكونوا مكتسبين لمناعة نقدية عالية ولوعي عميق بخبايا الإرهاب، ومعرفة دقيقه بالأطراف التي وراءه، وإذا بهم يُحسّنون صورته ويقلّلون من مخاطره أو يزوّرون حيثيّاته ومَعناه؟ وهذا كلّه يصب في صالح القوى الغربية الامبريالية والصهيونية العالمية التي تطلب المزيد من الإرهابيين، لحم المدافع، لكي تشن حروبها في أصقاع الأرض كلها. أنا أشجب الإرهاب ومن يحسّن صورة الإرهاب، ولا أدري حقّاً لِمَ لا يُقبَض على هذه الرهوط ويُحالون إلى العدالة؟ هناك في تونس كما في دول العالم أجمع قوانين ضد كل من يقوم بتبرير الإرهاب أو التحريض عليه، لماذا لا يُطبّق هذا القانون على الفاعل والمُحرِّض؟

أعود إلى جعيّط: كلّنا يتذكّر المجزرة الرهيبة التي حدثت بعد أسر طلاب القوة الجوية العراقيين من قاعدة سبايكر في يوم ١٢ حزيران يونيو ٢٠١٤ وذلك إثر سيطرة تنظيم داعش الإسلامي على مدينة تكريت في العراق. لقد أسّروا ٢٢٠٠ طالباً من القوة الجوية العراقية وقادوهم إلى القصور الرئاسية في تكريت وقاموا بقتلهم هناك وفي مناطق أخرى رمياً بالرصاص ودفنوا البعض منهم أحياء. المؤرخ التونسي هشام جعيّط

يُوفّر لهم القاعدة الإيديولوجية: في حديثه عن مجزرة بني قريظة، قال إن النبيّ «**حصل على استِسلامهم وأعدم عدداً منهم**»[1]. وقد تمّ ذلك على اثر نقض العهد والخيانة التي ارتُكبت في زمن الحرب (وهي في رأيي تعلّة للقيام بالمجزرة) ثم أضاف «**أن قرار النبيّ بوضع المقاتلين المحتملين على نطع السيف، كان قراراً من النمط السياسي**». وفقط لأنه كان قراراً سياسياً فلا يجب مساءلته أو استنكاره أو شجبه، لأن السياسة بالنسبة لجعيط هي الغلبة والقهر، هي مكيافليّة أو لا تكون. وفعلاً الوحشية التي استعملت ضد اليهود لا رادّ لها، بل هي محبذة: «**فقوانين الحرب في ذلك العصر تُحبّذ إعدام كل الراشدين**»[2]. ولا يجب أن نناقش أعمال محمد (ولا أعمال داعش) لأن، في رأيه، القول الحاسم هنا للقرآن وحده، والقرآن «**يرى أن العقاب بديهي في هذه الحالة ولا يحتاج الحَدَث إلى شروحات وتعليقات كثيرة**»[3]. وأُغلِق المِلفّ دون رجعة. وموتوا بِغَيْظكم.

أما المثقفون العلمانيون، أو المناهضون للدين، والنساء الديموقراطيات العلمانيات في تونس وفي العالم العربي ككل، اللواتي هن في محلّ تربّص وتهجم وتهديد بقطع رؤوسهنّ من قبل الإسلاميين فإن جعيّط يوفر لهم مرّة أخرى الذرائع والأسباب الموضوعية لكي يغتالوهن أو يقطعوا رؤوسهن أمام الملأ، دائماً انطلاقاً من كتبه حول سيرة محمد. أنا لا أبالغ ولا أتهجّم، أنا أعرض أطروحاته وأسْرد

---

(١) هشام جعيّط، مسيرة محمد في المدينة، ص١٣٣.

(٢) ن. م، ص١٣٤. ملاحظة، ١.

(٣) ن. م، ن. ص.

نصوصه وأقواله، فهو نفسه يَجُرّنا جرّا إلى هذا الاستنتاج لأن التاريخ بالنسبة إليه «**ليس مجرّد ذكر للأحداث، أو تحليلاً جامداً وجافاً.. وإنما هو تاريخ شمولي**»[1]. والتاريخ الشمولي يَعتني بالماضي لكي يُجيب عن تساؤلات الحاضر، يعني أن يُفعّل الماضي في الحاضر ويصبح له مرجعاً في الفكر والعمل: «**عندما أكتب هذا التاريخ القديم فإنني أصوغه لكي يُجيب عن أسئلة حاضرة وراهنة، وأريد أن يعطينا مفاتيح لفهم جذور الذات**»[2]. إذا كان الأمر كذلك فإن مصير العلمانيين والنسوة الديمقراطيات محتوم، لأن وضعهم كان قد حُسم منذ ألف وأربعمائة عام، والمسألة قد أجاب عنها محمد بطريقة جذرية بعد أن صار له التّمكين وأصبح سيّد يثرب (وضعيّة حاز عليها الإسلاميون اليوم في بعض المناطق من العراق وسوريا وليبيا، والسعودية كلها منذ عقود)، والمؤرخ التونسي يرويها لنا لكي نَتّعظ بها: «بعد النصر، ساد جوّ من الثأر تجاه أعداء محمد... مقتل كعب بن الأشرف، مقتل العصماء، ثم من بعدها مقتل أبي عفك»[3]. هذه الاغتيالات للمعارضين، سماها إعدامات، والأشخاص المَعدومين بسبب آرائهم سماهم «أعداء مُبينِين، يهود أو أصدقاء لليهود»[4]. اغتيل كعب ابن الأشرف لأنه قال أبيات شعر «حينما كان لاجئاً في مكة قال المَراثي البليغة في مقتل السادة القرشيين». ويَكفي أن يقول المَراثي حتى يُقطع رأسه. لكن صاحبنا تفطّن

---

(١) حوار مع هشام جعيّط، أجراه: عبد المجيد الجمني ـ حسن بن عثمان، مجلة الحياة الثقافية. تونس ـ السنة ٢١ ـ العدد ٧٥ ـ ماي ١٩٩٦، ص٣٨.

(٢) حوار مع هشام جعيط، ن. م. ن. س.

(٣) هشام جعيط، مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام، م. س، ص٩١.

(٤) ن. م، ص٩٣.

في خاتمة حديثه إلى أنه يقوم بتزوير فاضح للتاريخ (كما رواه المسلمون أنفسهم) وأنه يخرج عن المعايير الدنيا لرواية الأحداث، فأذعن وسمّى عمليّة اغتيال كعب بن الأشرف باسمها، أي «**قتل غدرا**»، لكن لا يعنيه هل غدر به المسلمون أم لم يغدروا، فهو عدو الله مات كلبا جيفة، ما يهمّه هو النتيجة: قطع رأسٍ يُفكّر، يشكّ، يتساءل وينقد الدين، واعطاء درس في الرعب للأصدقاء والأعداء والمخالفين والمُتردّدين: «كان **تأثير هذا القتل غدراً** ـ وهذا ما يجمع عليه الجميع، ومن ضمنهم العرب، وحتى المسلمون ـ **هائلاً عند يهود النضير وعموماً داخل المدينة**»[1].

وكأن جعيّط يستمتع بحالة الرعب والهلع التي عمّت المدينة، والاغتيالات المنظّمة التي قام بها نبيّ الإسلام. أما النسوة فلا يَنجِين من قبضة الانتقام، وهو الأمر الذي من شأنه ـ إذا طبّقنا جدلية جعيط وتصوّره للتاريخ القديم كمرجعيّة لفهم الحاضر والتأثير فيه ـ أن يقظّ مضاجع العلمانيات العرب. إذ أن مَثَل العصماء بنت مروان ما زال حاضرا، وقد أعاد احياءه جعيّط مرة أخرى في الوقت الذي تُطبّق فيه داعش كل شناعات السيرة التي رواها ابن هشام والتي قام هشام جعيّط بترجمتها إلى الفرنسية في مرحلة أولى ثم أعاد ترجمة المترجَم إلى العربية. «تبعاً لذلك **قُتلت العصماء، الشاعرة، في قلب عشيرة أمية بن زيد، وكانت الشخص الأكثر نفوذاً، في عشيرتها.. الناطقة بلسانهم**». لكن لو فتحنا كتب السيرة والأحاديث لما وجدنا أنّ قتل العصماء مبني للمجهول «قُتلت العصماء»، وإنما أمر مدبّر ومقصود من طرف نبيّ الإسلام (دائماً حسب كتب السيرة)، كما يصفه، ابن تيمية، أصدق

---

(١) ن. م، ص٩٤.

الإرهابيين في تاريخ البشرية: «إنه صلى الله عليه وسلّم أمر بقتل النسوة اللاتي كنّ يؤذينه بألسنتهم بالهجاء، مع أمانة لعامة أهل البلد، ولم يَستتب واحدة منهنّ حين قتل من قتل... وهؤلاء النسوة قُتِلن من غير أن يُقاتلن ولم يُستَتبْن، فعُلم أن قتل من فعل مثل فعلهنّ جائز قتله بدون استتابة، فإن صدور ذلك عن مسلمة أو معاهدة أعظم من صدوره عن حربيّة»[1].

المرأة المعارضة لمحمد، أو للإسلاميّين الحاليين، مآلها هو مآل العصماء: أن يُرسَل إليها شاب انتحاري، يفجّرها في الهواء وتتساقط أشلاء صغيرة على الأرض، جعيّط وكأنه يصادق على هذا الفعل الشنيع ويستمتع بهذه الوحشية، يورد أقوال حسان بن ثابت الذي «يَلعَنُها على أكاذيبها وأراجيفها، ويتباهى **بإقدام فتًى رفيع الصفات على جعلها تسبح في دمها، بعدما أراق دمها كماء الكلس**»[2].

إن جعيّط ليس بمؤرخ وإنما إيديولوجي، فهو يروي لنا هذا المقطع من سيرة محمد، دون توثيق، دون دراية، دون تعمّق ودون استخلاص نتائج. انظروا كتاب هادي العلوي «الاغتيال السياسي في الإسلام»، إنه أكثر دقة، أكثر تبحراً في النصوص، أعمق وأجلى من عرض المؤرخ التونسي، الذي يبدو وكأن تاريخه هو حديث مقاهي.

(١) ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، دار الكتب العلمية، بيروت [د. ت]، ص٣٤١.

(٢) هشام جعيط، مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام، م. س، ص٩٥.

المراجع

١ ـ **هشام جعيط**، أوروبا والإسلام، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠١.

٢ ـ ــــ، الفتنة، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٥.

٣ ـ ــــ، الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٨.

٤ ـ ــــ، في السيرة النبوية ٢. تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، دار الطليعة ـ بيروت، ٢٠٠٧.

٥ ـ ــــ، مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام، دار الطليعة، بيروت ٢٠١٥.

٦ ـ ــــ، الكوفة. نشأة المدنية العربية الإسلامية، جماعة الدراسات العربية في التاريخ والمجتمع، الكويت ١٩٨٦.

٧ ـ ــــ، تأسيس الغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٤.

٨ ـ سلوى بالحاج صالح ـ العايب، **المسيحية العربية وتطوراتها: من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي**، دار الطليعة، بيروت ط. ٢، ١٩٩٨.

٩ ـ **ابن جرير الطبري**، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٢.

١٠ ـ **محمد أبو ليلة**، محمد بين الحقيقة والافتراء. في الردّ على الكاتب اليهودي الفرنسي مكسيم رودنسون، دار النشر للجامعات ـ مصر ١٩٩٩.

١١ ـ **مكسيم رودنسون**، «الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا»، ضمن: الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٠.
١٢ ـ ــــ، «وضع الاستشراق المختص بالإسلاميات: مكتسباته ومشاكله»، ضمن: الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ٢٠٠٠.
١٣ ـ ــــ، «جاذبية الإسلام. المقدمة الثانية»، ضمن: **الاستشراق**، م.س.
١٤ ـ ــــ، «الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية»، ضمن: جوزيف شاخت ـ كليفورد بوزورث، تراث الإسلام، ج١، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٨.
١٥ ـ محمد المزوغي، **منطق المؤرخ. هشام جعيط. الدولة المدنية والصحوة الإسلامية**، منشورات الجمل، بيروت ٢٠١٤.
١٦ ـ ــــ، تحقيق ما للإلحاد من مقولة، منشورات الجمل، بيروت ٢٠١٤.
١٧ ـ **يوحنا النيقيوسي**، تاريخ العالم القديم، تحرير وتدقيق عبد العزيز جمال الدين، دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ٢٠١١.
١٨ ـ **لويس صليبا**، الإسلام في مرآة الاستشراق المسيحي، دار ومكتبة بيبليون، جبيل ـ لبنان ٢٠١٣.
١٩ ـ **علي حسني الخربوطلي**، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨.
٢٠ ـ **ابن تيمية**، الصارم المسلول على شاتم الرسول، دار الكتب العلمية، بيروت [د. ت]
٢١ ـ **أبو يعرب المرزوقي**، «مدلول التلقي الغربي المعاصر للإسلام»، مجلّة الحياة الثقافية، تونس، عدد ١٠٧ سبتمبر ١٩٩٩ ص٢٥ ـ ٤٢.
٢٢ ـ ــــ، «أخجلُ ممن يَعتبر جهاد الشباب التونسي في سوريا جرما»، جريدة السور، تونس، الأحد ١٦ جوان ٢٠١٣.
٢٣ ـ **رياض الصيداوي**، «بكل هدوء: ألا يجب محاكمة «الحبيب اللوز» و«أبو يعرب المرزوقي» بتهمة دعم الإرهاب عبر التغرير بشبابنا للجهاد في سبيل إسرائيل؟»، جريدة الشعب عدد ١٢٩٥ الخميس ٢١ أوت ٢٠١٤.

٢٤ ـ حوار مع الدكتور هشام جعيّط: الهوية تؤكد ذاتها.. ولا بد من غرس الحداثة فيها بقيمها العليا.. حاوره عبد الإله بلقزيز، المستقبل العربي السنة ٢٦، العدد ٢٩٤ أغسطس ٢٠٠٣.

٢٥ ـ حوار مع هشام جعيط، «موقفي من الطقوس الدينية»، مجلة الإذاعة تونس، عدد ١٦٧ ـ ٢١/٢/١٩٩٦.

٢٦ ـ حوار مع هشام جعيط، أجراه: صلاح الدين الجورشي مجلة «حقائق» عدد ٥٠٧ من ١٤ إلى ٢٠ جويلية ١٩٩٥، صص، ١٠ ـ ١٣.

٢٧ ـ حوار مع هشام جعيّط، أجراه: عبد المجيد الجمني ـ حسن بن عثمان، مجلة الحياة الثقافية. تونس ـ السنة ٢١ ـ العدد ٧٥ ـ ماي ١٩٩٦، ص٣٥ ـ ٤٤.

28 - ABEL, A., "Le chapitre CI du livre des hérésies de Jean Damascène: son inauthenticité", in *Studia Islamica* 19 (1963) pp. 5-25.

29 - BRUNSCHVICG, R., "Problème de la décadence", in *Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam*, Maisonneuve Larose, Paris, 1977, pp. 29-46.

30 - CAHEN, C., "Notes sur l'accueil des chrétiens d'Orient à l'islam", *Revue d'histoire des religions*, tome 166, n° 1, (1964), pp. 51-58.

31 - DANIEL, N., *Islam and the West*, Oneworld Publications, Oxford 2009.

32 - DJAÏT, H., *La personnalité et le devenir arabo-islamique*, Paris, Seuil, 1974.

33 - ---------, *L'Europe et l'Islam*, Paris, Éditions du Seuil, 1978.

34 - --------, *Europe and Islam*, translated by Peter Heinegg, University of California Press, California 1985.

35 - DUGAT, G., *Histoire des orientalistes de l'Europe du XII^e au XIX^e siècle*, 2 vol., Paris, Maisonneuve, 1868-1870.

36 - GABRIELI, F., *Orientalisti del Novecento*, Istituto per l'Oriente, Roma 1993.

37 - EUSÈBE, *Histoire ecclésiastique*, traduction française par Émile Grapin, Paris, Alphonse Picard et fils Éditeurs, 1911

38 - HORTEN, M., *Texte zu dem Streite zwischen Glauben und Wissen im Islam*, Bonn, Marcus und Webers Verlag, 1913.

39 - JEAN, évêque de Nikiou., *Chronique,*texte éthiopien publié et traduit par H. Zotenberg, Paris, Imprimerie nationale, 1883.

40 - JENKIS, J., ÂGerman Orientalism: IntroductionÂ in *Comparative Studies of South Asia, Africa and Middle East,* 24:2 (2004) pp. 97-180.

41 - KONTJE, T., *German Orientalism,* The University of Michigan Press, USA 2004.

42 - LE COZ, R., *Introduction* à Jean Damascène, *Écrits sur l'Islam,* Paris, Cerf, 1992.

43 - MAYNARD, Abbé., *Voltaire, sa vie et ses œuvres,* t. 2, Paris, Ambroise Bray, 1868.

44 - ORIGÈNE, *Entretien d'Origène avec Héraclide,* introduction, texte, traduction et note de Jean Scherer, Paris, Cerf, 1960.

45 - RODINSON, M., *Les Arabes,* Paris, PUF, 1979.

46 - -------, *Islam et capitalisme,* Paris, Seuil, 1966 (trad., it., *Islam e capitalismo,* Einaudi, Torino 1968).

47 - --------, *Peuple juif ou problème juif?,* Paris, La Découverte 1997[2].

48 - SAINT JÉRÔME, *Livre contre Vigilance,* in *Œuvres complètes de Saint Jérôme,* t. 3, Paris, Louis Vivès, 1878.

49 - SEBÉOS, *Histoire d'Héraclius par l'évêque Sebêos.* Traduite de l'arménien et annotée par F. Macler, Paris, Imprimerie nationale, 1894.

50 - TERTULLIANI, *Adversus Marcionem,* in ID, *Opera Omnia,* PL2, Parisiis, 1844.

51 - TRIMINGHAM, J.S., *Christianity Among the Arabs in Pre-Islamic Times,* Longman London and New York, Librairie du Liban, Beirut 1979.

52 - VOLTAIRE, *Essai sur les mœurs et l'esprit des nations,* in *Œuvres complètes de Voltaire,* t. X, Hachette, Paris, 1893.

53 - --------, *Catéchisme de l'honnête homme,* in *Œuvres de Voltaire,* t. XXV, Paris, Librairie Hachette, 1893.

الفهرس

هذا الكتاب

لا يتوانى، هشام جعيّط، كلّما سنحت له الفرصة، عن التهجّم على الاستشراق واتهامه بمعاداة الإسلام، رغم البرقع الظاهر لبعض صفحاته التي تُبدي نوعاً من الحياد أو بعضاً من الثناء، حتى أنه انخدع به ليس العرب فقط، بل رجل من قامة مكسيم رودنسون. لقد أشاد هذا الأخير بأعمال جعيّط وأثنى عليه بسخاء مُستعملاً كلمات إطراء نادراً ما يتفوّه بها عالم في حق عالم آخر؛ سمّاه مؤرخاً موهوباً، ومدَحه لأجل تحرّره من النظرة الدينية. لكن رودنسون أخطأ خطأً فادحاً لأن جعيط إسلاموي قلباً وقالباً، روحاً ومَضموناً...


ISBN 978-9933352462

